في رحاب القرآن

مختصر تفسير العلامة الشيخ بيوّض

سـور .

[الفرقان * الشعراء * النمل * القصص]

«برواية ورش عن نافع»

اختصره ورتبه وأشرف عليه

الشيخ الناصر بن محمد المرموري

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

سورة الفرقان

تفسير سورة ﴿الفرقان﴾ مكية وءاياتها (٧٧)

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ
شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾
وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا
إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو
ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ
تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ
السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾

سورة كريمة من سور القرآن سميت بالكلمة التي وردت في أول جملة فيها ﴿ الفرقان ﴾ والسورة مكية كما يدل على ذلك أسلوبها المكي المعروف، وتشتمل على سبعة وسبعين آية بدأها الله تعالى بقوله : .

﴿ تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الآية : ١] .

تبارك أي تعالى وتعاظم، والبركة في اللغة هي النماء والزيادة والخير الذي يأخذ منه الناس ولا ينفد، والبركة تكون في العمر، وفي الرزق، وفي الطيبات من الأعمال، وبارك الله في الجنة ونعيمها وفي أهلها ، تبارك الله الذي نزل الفرقان على عبده ، نزل القرآن على عبده محمد بن عبد الله ـ ﷺ - وسمي الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، ولأن الله فرقه على عبده ليقرأه على الناس على مكث ، تبارك ربنا وتعالى.

ومن أعظم بركاته على عبيده إنزاله الكتب المنزلة على الرسل المرسلة، وأعظمها بركة القرآن الذي شملت بركته في زمانه وبعد زمانه حتى تقوم الساعة، وشملت بركته القاصي والداني، من الإنس و الجن، من آمن به ومن لم يؤمن، غير أن بركته على من آمن به أعظم وأدق، فهم يسعدون به سعادة لا شقاوة بعدها، ولا يزال الناس يسبحون في بحار القرآن، ويستخرجون الدرر وما نراه اليوم من تقدم العلوم والحضارات فمن بركات القرآن وما تحررت الافكار وانطلقت للبحث في فنون العلوم إلا بعد انتشار علوم القرآن، في ظل سلطان الإسلام، وكانت مقيدة يحرم عليها النظر والتصريح بما توصل إليه الفكر من حقائق العلم فأطلقها القرآن وفك قيودها وحل عُقُلها .

ويقول العلماء : كلمتان «تبارك وتعالى» لا تنسبان إلا إلى الله تعالى وهما صفتان ذاتيان لله اختص بهما دون سائر خلقه، فلا تنسب لا إلى ملك ولا نبي ولا إلى ذي سلطان، ولا إلى أي شخص مهما بلغ من عظمة الشأن، فلا تقال هاتان الكلمتان إلا في حق المولى الواحد عز وجل، تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره، وكل ما لله تعالى من صفات الجلال والكمال، والمجد والسلطان، فهي داخلة في مفهوم هاتين الكلمتين، وهو

الذي اختارهما وأسندهما إلى نفسه، وعلمنا أن نقولهما «تبارك الله» «تعالى الله» ﴿ تبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ .

هذا الفرقان الذي تعد كلماته وحروفه ولا تنتهي بركاته ولا تعد، ولا يزال الناس يستنبطون منه فنون العلوم والحكم والأحكام، وقد مضى على نزوله أربعة عشر قرناً من الزمن، ولا يزال عضاطريا غنيا بأسراره وكنوزه، ولا يزال الكفار يطعنون فيه ويحاولون إطفاء نوره وطمسه، ولا يزداد على مر الزمن وتقدم العلم إلا ازدهاراً وإشراقاً، يقيم الله به الحجة على العلماء بما توصلوا إليه من مخترعات علومهم، وكثير منهم من آمن به وذلك من بركات القرآن وما أعظم بركاته.

وسماه الله فرقانا لأنه فرق بين الحق والباطل، وبين الرشد والغي وبين صراط الله المستقيم المؤدي إلى الجنة، وبين طرق الضلال وسبل الشيطان المؤدية إلى النار ﴿ إنَّ هذَا القرآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] .

قال الشيخ أبو نصر النفوسي رحمه الله :

وشق طريقا بان من دار مسلم   إلى دار خلد مستقر ذوي الأمن

ذلك هو القرآن الذي بارك الله لنا فيه، سيخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴿ تبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ للعالَمِين نَذيراً ﴾ نزل الله كتابه المبين المفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ، نزله على عبده ورسوله محمد بن عبد الله - ﷺ - ليكون للعالمين نذيرا، لينذر كافة الناس أولهم وآخرهم، إنسهم وجنهم، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين.

والنذارة هو الإخبار بأمر مخوف يستقبله الناس والتحذير منه، وإرشادهم إلى أمر

يّتقُون به شره، وفي القرآن بيان لطريق النجاة من أسباب الردى في الدنيا والآخرة. واختار الله اسم الفرقان لأنه المفرق بين عهدين، عهدٍ مضى وهو عهدُ الجاهلية، وعهدٌ جديد يستقبله الناس وهو عهدُ النور، نور الإسلام الذي بيّن للناس سبل السلام، فقد وضع للناس قواعد الحضارة وأسباب الرقي والتمدن، وضع قواعد العبادة بين العباد وبين ربهم، بما ينالون السعادة، وبيّن لهم طريق المعاملة فيما بينهم وبين بعضهم البعض. ليعيشوا في مجتمع متكامل متعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، مجتمع متكافل تسود فيه المودة والتراحم، لا التباغض والتحاسد، مجتمع تسود فيه العدالة والمساواة، لا الظلم والمحاباة، مجتمع هو خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتواصون بالحق، ويتواصون بالصبر، ويتواصون بالمرحمة، أولئك هم أصحاب الجنة.

جاء القرآن والناس فوضى، والظلم يسودهم وقد مرجت عهودهم فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وحولهم إلى مجتمع مثالي في وقت قصير فكانوا خير أمة أخرجت للناس، يسودهم العدل ويعمهم الإحسان، ويؤمهم أئمة الهدى يعدلون في الرعية ويقسمون بالسوية ويهدونهم بأمر الله.

﴿ تبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾.

وأختار الله لنبيه اسم العبودية، وهو أشرف أسمائه وألزمها به من قبل اسم النبوءة والرسالة، لأنه كان عبدا لله ذليلا قبل أن يكون نبيئا ورسولاً، عرف ربه فخضع له وتذلل لعظمته وكبريائه، وتبتل إليه لعبادته وتحنث في الغار على قمة جبل عال يناجي ربه، ويسأله أن يهديه كيف يرشد قومه ويردهم إلى ملة إبراهيم التي حادوا عنها وضلوا عن سواء السبيل، فاستجاب الله له فهداه بعد الضلال وشرح صدره ووضع عنه

وزره الذي أنقض ظهره ورفع له ذكره، فأنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا .

ذلك هو عبد الله الخاضع لربه المتواضع له المديم لذكره المتقي الصابر ﴿إِنَّهُ من يَتَّق وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٠] لقد ارتفع بعبوديته لربه حتى بلغ أعلى عليين، حين اعترف بربوبية ربه وعبودية نفسه في عباد الله الصالحين، ولقد شرفه الله بتسميته عبدا ونسبته إليه، وهذا أعلى مقام يمكن أن يصله مخلوق وليس بين الله وبين خلقه نسب، وقد أخطأت النصارى وضلوا حين ظنوا بنبوة المسيح لله لما رأوا من تقريبه إياه إليه .

وما المسيح إلا عبد لله وأمه صديقة أمة لله، وإنما شرفهما الله وقربهما إليه لإخلاصهما في عبوديتهما لله الواحد القهار، وكذلك ضل الذين قالوا عزيز ابن الله من اليهود، وضل كثير غيرهم بنسبة الولد لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ هذا تنصيص على أن رسالة محمد - ﷺ - عامة لجميع البشر إنسهم وجنهم، أبيضهم وأسودهم وأحمرهم، وفي هذا دفع لشبه المضللين الذين يقولون إن رسالة محمد - ﷺ - للعرب خاصة، وما حملهم على هذا إلا الجحود والمكابرة والحسد، بل هي للناس كافة حتى تقوم الساعة ، وإن جاء في القرآن ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فذلك لتخويفهم حتى لا يغتروا بقرابتهم من النبي - ﷺ - ويتكلوا على ذلك، ولذلك أنذرهم وقال لهم : «أعملوا ولا تغتروا فإني لا أغنى عنكم من الله شيئا، ألا لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

وقد بلغ رسول الله - ﷺ - فأنذر الناس كافة، دعا الدانين، وكاتب القاصين وأرسل إليهم رسلاً، ودعوته عامة كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاس

بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ / ٢٨] ثم وصف الله نفسه بما هو له أهل فقال :

﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ في المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الآية : ٢].

لله وحده ملك السموات والأرض، وما بينهما وما فوقهما وما تحت الثرى، ولا أحد يدعي شيئًا من ملك الله، ولو ادعى لكذبه الناس في دعواه فهو وحده الملك الديان منزل الفرقان على عبده لينذر الناس جميعا ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ [الكهف ٤ /] ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ [الجن : ٣] ، ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَّلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] لم يكن له ولد ولم يتخذه ولم يكن له شريك في الخلق ولا في الملك ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ تعالى الله عن الشريك والولد، ومن نسب له شيئا من ذلك فقد ظلم ظلماً عظيماً، وضل ضلالاً مبيناً، وافترى إثما مبينا، ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : ١٨٠] هو الله الواحد القهار، تنزه عن الشريك وتقدست أسماؤه ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ هو وحده الخالق، خلق كل شيء، وهو الخلاق العليم، ولا أحد سواه يخلق ذبابا ولا أصغر منها تبارك الله أحسن الخالقين ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ .

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الاعْلَى الَّذى خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى١-٣] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] وهذا التقدير يتناول كل شيء ولو ذهبنا نعدد الأشياء ونذكر مقادير تركيبها لنفدت بحور الحبر، وكلت الأقلام دون تعدادها وذكر مقاديرها، ولو قرأنا الكتب التي ألفت في هذا الباب لرأينا العجائب والغرائب، ومن ذلك ما يذكر علماء

الطبيعة عن الأجزاء التي ركبت منها عناصر الماء والهواء مثلا، من الأوكسجين والهيدروجين وقالوا : إن في الجو المحيط بالأرض ٢١٪ من الأوكسجين وقال العلماء : لو يزداد مقدار الأوكسجين شيئا قليلاً لاحترق ما على الأرض، ولو ينقص لفسدت حياة الإنسان والحيوان والنبات، فكل شيء مقدر بموازين دقيقة قدرها الله تقديرا لعمارة هذه الأرض وبقاء الحياة فيها إلى حين.

وكما قدر الله الأجزاء، قدر الأعداد والأنواع والأزمنة والأمكنة، وحركات الأفلاك ودورانها، وبعد ما بينها فكيف بعد أن يدعي مدع أن خلق كل هذه الأفلاك وما فيها من عمل الصدفة ! هذا كلام لا يقوله عاقل ، أما علماء الطبيعة والحياة والأحياء فيقولون ويعترفون أنهم لا يزالون في مبادئ العلوم ا لكونية، وإن الذي اطعلوا عليه ما هو إلا مثل الصبيان الذين يلعبون بالحصى على شاطئ بحر خضم كبير، لم يدخلوه بعدُ ولم يستكنهوا ما فيه من الأغوار والأسرار وصدق الله العظيم الذي يقول : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : ١٠٩] ويقول جل من قائل : ﴿ وَلَو أَنَّمَا في الأرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ٢٧] وهذا من الله إعْلاَم لنا بسعة كون الله وكثرة مخلوقاته فسبحان الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ [الآية : ٣].

يقول الله تبارك وتعالى : إن هؤلاء الكفار يعلمون أن الملك لله وحده، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، وهم مع علمهم هذا يتخذون من دون الله آلهة يعبدونها ويرجون نفعها ويخافون ضرها، وهم يعلمون أنها لا تخلق شيئاً ولا تقدر على ذلك،

بل هي تُخلق أي تصنع وتنحت من مواد خلقها الله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون ﴾ [الصافات : ٩٦] فكيف تعبدون ما تنحتون بفئوسكم ومطارقكم وتصنعونه بآلاتكم؟! ويا ليت هذه الآلهة تنفع أو تضر ، إنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، ولا تملك النفع لنفسها ولا تدفع عن نفسها الضر، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا، إنها أضعف وأحقر من ذلك فيكف تتركون من يُحيي ويميت ويبعث العباد بعد الموت، ويجازيهم وهو ملك يوم الدين، وتذهبون تلتمسون في الأحجار والأشجار والمعادن آلهة تعبدونها وترجون شفاعتها، وأنتم تعلمون أنها لا تملك ذلك فأنى تؤفكون ! أفلا تعقلون.

وهكذا يبين هذا الأسلوب القرآني البديع سخافة عقول هؤلاء المشركين وضلالهم البعيد وتناقض أفعالهم، فهم ينحتون أصناما ويصنعون أوثانا ثم يعكفون عندها يرجون شفاعتها ويخافون ضرها، ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله فما لهم لا يعقلون : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾[النساء : ١١٦].

وتمضي السورة في بيان دعاوي هؤلاء الكفار الجاحدين لرسالات الله وكتبه، والرد عليها بما يدحض شبههم ويثبّتَ قلب النبي - ﷺ - وقلوب المؤمنين معه حتى لا يبقى مجال للشياطين في إلقاء الريب ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] يحكي قول هؤلاء الكافرين ثم يرد عليهم :

﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُو ظُلْمَاً وَزُوراً وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنزَلَهُ الذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الآية : ٤-٥-٦] .

ذكر الله في هذه الآية وفي التي قبلها الأنواع الثلاثة من افتراء الكفار والأسباب الكبرى لشقاقهم البعيد :

أولاً : ذكر اتخاذهم الشركاء له ونسبتهم الولد إلى الله زورا وبهتانا .

ثانياً : افتراؤهم على القرآن وقولهم عنه، إنه إفك بل قصرهم إياه على الإفك ﴿ إِنْ هذَا إِلاَّ إِفكٌ ﴾ ، وهم يعلمون أنه كلام الله وأنه يعلو ولا يعُلى .

ثالثاً : تكذيبهم برسالة محمد -ﷺ- ونسبته للإفتراء والكذب وهم يعلمون أنه الصادق الأمين، لم يجربوا عليه كذبة مدة أربعين سنة، فكيف يكذب على الله وما كذب على العباد أربعين عاماً، هذا أقصى ما وصلوا إليه من الكفر والظلمْ والطغيان : ﴿ وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إلاّ إفك افتراهُ ﴾ وكلامهم هو الإفك والزور، والإفك هو محض الكذب الذي ليس له نصيب من الصدق ولا شبه بالحق، قالوا هذا عن القرآن الذي هو كله حق وصدق، قال الله : ﴿ وبالحقِّ أَنْزَلْنَاهُ وبالحقِّ نزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] وفي مثل هذا يقول البوصيري :

عَجَباً لِلْكُفَّارِ زَادُواْ ضَلالاً   بِالذي فيهِ لِلْعُقُولِ اهْتَدَاءُ

ثم أمعنوا في التكذيب ووصفوا محمد الصادق الأمين بالافتراء، والافتراء هو اختلاق الكذب وما أبعد النبي عن هذا فضلاً عن أن يفتري الكذب على الله، ولو فعل ذلك لانتقم الله منه شر انتقام ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاقاويلِ لأَخَذْنَا منْهُ باليَمينِ ثُمَّ لَقطَعْنَا منْهُ الوَتينَ فَمَا منكُم مِّنْ احَدٍ عَنْهُ حَاجِزينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] وزادوا فقالوا : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أي أعانُه على تزويره وافترائه قوم ،ويشيرون إلى ثلاثة نفر من أهل الكتاب كان ربما يجلس إليهم محمد -ﷺ- كما يجلس إلى غيرهم من أهل العقل والمروءة، وفي آية أخرى يقول الله عنهم في

مثل هذا المعنى : ﴿ ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] .

يشيرون بهذا الكلام إلى رجل أعجمي حداد من أهل الكتاب النصارى كان النبي - ﷺ - يجلس إليه فرد الله عليهم أن لسان هذا أعجمي ، وهذا الكلام عربي مبين ، وقد عجزتم أن تأتوا بسورة من مثله ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا ، وعجزكم هذا بعد التحدي أكبر دليل على أنه من عند الله ، وقبل أن يذكر الله تعالى بقية افتراءاتهم يرد عليهم حتى لا يعلق كلامهم بالأذهان ، ولا تؤثر شبههم على بعض القلوب الضعيفة ، فيقول تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ .

ظلموا بتكذيبهم بالحق إذ جاءهم ، وظلموا بتكذيبهم لرسول الله وبإيذائهم له ، ولمن أمن به ، وسيلقون جزاء ظلمهم عند بارئهم ،وجاءوا زورا بقول الكذب والباطل في حق الله ، وفي حق كتابه وفي أنبيائه ورسله .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

ومن افترائهم على الله ، وقولهم الزور أن قالوا في كتابه الكريم : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ، والأساطير جمع أسطورة وهي ما ينقل ويحكى من أخبار الأمم السالفة ، وقد يزاد فيه وينقص وقد يختلق ويوضع ، ويقص على الناس ويتناقلونه عبر القرون والأجيال ، قالوا على القرآن هذا زورا وبهتانا ، وتعالى كلام الله عما يقول الأفاكون بل هو الحق من ربّنا ، ويقص الله فيه الحق من أخبار الأولين قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ، وكثيراً من أخبار بني إسرائيل وأنبيائه للموعظة والاعتبار، كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ [طه : ٩٩] .

يقص الله تبارك وتعالى على أنبيائه أحسن القصص للعبرة والاتعاظ، يبين فيها كيف كان عاقبة المحسنين، وكيف كان عاقبة الطغاة والظالمين، ويالَيْتَ هؤلاء المكذبين وقفوا عند هذا الحد، بل زادوا فقالوا زورا وبهتانا ﴿ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ افتروا على رسول الله - ﷺ- فقالوا عنه إنَّه اكتتبها أي إنَّهُ يكلف ناساً يكتبونها له صباح مساء، لأنهم يعلمون أنه أميّ لا يحسن الكتابة ولا القراءة فهو يكتتبها كل يوم بكرة وأصيلا، فكذبهم الله تعالى وفند باطلهم وأثبت الحق بقوله الحق وقال :

﴿ قُل انزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمَاوَاتِ والأرضِ إنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحيماً ﴾.

قل يا محمد وياكُلَّ مسلم لِكُلِّ جاحد وكافر ﴿ قُل انزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمَاوَاتِ والأرضِ إنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحيماً ﴾ ،قل أنزل هذا القرآن الله الذي يعلم الغيب والشهادة، ويعلم أسرار السماوات والأرض ، وفي هذا الرد تعبير أن هذا القرآن لا يشتمل فقط على أخبار الأولين، بل فيه أيضا الإخبار على ما بعد الموت من أمور يوم القيامة ،وفيه إخبار عن غيب السماوات وما بينهن وما فوقهن، وعن عالم الملائكة والجن، وعن أسرار الملكوت قال البوصيري :

تبارك الله ما وحي بمكتسب ولا نبي على غيب بمتهم

هل كل هذه الأخبار وهذه الأسرار كانت عند هؤلاء الأشخاص الذين اتهمتموهم بكتابتها فلماذا لم تكتبوها أنتم .وكيف صيغت في هذا الأسلوب العجيب المعجز الذي وقفتم دونه عاجزين أن تأتوا بسورة من مثله ؟! ﴿ بَلْ هُوَ الحقُّ من رَّبكَ ﴾ [السجدة : ٣] .

هكذا يثبت الله الذين ءامنوا ويحق الحق ولو كره المجرمون، إن في السموات

والأرض أسراراً وعلوماً جاء بها هذا القرآن الكريم المعجز، فهو أجل وأعظم من أن يُفترى من دون الله، وإن فيه لأخباراً عن يوم القيامة وما فيه من أسرار، وما يسبقه من أحداث عظام في أسلوب مؤثر تقشعر له جلود الذين يخشون ربهم وتلين قلوبهم وما يكذب به إلا الفاسقون، ثم بعد تقرير حكم الحق في القرآن ومنزل القرآن وصف الله نفسه بالمغفرة والرحمة، وما ذاك إلا لأن رحمته سبقت غضبه فقال ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ هذا تذييل بديع في مثل هذا المقام، ليبين الله لنا أن الغرض من إنزال هذا القرآن هو الدعوة إلى الله، دعوة الناس جميعا إلى مغفرته ورحمته : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

ومن رحمة الله بالعبيد أنه يمهل المكذبين منهم والمعاندين ولا يعاجلهم بالعقوبة لعلهم يتوبون، أو يذكرون أو يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله كما أخرج عكرمة من صلب أبي جهل، وخالدا من صلب الوليد وعمراً من صلب العاص بن وائل، وهؤلاء من أكبر أبطال المسلمين الذين أعز الله بهم الإسلام، وكانت على أيديهم فتوحات كبرى وانتصارات لجنود المسلمين، وكلما عظم الذنب ظهر عظم المغفرة وسعة رحمة الله سبحانه، له الحمد على حلمه بعد علمه، سبحانه له الحمد على عفوه بعد قدرته.

هذا ثم يستمر الكلام في بيان شُبه الكفار التي يلقونها ويرد الله عليها بما هو الحق، قال تعالى :

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي
الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾
أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ

الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾.

لا يزال سياق الكلام جارياً في الرد على شبه الكفار المكذبين، فبدأ أولاً في تعظيم الله وتنزيهه عن الولد والشريك، ووصفه بما يليق بجلاله وعظمته، وثنى بالرد على طعنهم في القرآن الذي هو كلام الله، وأثبت أنه منزل من عند الذي يعلم السر في السموات والأرض، وتعرض بعد ذلك لطعنهم في الرسول، ووصفهم إياه مرة بالافتراء على الله، وتارة بأنه مسحور، وتناقضهم في ذلك وضلالهم في ضربهم له الأمثال ويرد عليهم بما يدحض شبههم الزائفة ويثبت الحق وهنا يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الآية : ٧-٨].

يذكر الله في هذه الآية تعجب هؤلاء القوم من كون الرسول يأكل الطعام، ولابد بعد أكل الطعام من إخراج فضلاته، ويتعجبون من كون الرسول يمشي في الأسواق لقضاء حاجاته، ويقصدون من تعجبهم هذا إثارة الشبهات في قلوب الضعفاء من أقوامهم، وهم يعلمون أن جميع رسل الله من قبله يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وأنهم بشر من جنس البشر لا ملائكة ويقولون مكابرة وعناداً : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ

فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ .

يقولون هلا قرن به ملك من الملائكة يكون معه داعيا ونذيرا ، وهلا ألقى إليه كنز ينفق منه إنفاق من لا يخشى فاقة ويستغني عن البيع والشراء في الأسواق ، وهلا تكون له جنة تجري أنهارها وتتوفر ثمارها فيأكل منها ويطعم من يشاء ، فنعلم حينئذ أنه رسول من عند الله حقا :﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ .

سماهم الله ظالمين وهم أشد الناس ظلما ، لأنهم كذبوا على الله وكذبوا بالحق إذ جاءهم ،وكذبوا رسول الله محمد الأمين ، وجعلوه شاعراً ومجنوناً ، وساحراً ومسحوراً ،وتضاربت أقوالهم فيه ، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين ، وأن الكلام الذي جاء به فوق كلام البشر ، وأنه يعلو ولا يعلى ، وأنه ليس كمثله كلام وإنما منعهم من الإيمان به الكبر والحسد ، وحب الرئاسة وحب الفجور ، واتباع الشهوات وعبادة الهوى ، وقد عقب الله على قولهم هذا بقوله تعالى :﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَلَ فَضَلُّواْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ ، لما عجزوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه ، ذهبوا يختلقون الأقاويل المتناقضة فيه ويضربون الأمثال المختلفة ، وهذا شأن المبطلين إذا أعيتهم الحجج لجئوا إلى التهريج والطعن والتهويس ، وهنا يقول الله تعالى في وصف حالهم وفي تعجيب العقلاء من أقاويلهم :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾[الآية :٩] .

أنظروا أيها العقلاء كيف ضربوا له الأمثال المختلقة المتناقضة فضلوا ، أي طاشت سهامهم حين لم يستطيعوا سبيلا في معارضته والإتيان بسورة من مثله ، فلجئوا إلى ضرب الأمثال الباطلة التي ينقض بعضها بعضا ، فكيف يكون ساحراً وكيف يكون مسحوراً ؟ ! والساحر هو الكلام العبقري الذي يؤثر في القلوب ، والمسحور هو الذي

يهذي بكلام غير معقول، ويأتي بأعمال غير عادية ويخلط في كلامه، وهذا تناقض عجيب حقا، ولذا لم يرد الله عليهم هنا بل اكتفى بإلفات الأنظار إلى هُرائهم الذي يدل على ضلالهم المبين، وخبطهم خبط عشواء، وذلك شأن العاجز الذي أفلس من الحجة وأعياه الدليل .

وعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله مع بلاغتهم وتمكنهم من أساليب الكلام وشدة بغضهم للنبي -ﷺ- لدليل على أن الكلام ليس من صنع البشر، إنما هو كلام الله الذي هو فوق كل كلام ولن يستطيع البشر معارضته بمثله ، ولجئوا إلى الطعن في الرسول بكونه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وهذه شبهة قديمة تعلق بها سلفهم الكفرة من لدن عهد نوح شيخ المرسلين، وهي أوهى من بيت العنكبوت ، قال قوم نوح في نوح رسول الله : ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال عاد قوم هود في هود رسول الله : ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون : ٣٣-٣٤]، وقال قوم صالح في صالح رسول الله :﴿أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر : ٢٤]، وقال قوم فرعون في موسى رسول الله وفي أخيه هارون : ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون : ٤٧] .

وهذه الشبهة التي تعلقوا بها تدل على سخافة عقولهم ،وعدم إدراكهم حكمة الله في إرسال الرسل وإنزال الكتب، وما حجبهم عن الحق إلا اتباع الشهوات، وعبادة الهوى وقد رد الله عليهم في سورة الأنعام ردا محكما وواضحا بقوله تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام : ٩] لو اقتضت

حكمة الله أن يرسل إلى البشر ملكا من ملائكته لجعله رجلا حتى يتمكنوا من مخاطبته ورؤيته، وحينئذ يلتبس الأمر عليهم مرتين فتتضاعف الشبهة، فيطالبونه أولا بالدليل على أنه ملك وليس ببشر، ثم يطالبونه ثانيا على أنه مرسل من عند الله ويكذبونه كما كذبوا رسول الله البشر، ويقعون في ظلمات بعضها فوق بعض، ومن رحمة الله تعالى بالبشر أن يرسل إليهم رسلا من البشر : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وهذه من أعظم منن الله تعالى علينا أن تكون رسل الله من جنسنا، يحسون ما نحسه من التعب والمشقة، والمرض والجوع، ويطلبون لنا التيسير من الله، ولا يكلفوننا ما فيه إعناتنا لأنهم يعز عليهم ذلك وما ذاك إلا لأن طباعهم تشبه طباعنا البشرية، ولأن جبلتهم هي جبلتنا فهم بشر مثلنا، وإنما اصطفاهم الله علينا ليكونوا موضع أمانة الرسالة والتبليغ وليكونوا أسوة لنا :﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالاته﴾[الأنعام: ١٢٤].

وليس في هذا ما يدعو إلى العجب بل هو عين الحكمة ومقتضى الرحمة، ووجه الصواب وفي إرسالهم تكريم لبني آدم وتفضيل لهم على كثير ممن خلق الله، أما اقتراحاتهم أشياء هي خارجة عن ذات الرسول فهي مجرد جدل ومراء، ومكابرة تنبيء عن إعراضهم عن الحق وإبائهم، ولا قيمة مطلقا في أشياء هي خارجة عن ذات الرسول، إذا كان الله كمَّل رسوله وجمله في خلقته وخُلُقه، وأدبه فأحسن تأديبه، حتى صار مثالا للأخلاق العظيمة، والرسول على قدر المرسل كما جاء في الأثر، وقد خيره الله في كنوز الدنيا فأبت همته ويقينه إلا أن يختار ما يبقى على ما يفنى، ولو أنزلت على الكنوز لكان لهؤلاء المجادلين متمسك في شبهة يموهون بها على ضعفاء الناس فيقولون : إنه قد

كفي بأمر الدنيا فاشتغل بالعبادة، ونحن تضطرنا الحاجة إلى العمل فلا نقوى على الجمع بين طلب الرزق والعبادة، وهذا كلام واهٍ غير أنه قد يروج على ضعفاء الإيمان، وكذالك الأمر لو جعلت جنات يأكل منها، ولكن الله زوى عنه الدنيا وأعطاه القناعة واليقين وقال له: ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[طه: ١٣١] .

وهذا من الله صرف لطيف لأنظارنا إلى ما هو خير وأبقى من رزق الله الذي هو القرآن والإيمان والحكمة: ﴿ وَمَن يُوتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾[البقرة : ٢٦٩] وهنا أنزل الله عليه آيات بينات فيها الجواب الكافي والشافي لاقتراحاتهم فقال تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَّكَ قُصُوراً ﴾ [الآية : ١٠].

تعاظم ربك وتعاظم ملكه وجلاله وتعالى جده، إن شاء جعل لك خيرا من تلك الأشياء التي اقترحوها ولا يعجزه شيء لو اقتضت حكمته ذلك لجعل لك جنات تجري من تحتها الأنهار، وجعل لك قصوراً كثيرة، لا جنة واحدة وقصرا واحدا، بل جنات وأنهارا وقصورا، ولكن ليس ذلك من لوازم النبوءة، ولا هي من متطلبات الرسالة، ولا هي من المعجزات الدالة على صدق رسالتك، وقد أيدك بالمعجزة الخالدة التي تنفع من في زمانك وبعد زمانك حتى تقوم الساعة وهي القرآن، وهو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لو اجتمع الجن والانس على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وهو القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ويقول فيه منزله :﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمومِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ

خساراً ﴾[الإسراء : ٨٢]، وقال :﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ اثِيمٍ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءاياتُنا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[المطففين: ١٢-١٣]. فهم يعلمون أن رسول الله صادق أمين، وأن الذي جاءهم به ليس من عنده، ولكن يصدهم كبرهم الذي في صدورهم، ويمنعهم طغيانهم وآثامهم التي رانت على قلوبهم، فهم ينفرون من ذكر الساعة ويمارون فيها ؛ لأن الإيمان بها يحول بينهم وبين شهواتهم، فإنكارهم لقيام الساعة هو الذي جرّأهم على التكذيب والطغيان وارتكاب الظلم والآثام ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان : ١١-١٦].

يكشف الله لنا في هذه الآيات سر انحرافهم عن طريق الهدى وإبائهم إياه، ويبين الله سوء مصيرهم وأنهم سيندمون وينادون بالويل والثبور، ولا يسمع لندائهم ولا هم ينصرون، ويناظر الله بين حالتهم السيئة، وبين حالة المتقين السعداء في جنة الخلد ،

منعمين فيها بما يشاءون من أصناف النعيم وبالخلود، وأن ذلك وعد من الله محقق كتبه الله على نفسه، ولهؤلاء وهؤلاء أجل لا ريب فيه فطوبى يومئذ للمتقين: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَآبٍ﴾ [الرعد : ٢٩] وبؤسا للظالمين ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

وإنه لمشهد عظيم ومؤثر من مشاهد يوم القيامة نسأل الله السلامة من موجبات الخزي والندامة، ونسأله العون والتوفيق لما يوصل للخلود في دار الكرامة مع أوليائه الصالحين، ولنرجع إلى مبدأ هذه الآيات حيث يقول الله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ [الآية : ١١].

«بل» حرف إضراب، أي ليس الأمر كما يزعمون من اقتراح الآيات ففيما نزل إليهم من القرآن ما يكفيهم للإيمان كما ءامن الناس، ولكنهم كذبوا بالساعة وأنكروا قيامها وكذبوا بالحساب والجزاء، وهذا هو السر في قساوة قلوبهم وإعراضهم عن الذكر وكذلك يصنع التكذيب باليوم الآخر، وما فيه من الثواب والعقاب فكيف ينفع الإنذار في المكذبين بيوم الدين ، قال الله تعالى: ﴿الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء : ٤٩] أي إنما ينتفع بالإنذار والوعظ الذين يخشون ربهم، ويخافون قيام الساعة، وما تحمله الساعة من الأهوال، وما وراءها من ثواب أو عقاب، أي يخافون حلول العقاب وفوات الثواب خوفا بلغ بهم حد الاشفاق . ثم يبين الله عاقبة الذين يكذبون بالساعة فيما يلي بيانا تقشعر منه الجلود وتلين له القلوب فيقول :

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً * اذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوا هُنَالِكَ ثُبُوراً * لاَّ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ [الآية : ١١-١٤] .

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ وجعلنا جهنم مثوى للذين يكذبون بالساعة، فهي

مخلوقة مُعدّة لهم تنتظرهم ليس بينهم وبينها إلا خروج أرواحهم، فهم يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم القيامة يدخلونها ولا يخرجون منها أبدا، ويصور الله لنا مشهدا مفزعاً من مشاهد يوم القيامة وهو هيئة جهنم وهي تستقبل أولادها .

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ .

هنالك سعيراً عده الله لمن كذب بالساعة، والسعير اسم من أسماء جهنم لاستعارها دواما فهي لا تخبو، والسعير وإن كان مذكرا ولكن الضمير مؤنث لملاحظة جهنم التي هي مؤنثة، إذا رأت أبناءها تغيظت وزفرت زفيرا هائلا، تنخلع له الأوصال، فقد صورها الله في صورة حيوان مفترس ضار شديد الضراوة، يسمع ويرى ويزفر يشهق ويغتاظ إذا رأى فريسته، ونحن نؤمن بما أخبرنا الله به من شؤون يوم القيامة والله على كل شيء قدير، ونسأل أن يقينا حرها وشرها، وكيف يكون حال هؤلاء وهم يسمعون زفيرها ويرون سعيرها، وليس بينهم وبينها إلا صدور الأمر من العزيز الجبار، ها قد صدر الأمر وسلط الله عليهم الزبانية، فسلكوهم في سلاسل وأغلال وألقوهم فيها مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران تخشاهم النيران قال تعالى :

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ .

إذا ألقاهم الزبانية في مكان ضيق منها مغموم مقرنين في الأصفاد، ومسهم عذابها، صرخوا ودعوا بالويل والثبور، والآية توحي بأنواع من الإهانة والعذاب فهم يلقون في النار إلقاء بعد أن يدعوا إليها دعا، ويبنى الفعل للمجهول لهوانهم على الله، فلا حاجة إلى ذكر الملقى من هو، ويلقون مكان ضيقا، وهذا يزيد في تعذيبهم لأنه لو كان واسعا لكان لهم مضطرب، وفي ذلك نوع من الراحة ثم إنهم يلقون مقرنين في الأصفاد والأغلال، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم، وغلت أرجلهم، وقرنوا مع شياطينهم الذين

كانوا يصلونهم في الدنيا، وقيل مع أصنامهم التي كانوا يعبدونها فهم يتلقون العذاب والضرب من جميع جهاتهم، ولا يستطيعون دفاعا عن أنفسهم وحينئذ، يدعون بالويل والثبور، وينادون واثبوراه ويتمنون الموت والهلاك مرة و احدة ليستريحوا مما هم فيه فلا يجدونه، قال الله تعالى:

﴿لاَّ تَدْعُواْ الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً﴾ .

ادعو كثيراً وكثيراً، ولا يُسمع دعاؤكم ﴿وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ [الرعد : ١٤] ، وهذا أكبر أنواع الخزي والهوان، إنهم يدعون كل من يرجون شفاعته حتى الزبانية الذين يعذبونهم فلا يسمع دعاؤهم، أما الله فقد أجابهم بجواب مؤنس بقوله : ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون : ١٠٨] وكذلك يقول لهم مالك خازن النار : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ﴾[الزخرف : ٧٧] ما أروعه من مشهد تتصدع له الجبال، وتتفتت له الأكباد، وتفزع منه القلوب، نسأل الله أن يقينا ويجنبنا مصائر الظالمين آمين ، ثم يناظر الله تبارك وتعالى بين مصير هؤلاء الظالمين ومصير المتقين فيقول :

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً﴾[الآية:١٥-١٦] .

ينزل الله آياته مثاني تلين لها قلوب الذين يخشون ربهم، وهم الذين ينتفعون بالذكرى والموعظة الحسنة، وهنا بعد أن عرض مصير الظالمين، يقارن بينه وبين مصير المتقين في أسلوب استفهامي مؤثر، ليظهر الفرق الكبير بين المصيرين :

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ .

أيهما خير أذالك الذي عرض عليكم من جزاء الظالمين في السعير . وهم فيه مكبلون في السلاسل والأغلال ، وهم مبلسون ، أم جنة الخلد التي وعد الله عباده المتقين ، ولن يخلف الله وعده ، ووصفت بجنة الخلد وهو أجل أوصافها وأبلغه وأعلاه ، ووعد بها المتقون والتقوى كلمة جامعة لكل خصال الخير الباطنة والظاهرة ، وبتقواهم نالوا رضا الله ، واستحقوا الكرامة ، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾[الحجرات / ١٣] وهذه الجنة التي وعدهم إياها .

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾ .

كانت لهم جزاء على تقواهم وأعمالهم الصالحة وصبرهم ، وكانت لهم مصيرا يصيرون إليها يوم القيامة وهم مغتبطون راضون وياما أسعده من مصير ! ، وذكر المصير يشعر بأن هناك صراطا مستقيما يصير سالكوه إليه آخر الأمر ، وقد تكون عقبات ومشقات في سلوك هذا الصراط المؤدي إلى هذا المصير ، فلابد للسالكين من الصبر على ما يكرهون ، ليصيروا إلى ما يحبون ويشتهون . قال تعالى : ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ لهم في هذه الجنة ما يشاءون من أنواع اللذات والنعيم ، وهذه كلمة جامعة تغني عن أوصاف طويلة ، وقد جاءت هذه الأوصاف في مواضيع كثيرة من القرآن الكريم ، وجاء مثل هذا الإجمال أيضا في قوله تعالى : ﴿لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[فصلت :٣١] ، ثم ذكر الخلود هنا للمرة الثانية فقال :

﴿خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً﴾ .

ذلك لأن الخلود هو النعمة الكبرى التي تكمل بها جميع نعم الجنة ، ورضوان الله أكبر ، ويؤكد الله تحقق هذا النعيم المقيم بأنه كان على ربك يا محمد وعدا مسؤولا ،

كتبه الله على نفسه، ومن أصدق من الله حديثا، والله لا يخلف الميعاد، فثقوا أيها العاملون بوعد الله، وكونوا مطمئنين بنيل هذا المصير السعيد، متى استقمتم على الطريق المؤدي إليه ويا ما أنعمها من دار المتقين . ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾.

[الفرقان: ١٧-٢٠] ، يذكرنا الله تعالى بمشهد من مشاهد هؤلاء المشركين يوم الحشر، يوم يقفون موقف الخزي، حيث يخاطب الله معبوديهم الذين اتخذوهم من دون الله شفعاء، يرجون نفعهم ويخافون ضرهم :

﴿ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادى

هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ السَّبِيلَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنَ اوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُواْ الذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾[الآية:١٧-١٨].

أذكر يوم نحشرهم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله، من الإنس والملائكة والجن والحيوان ، وغير ذلك من الأوثان والأنصاب التي عبدت من دون الله، فيخاطب الله هذه المعبودات يقول لها :

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ السَّبِيلَ ﴾ .

هذا السؤال موجه للمعبودين، وهو تبكيت لعابديهم، وللذين رضوا أن يُعبدوا من دون الله من الإنس والجن ، وعبادتهم من دون الله ضلال مبين، ومن دعا الناس إلى عبادته فقد أضلهم وأرداهم : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [النساء:١١٦]، ثم يكون الجواب يومئذ لعباد الله الذين أنكروا الشرك وما رضوا أن يُعبدوا من دون الله، هؤلاء فقط يؤذن لهم أن يجيبوا ويقولوا صوابا :

﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنَ اوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُواْ الذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ﴾.

قالوا سبحانك يا ربنا تنزيها لك وتقديسا ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ، هذا أمر لا يصح ولا يقع، وهذا أبلغ من نفس الفعل إذ هو نفي الإمكان ونفي الحقيقة والشأن، وهذا الجواب يقوله الملائكة ويقوله المسيح ابن مريم يومئذ يدافعون عن أنفسهم بالحق، ويقيمون الحجة على عَابديهم من دون الله، وقد قص الله لنا كلامهم في سورة المائدة وفي سورة سبأ .

أما في سورة المائدة فيعرض لنا مشهد المسيح ابن مريم والحوار الذي يجري بينه وبين

الله بما هو الحق وذلك حيث يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأنت قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﴾[المائدة: ١١٦] ، وأما في سوة سبأ فيعرض لنا مشهد الملائكة والحوار الذي يجري بينهم وبين الله بما هو الحق كذلك ، حيث يقول : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤمِنُونَ ﴾[سبأ : ٤٠-٤١] ، يتبرأ الملائكة من هؤلاء الذين عبدوهم من دون الله ، وهذه تذكرة لهؤلاء الذين يعظمون الأضرحة والقباب ، ويتقربون لها بالذبح والنذور ، ويحلفون بها ، وقد زين لهم الشيطان صنيعهم فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويقول الله يوم القيامة لهؤلاء وهؤلاء حين يخيب ظنهم في معبوديهم :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً ﴾ [الآية / ١٩] .

الخطاب في الآية لهؤلاء الضالين بعبادتهم غير الله ، واتخاذهم من دونه أولياء ، يقول لهم الله يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة : فقد كذبكم هؤلاء الذين عبدتموهم وزعمتم أنهم لله شركاء كذبوكم فيما تقولون وأنكروا عبادتكم وتبرءوا منكم فما يستطيعون صرف العذاب عنكم ، وما يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، ذهبت أعمالكم هباء منثوراً ، وضل سعيكم ، وخابت أمانيكم فما يستطيعون صرف أي مكروه عنكم ، ولا نصركم ولو بالموت الذين تطلبونه ليريحكم من العذاب ، فما أشد حسراتهم وهم موقوفون في هذا الموقف المخزي وهم مبلسون ، ويعرض الله لنا في هذه

الآية العظيمة موقفهم هذا للاعتبار والادّكار ليبّن للناس سوء عواقب الشرك والمشركين، والشرك ظلم عظيم، ولذلك أرد فها بقوله :

﴿ وَمَن يَظْلِمْ مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً ﴾ .

وهذا الخطاب للناس في الدنيا، وهو إنذار لهم أن من يظلم منهم من العابدين لغير الله، ومن المعبودين من دون الله إذا طلبوا ذلك ورضوه لأنفسهم أن الله سينتقم منهم ويذيقهم عذاباً كبيراً، وَصَفَ الله العذاب بالكبر، والعذاب عذاب وإن جُرِّد من الأوصاف، فكيف إذا وصف بالكبير والأليم والعظيم، نعوذ بالله من غضبه وعذابه ومن أليم عقابه، ثم يخاطب الله نبيه في أسلوب بديع بما فيه من الالتفات وفيه الرد على شبه هؤلاء الجاحدين لرسالة محمد - ﷺ - بعد تبينها وظهورها فيقول جلّ من قائل تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [الآية : ٢٠].

بعد أن رد الله تعالى على الكفار على جحودهم وكفرهم، وتوعدهم بالعذاب الكبير جزاء على ظلمهم، رجع إلى نبيه بأسلوب الالتفات، يخاطبه خطاب تثبيت وتسلية له ولأصحابه، وهو تبكيت وسخرية بعقول الكافرين المتمسكين بالشبه الباطلة؛ وفيه بيان الحكمة من فتنته تعالى بعض الناس ببعض ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن ليبلو بعضهم ببعض ولله تعالى في خلقه شُئون، يقول الله تعالى لنبيه محمد عليه السلام، لئن كذبك هؤلاء الكفار وطعنوا في رسالتك، لقد كذبوا بجميع رسل الله وأنبيائه وكذبت الأمم من قبلهم أنبياءهم وقالوا : بشر مثلنا يأكلون مما نأكل،

ويشربون مما نشرب، ويخُرجون فضلات بطونهم .

يقول الله لنبيه : وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا بشر يأكلون الطعام، ويمشون في الاسواق، وءامن بهم من ءامن، وكفر من كفر، وتلك حكمة الله أن يجعل بعضهم لبعض فتنة، والفتنة هي اختبار المعادن بإدخالها في النار فتتحلل العناصر الغريبة ويبقى المعدن صافيا، وكذلك يفتن الله عباده ليظهر منهم بالافتتان ما سبق في علمه، فيظهر بعد فتنة المؤمنين بأهل الكفر من يصبر منهم على الأذى والتعذيب والقتل فينال جزاء صبره عند الله، والله لا يضيع أجر المحسنين، وهم في صبرهم درجات وفي ثوابهم درجات عند الله، وليظهر بعد فتنة الكافرين بأنبياء الله ورسله من يصبر منهم على اعتناق الدين الجديد ويتواضع لله ويتبع رسله فيغفر الله له ما سلف، ويظهر من يفتتن ويصر على كفره وعناده، ويستكبر على أنبياء الله ورسله ويستنكف عن عبادة الله فيستحق العقاب الأليم، وخلق الله الجنة والنار ليكون لهذه وهذه نصيب من الإنس والجن وتلك هي حكمة الخلق، والإماتة والإحياء: ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : ٢] .

كل هذا وقد علم الله من عباده الشقي والسعيد، والعاصي والمطيع، وإنما يقيم الحجة عليهم بأعمالهم وليظهر هذا المعنى عقب الله الآية بقوله :

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ .

أي وكان الله بصيرا بخلقه واختياراتهم، عليما بهم ، وهو تذييل مناسب، ولولاه لظن ضعفاء البصائر والإيمان أن الله يبتليهم ليتبين له البر والفاجر، والسعيد

والشقي، كلا بل يبتليهم ليظهر علمه فيهم، وليقيم الحجة عليهم : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] ، والناس مختلفون : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل : ٤] .

كل ذلك ليدخل أهل الجنة باستحقاق ويدخل أهل النار باستحقاق ، ثم يستمر الكلام في عرض شبه هؤلاء الكفار والرد عليهم ردا محكما فيأتي قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ .

يحكي الله تعالى في هذه الآية شبهة من شبه هؤلاء الكفار، ويرد عليها ردا محكما فيه صرامة وقمع وشدة ،وقد وصف هؤلاء بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، اليوم الذي يلقون فيه ربهم ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم بالقسط، وهذا الكفر بالآخرة هو الذي جرّأهم على هذه المقالة العاتية ، يقول الله تعالى :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنَا﴾ [الآية : ٢١] .

قال الذين لا يتوقعون لقاء الله ولا يصدقون به ولا يخافونه ولا يرجونه، وفسر بعض المفسرين الرجاء هنا بمعنى الخوف، وهي من الكلمات التي تستعمل في الأضداد، وقد جاءت في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، وذلك في سورة نوح وعلى لسان نوح عليه السلام، وهو يخاطب قومه الكفار: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح : ١٣-١٤]، أي ما لكم لا تخافون الله وتوقرونه وقد خلقكم في بطون أمهاتكم وبعد ولادتكم أطوارا، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ، قال هؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله لولا أنزل علينا الملائكة ، أي هلا أنزل علينا الملائكة لو كان هذا الأمر حقاً من عند الله، وقد رد الله عليهم بما فيه الكفاية وهذا غير قولهم : ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان : ٧]، طلبوا نزول الملائكة عليهم، فإن لم ينزلوا عليهم فلينزلوا على الرسول فيكونون له ظهيراً في النذارة والاقتراح الثاني قالوا :﴿ أَوْ نَرى رَبَّنَا ﴾ وهنا أوغلوا في الاستكبار والعتو باقتراحهم رؤية الله سبحانه : ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الأنعام / ١٠٣]، قال الله تعالى في وصفهم حين اشترطوا لإيمانهم هذين المطلبين الصعبين .

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾ [الآية : ٢١] .

وصفهم الله تعالى بكبر النفوس وأكد وصفه بمؤكدين، ولا يشترط هذا الشرط إلا من بلغ به كبر النفس مبلغه وعتا عتواً كبيراً، وهذا من الله قمع لهم وتهديد،

ويا ويلهم على ما يلقون من هذه المقالة إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى الحق، ووصفوا بكبر الأنفس لتسفيههم الحق وتعديهم طورهم في الاقتراح ،وذلك هو العتو الكبير، واكتفى ربنا تعالى بهذا الوصف لهم، وبالوعيد الذي بعده عن الرد على اقتراحهم لهوانهم على الله، ولظهور الحق في أمر الرسالة لمن شاء أن يستقيم، فلا لزوم لنزول الملائكة ورؤية الله لمن يطلب الحق ليهتدي، فالحق واضح، وحجة الله قائمة بإرسال الرسل المؤيدين بالمعجزات وإنزال الكتب بالآيات البينات، ولا يكابر بعد هذا إلا شقي، وجاء الجواب على مقالتهم بأسلوب اللف والنشر المعكوس، ووصفهم بالاستكبار والعتو رداً لهم على اقتراحهم رؤية الله، ثم رد الله عليهم في اقتراحهم نزول الملائكة بقوله:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ [الآية : ٢٢].

إنهم يقترحون نزول الملائكة،ويجعلون نزولهم شرطا لإيمانهم، وسيأتيهم اليوم الذي يرون فيه الملائكة وحينئذ يرون الوعيد المحقق ولا بشرى يومئذ للمجرمين، إنهم لا يرون يومئذ خيرا ولا يطمعون في خير، بل يرون العذاب وقد أحاط بهم :﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ هذه كلمة تقولها العرب إذا أحاط بأحدهم العدو وتحقق البأس، يقولها أحدهم ليستدفع بها البلاء ظنا منه أنها تنفعه، وقلما تنفع يقول : ﴿حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ أي حاجزا مانعا بيني وبينك لا تتقدم، وكثيرا ما يقولونها في الأشهر الحرم وداخل الحرم، وقد يقولها أحدهم إذا كان معتدا بما عنده من القوة أو موقنا بمدد قريب منه، وهؤلاء المجرمون يقولونها يوم القيامة حين يرون الزبانية محيطين بهم ليدعُّوهم إلى نار جهنم دعا، ولا تغنيهم يومئذ شيئا : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

إنه يوم عسير على الكافرين غير يسير، إنهم لم يمتنعوا عن ملائكة الله يوم حضر أجلهم ونزل عليهم أمر الله، وهم لا يمتنعون عن الزبانية يوم يأمرهم الله بأخذهم ودعهم إلى نار جهنم في السلاسل والأغلال والأنكال، نعوذ بالله من مصير هؤلاء الظالمين ثم يقول الله تعالى :

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الآية:٢٣].

ذلك لأن هؤلاء الكفار لهم أعمال ظاهرها حسن، ولكنهم لا يريدون بها وجه الله، ولا تنفعهم لخلوها من الإيمان بالله واليوم الآخر .

إنهم يكرمون الضيف، ويحمون الجار، ويطمعون الجائع، ويؤوون الغريب، وينقذون الملهوف، وينصرون المظلوم، ويتمدحون بمكارم الأخلاق، ولكنهم لا تقبل منهم لكفرهم، وكثيراً ما يريدون بها الفخر والاشتهار، ولذلك يحبط الله أعمالهم ويجعلها هباء منثوراً لا وزن لها يوم القيامة، وقد شبهها في غير هذا الموضع برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف، وشبهها بالظلام كما شبهها بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

يا خيبتهم يومئذ وياخسارتهم، بل هم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ضاعت أعمالهم بسبب كفرهم وشركهم وجحودهم ولا ينفع مع الشرك عمل . هذه حالهم بينما حال المؤمنين في خير وسعادة :

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَراً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ [الآية : ٢٤] .

الأسلوب القرآني البديع يناظر بين أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء بتصوير

مشاهد هؤلاء وهؤلاء، وهو الكتاب المثاني الذي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ويؤمنون بالآخرة، فها هو يعرض علينا مشهد مصير المؤمنين السعيد وهم في الجنات ينعمون : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ هم أصحاب الجنة الوارثون لها، وقد أعدت لهم وخلقوا لها واستحقوها برحمة الله، واقتسموها بأعمالهم ورحمة الله قريب من المحسنين، واستقروا فيها ونعم المستقر فهم فيها خالدون، وما هم منها بمخرجين، ولا يبغون عنها حولا، هي مقيلهم وما أحسنه من مقيل فهم في ظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وكلمة المقيل لا يقصد منها القيلولة فقط بل يراد بها الراحة والنعيم واطمئنان البال، وقد نستعملها في تعابيرنا ونريد بها الراحة والاطمئنان والسلامة من الهموم والغموم والمشاكل، فهي كلمة معبرة عن السعادة والنعيم لها دلالتها القوية على حسن حال أهل الجنة، فأي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟! لا شك أن أهل الجنة خير مستقراً وأحسن مقيلاً فليختر العاقل لنفسه ما دام الاختيار، نسأل الله التوفيق لمصير الأبرار ونعوذ برحمته من مصير المجرمين الفجار .

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾
الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ
عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي
اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي

وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾.

يصف الله تبارك يوم القيامة بأوصاف عظيمة مؤثرة تهتز لها القلوب، وتندهش منها العقول، هذا أول وصف لقيام الساعة :

﴿ ويَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بالغَمَامِ ونُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تنزِيلاً ﴾ [الآية : ٢٥] .

أذكروا اليوم الذي تتشقق فيه السماء، وتشقق السماء أمر عظيم نؤمن به، ولا يعلم كيفيته إلا الله تعالى، كيف يتشقق بنيان السماء ، وكيف تنتثر نجومها وتنكدر، إنه منظر رهيب تنخلع له القلوب، تتشقق السماء بالغمام وأي غمام هذا يغمر السماء؟! إنها ظلل الغمام التي يأتي معها أمر الله وتُنزَّل معها الملائكة تنزيلا حقيقيا ! صفوفا صفوفا يُنزلها رب العزة وذلك بداية يوم الحشر، حينئذ يتمحض الملك لله :

﴿ المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَانِ وكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً ﴾ [الآية : ٢٦] .

المُلك الحق يومئذ للرحمن ملك يوم الدين، لا أحد ينازعه الملك، وملوك الدنيا يومئذ أذل خلق الله إلا من كان منهم تقيا : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦]، ذلك اليوم الحق يتمحض فيه المُلك الحق للمَلِك الحق، إنه يوم عظيم حقا .

ومما يدخل الرجاء والبشارة على قلوب المؤمنين اختيار الله تبارك وتعالى هنا في هذا المقام الهائل اسم الرحمن، ليضفي على قلوب أوليائه بشارة وأنسا بربهم الذي عبدوه وخافوه ورجو لقاءه وأحبوه، «ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» الملك يومئذ الحق للرحمان العادل الذي يُمن بالرحمة ولا يظلم بالعذاب، الذي سبقت رحمته غضبه، إنه البر الرحيم الذي أطمع عباده الخائفين في رحمته، وآمنهم من ظلمه، فلا تُظلم نفس شيئا، أما على الكافرين فكان يوماً عسيراً، يوماً عبوساً قمطريرا، إنهم عليهم عسير غير يسير، إنهم لا يرون فيه الخير ولا يطمعون في الخير. ﴿ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أولئك ييأسون من رحمة الرحمن، لأنهم كانوا يكفرون بالرحمن، وينفرون من ذكر الرحمن ويستنكفون عن عبادة الرحمن، فأنى يطمعون في رحمة الرحمن، إنهم بعيدون عنها يوم ينعم بها أولياء الرحمن، ثم يعرض الله في هذا الجو المكفهر مشهداً رائعاً من مشاهد الظالمين فيقول:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الآية: ٢٧-٢٩].

مشهد الظالمين وهم يعضون أيديهم من فرط الندم والحسْرة ولات مندم، ولات مناص، يعض الواحد منهم على يده فيأكلها أكلاً حقيقياً من شدة الندم، وقد رأى العذاب ينتظره ولا مفر له منه ويندم على ما فرط في الدنيا وقد كان يمكنه أن يسلك سبيل النجاة لولا أن خلانه فتنوه، وصدوه عن السبيل وغروه فاغترَّ، وها هم اليوم وقد

حق عليهم العذاب جميعا، يلعن بعضهم بعضها ويكفر بعضهم ببعض، ومأواهم النار وما لهم من ناصرين .

وقديما عرف الناس عض بنان الندم، وقد يشتد الندم بأحدهم على ما فرط وضيع، فيعض يده حقيقة، وقد يصل الندم بهم إلى الجنون، وكثيرا ما حمل هؤلاء إلى المستشفيات، وإذا كان هذا في أمور الدنيا الفانية وأحوالها المتقلبة فكيف بأمور يوم القيامة الهائلة، وعذاب الدنيا يزول وينقطع، وعذاب الآخرة لا يزول ولا ينقطع، فالذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وظلموا الناس بأنواع الظلم حين يرون العذاب المحقق يعضون أيديهم ويأكلونها ندما على ظلمهم وتفريطهم، يقول أحدهم وقد أحاط به العذاب :

﴿ يَالَيْتَنِى اتَّخَذتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ [الآية : ٢٧].

حينئذ يؤمن بالرسول وقد كان يكفر به وبسبيله ويسخر منه ومن معه من المؤمنين يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ليتني سلكت سبيل الهدى مع الرسول، يتمنى أن لو كان آمن بالرسول واتبع سنته وسلك سبيله، ولا ينفعه تمنيه يومئذ شيئاً، إنما ينفعنا نحن هذا المشهد المؤثر فنتعظ ونتذكر، ونتجنب مصائر هؤلاء المكذبين المعرضين الذين ظلموا أنفسهم، وتلك هي عاقبة الظالمين الذين شاقوا الله ورسوله من بعد ما تبين لهم الهدى واتبعوا سبل الشياطين، ينادون بالويل والثبور، يقول أحدهم :

﴿ يَاوَيْلَتِى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الآية : ٢٨-٢٩].

يا ويلتى - كلمة يصرخ بها الهالكون إعلانا بحزنهم وبكائهم وشقائهم، وهم في

العذاب أو يوشك أن يوقع بهم، وهنا يصرخون بها وهم نادمون على ضلالهم وكفرهم، يقول أحدهم :

﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ .

ذلك لأن خلانهم من شياطين الجن والإنس أضلوهم وفتنوهم في الدنيا، وصدوهم عن الحق بعدما تبيّن، فهم يندمون على اتخاذهم إخوانا فكانوا سبب هلاكهم وشقائهم، لقد أضلوهم عن الذكر بعد إذ جاءهم والذكر هو القرآن ، لقد كانوا يجتهدون في تنفيرهم عنه وفي صدهم عن سبيل الله .

وقد قيل إن الآية نزلت في عقبة بن أبي معيط الذي كان خليلا لأبي بن خلف الجمحي أخي أمية بن خلف ، الذي كان يعذب بلال رضي الله عنه، وذلك أن عقبة بن أبي معيط صنع وليمة ودعا إليها الناس ،ومن جملة من دعاهم رسول الله ـ ﷺ ـ فلبى دعوته ولكنه امتنع من الأكل وقال له : «لا آكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وكان النبي ـ ﷺ ـ يطمع في إيمانه فألح عليه في الأكل، وأقسم رسول الله ـ ﷺ ـ أن لا يأكل من طعامه حتى ينطق بكلمة الشهادة فنطق بها عقبة حرصاً على أن يأكل ضيفه من طعامه مع الحاضرين، وبلغ الخبر أبي بن خلف، وكان صديقا لعقبة فبلغ به الغيظ مبلغاً عظيماً فدعاه وقال له مغضبا : أصبأت يا عقبة ؟ فقال له والله ما فعلت وما قلتها إلا مجاملة، وعز عليَّ أن يخرج الرجل من بيتي ولم يأكل من طعامي فقال له : إني لا أرضى عنك حتى تذهب إلى الرجل فتطأ عنقه وتبصق في وجهه، فذهب عقبة وفعل ذلك ترضية لخليله وروي أن الله تعالى رد بصاقه على وجهه تكريما لنبيه، بئس الخليل كان أُبَيّ لعقبة .

والآية وإن كان لها سبب خاص في نزولها، ولكنها عامة لجميع الأخلاء الذين يفتن بعضهم بعضا ويضلونهم، وبئس مثوى الظالمين، فمن أراد الله به خيراً رزقه خليلاً تقيا يهديه إلى الحق فانتقوا خلانكم من الأتقياء، والمثل الحكيم يقول : «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ، والله تعالى يقول : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عُدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

وفي الآية إرشاد عظيم إلى اختيار الأخلاء الصالحين، والابتعاد عن إخوان السوء من شياطين الإنس، وفيها تحذير من سماع وسوسة شياطين الجن والإنس، وفيها إرشاد أن نستعيذ بالله من شرهم، وقانا الله شرهم جميعا وألهمنا رشدنا وجنبنا سبل الضلال آمين :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَذَا الْقُرءَانَ مَهْجُوراً * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ [الآية: ٣٠-٣١].

يبث رسول الله ـ ﷺ ـ شكواه في هذه الآية إلى الله في تضرع، وفي لهجة اعتذار إلى الله أنه بلّغ واجتهد في التبليغ، ولكن القوم كذبوه وعاندوه، واتخذوا القرآن مهجوراً، ولو شاء لدعا عليهم كما دعا نوح عليه السلام على قومه، ولكنه يبث شكواه إلى الله ويعتذر إليه، ولا يدعو عليهم، وقد رأينا منذ أول السورة أقاويلهم التي هي كلها طعن في الرسول وفي القرآن وكفر بالله ، ورأينا كيف رد الله عليهم وتوعدهم بأصناف الوعيد، وفي هذا الجو يجأر النبي ـ ﷺ ـ إلى ربه بالشكوى ويقول :

﴿ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَذَا الْقُرءَانَ مَهْجُوراً ﴾ [الآية : ٣٠].

وفي قوله : ﴿ هَذَا الْقُرءَانَ ﴾ تعبير عن عظمة القرآن وتنبيه على علو شأنه عند

الله ورسوله وعند المؤمنين، كيف وهو كلام الله وحبله المتين، الذي من اعتصم به نجا، ومن قال به رشد، ومن عمل به هدي إلى صراط مستقيم، وهو هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وقد تقدم لنا في تفسير أول السورة معنى الفرقان، هذا القرآن الذي هجره الناس، وهجرهم على أصناف أقبحها وأعتاها هجر الكفار الذين أنكروه ونبذوه وابتعدوا عنه، فهم ينفرون عن سماعه، ويلغون فيه، ويصدون الناس عنه، وأدناها هجر المؤمنين به لقراءته وتدبر معانيه وكانوا يرون من الهجر أن يمر يوم دون أن تقرأ ما تيسر من القرآن قراءة تعبد وتدبر وخشوع، ومن هجر القرآن عدم العمل بما فيه، وعدم تحكيم شرائعه ، والوقوف عند حدوده ومعالمه، وقد وضع الله في القرآن معالم الهدى وأنار به سبل الدين والدنيا، ما فرط الله في الكتاب من شيء ، فالحلال بيّن والحرام بين. وأصول الديانات والعبادات والمعاملات مؤصلة وقواعد الشرع راسخة عليها يبني الفقهاء ما استجد من مسائل الفروع، ولذلك كان الشرع مسايراً للتطور، وباب الاجتهاد مفتوح لأهله الذين توفرت فيه شروطه، فلا عذر لأحد في هجر أحكام القرآن والالتفات عنه يمينا وشمالاً وقد فتن شباب العصر بقوانين الشرق والغرب، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً، وهذا هجر للقرآن الكريم وابتعاد عن هداه. قال الله تعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ [الآية : ٣١].

هذه الآية جواب للنبيء على شكواه، وفيها تسلية لقلبه وقلوب من معه من المؤمنين

المستضعفين القلائل، يقول الله : وكذلك سنتنا فيمن قبلك من المرسلين جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين، ما جاءهم من نبي ولا رسول إلا قابلوه بالعداء، وذاك لأن الله يبعث أنبياءه ورسله على حين ضلال من الناس، وقد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وابتعدوا عن هدى أنبيائهم السابقين فيكثر الفساد والإجرام فيبعث الله فيهم نبيئاً ليجدد عهدهم بالإيمان، فيستجيب له الشباب والضعفاء، ويطغى المجرمون من الكبراء والرؤساء والعتاة، ويرون في الدعوة الجديدة زوالاً لكبرهم وتسلطهم ، وفيها حرمانا لهم من شهواتهم، وحدا لهم من بسط النفوذ، وجمع المال فيحاربون الدعوة الجديدة ويدافعونها ويكيدون لدعاة الله من أنبيائه ورسله وسائر الدعاة المصلحين من بعدهم، وتلك سنة الله في خلقه يفتن بعضهم ببعض: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٥٣] .

وفي هذه الفتنة ابتلاء وتمحيص للمؤمنين الصادقين، ترتفع به درجاتهم عند الله، وفيها محق للكافرين، وفيها تمييز الصادقين من الكاذبين والمنافقين، والمؤمن كالفضة تزداد جلاء وصفاء بعرضها على النار، وطبيعة الدعوات تقتضي الصبر والمقاومة والثبات حتى يأتي نصر الله ،ونصر الله مكتوب للمؤمنين.

﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ .

يوجه الله الخطاب للنبي تثبيتا لقلبه بهذه الكلمة القوية التي لها أثرها البالغ في قلب النبي ـ ﷺ ـ ومن معه من المؤمنين يقول له : وكفى بربك الذي أرسلك بالقرآن هاديا، ومن يهد الله فهو المهتدي، فاستمسك بهداه إنك على الحق المبين،

وكفى بربك نصيرا ينصرك نصراً عزيزاً، فلا يضيرك قلة الأنصار حولك وكثرة أعدائك، فكفى بالله ناصراً لك ومؤيداً وعاصماً، وما النصر إلا من عند الله، إنه لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه، وفي هذه الآية كفاية لمن قام بأمر الله ولو بقي واحدا فإن الله هاديه وناصره، وخاذل أعداء المجرمين، جاعل كيدهم في تباب، والله يؤيد بنصره من يشاء ، ثم يعود السياق إلى الكلام عن شبه الكفار وردها فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢-٣٤] ، وهذه الآية تتعرض لشبهة هي من أضعف شبه الكفار فترد عليها، وهي شبهة واهية وذلك أنهم قالوا :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الآية : ٣٢].

كما نزلت التوارة على موسى جملة واحدة، والإنجيل على عيسى، ولا معنى لاعتراضهم هذا، والأمر لله ينزل ما يشاء، أنى شاء على من يشاء، ولا دخل لهم في هذا، إنما عليهم أن يسمعوا ويطيعوا وهم يشيرون بهذا الكلام إلى ما سبق في أول السورة، حيث قالوا : إفكا وزورا ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: ٥]، وقد رد الله عليهم وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، إن كان هذا الكلام من إنشائه أو من إملاء الناس عليه فلماذا تعجزون عن الإتيان بمثله وأنتم الفصحاء والبلغاء، أليس عجزكم هذا دليلاً قاطعاً على أن هذا الكلام ليس كلام بشر، بل هو كلام رب العالمين نزله على قلب نبيه محمد - ﷺ - ليكون للعالمين نذيرا. ثم بيّن الله تبارك وتعالى حكمة تنزيل كتابه منجما:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الآية: ٣٢].

يقول الله تبارك وتعالى: كذلك فرقنا نزوله عليك على مكث لنثبت به فؤادك، ففي نزوله منجما تثبيت لقلب النبي - ﷺ - ومن معه من المؤمنين، ينزل الله منه بحسب الحكمة ما تدعو إليه الحاجة، وتنزل أحكامه بالتدريج حتى يخف على النفوس استقبالها وتقبلها، وحفظ ما نزل من الآيات، وأناجيل هذه الأمة صدورها، وأسباب النزول كثيرة ومتنوعة لأن القرآن يشمل جميع نواحي الحياة الفردية والاجتماعية، إنه كتاب شامل أنزله الله على الناس لإصلاح دنياهم وأخراهم ولتنظيم علاقاتهم فيما بينهم وبين ربهم، وفيما بينهم وبين بعضهم البعض، قال الله:

﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾.

الرتل هو الفسحة بين الأسنان، وترتيل القرآن هنا أي ترتيل إنزاله مفرقا في مدة ثلاث وعشرين سنة ما بين مبعث النبي - ﷺ - إلى وفاته، رتله الله ترتيلا يُنزل منه ما يريد، في الوقت الذي يريد حسبما تدعو إليه الحكمة، وفي ذلك تثبيت لفؤاد النبي - ﷺ - وأفئدة المؤمنين معه، ثم قال الله تعالى:

﴿وَلاَ يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الآية : ٣٣].

يقول الله لنبيه عليه السلام كلما ضرب هؤلاء الكفار مثلاً يعارضون به الحق، جئنا بالحق الذي يزيل باطلهم : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء / ٨١]، إنه لا بقاء لباطل هؤلاء الكافرين مع مجئ الحق من عند الله، وقد يفسرون الأشياء تفسيراً خاطئا في أمثال باطلة يضلون بها البسطاء من الناس، فرد الله عليهم حين قال : ﴿وَلاَ يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ ذلك لأن تفسير الحقائق والأمثال من الله العليم الخبير أحسن من تفسيرهم ،وقد طمست قلوبهم الأهواء واستحوذ عليهم الشيطان فأضلهم وأعمى أبصارهم .

وتفسير الله يزيل ظلمات شبهاتهم ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وكثيراً ما نسفت آيات الله البينات شبه المبطلين، وكثيراً ما دفعت أراجيف المرجفين، وكثيراً ما فضحت نيات المنافقين السيئة : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِم سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا في قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة : ٦٤] لقد كانت تنزل عليهم كالصواعق وكانوا يحذرونها، كل هذا والقرآن يتوالى نزول آياته البينات بأحكام الله، وتعالج قضايا الناس، بما فيه التفسير الحسن لكل قضية ،والدواء الشافي لكل قلب مؤمن من كل داء، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، فشبهة الكفار واهية إذن في هذا الاعتراض، وقولهم باطل، وسيكون جزاؤهم عندالله فظيعا على كفرهم وإعراضهم، ومحاولتهم إطفاء نور الله بأفواهم. قال الله تعالى :

﴿الذين يُحشرون على وجوهِهم إلى جهنَّم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً﴾ [الآية : ٣٤].

الآية تحمل وعيداً شديداً لهؤلاء الكفار الذين لا يزدادون إلا لجاجة وعتواً كلما جاءتهم من ربهم الآيات البينات بالحق، إن الله يمقت المتكبرين، وسوف يحشرهم يوم القيامة إلى جهنم على وجوههم التي كانت تأنف أن تسجد لله في الدنيا، وتستنكف أن تركع إجلالاً لعظمته وخضوعاً لهيبته، إنهم يحشرون على تلك الوجوه ويسحبون عليها في النار، يقال لأحدهم : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان : ٤٩] ، يومئذ يعلمون أنهم شر مكانا وأضل سبيلاً ممن كانوا يسخرون من عقولهم ويستضعفونهم، وفي هذا تسلية لقلوب المؤمنين الذين هم أذلة ضعفاء قلة غرباء، وذلك في بداية أمر الإسلام، وربما يضجر أحدهم ويقول متى نصر الله ؟ ألسنا على حق ألسنا نحن حزب الله ! فما لهؤلاء الكفار يتعالون بقوتهم ونفوذهم علينا أليسوا أعداء الله ! فسلاهم الله وربط على قلوبهم بهذه الآية التي تبين عاقبة هؤلاء العتاة المستكبرين وتقرر في وضوح :

﴿أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً﴾ .

وفي الآية موعظة بليغة لمن أراد الله به خيراً ، ثم يسلي الله نبيه والمؤمنين معه بأخبار بعض الرسل وكيف نصرهم الله وأهلك المكذبين لهم من أممهم ، وكيف كانت العاقبة للمتقين ، والهلاك والدمار للكافرين الظالمين، ولله عاقبة الأمور، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ

وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً
وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ
ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ
وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ
أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا
عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ
يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ
إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ
إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٥-٤٤] .

للأسلوب القرآني أحوال في عرض أخبار الأمم مع رسلهم، فهو في بعضها يطنب، وفي بعضها يوجز، ولكل وقعه في النفوس، ومناسبته في العرض والتصوير، وفي كل ذلك إعجاز وإحكام وهنا يأتي بلمحات وصور عابرة لها تأثيرها في النفوس، ويبتدئ الكلام بنبأ موسى وهارون وإرسالهما إلى فرعون وقومه، وما أشبه معاناتهما فيهم بمعاناة النبي - ﷺ - في قومه ومثل ذلك إيذاؤهم له وللمؤمنين المستضعفين معه، ولذلك يطول ويكثر قصص موسى وهارون في قوم فرعون ثم في بني إسرائيل أكثر من غيرهما من الأنبياء والرسل. يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدَ اتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ اَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمُ تَدْمِيراً ﴾ [الآية : ٣٥-٣٦].

ولقد آتينا موسى الكتب، والكتاب هو التوارة ، أرسل الله موسى وأيده بالكتاب وجعل معه أخاه هارون نبياً ووزيراً يشد عضده ويقويه وينصره، والوزير من الوَزَر، وهو الملجأ الذي يلجأ إليه الرجل في الملمات، يستشيره ويشد أزره ،كذلك جعل الله لموسى أخاه هارون وذلك استجابة لطلبه فأرسله الله بمعيته وقال الله لهما ﴿ اَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾[طه : ٤٣] وهنا يُذكر قوم فرعون معه لأنهم وافقوه على التكذيب، وحرضوه على الكيد بموسى وهارون وبني إسرائيل، فكان موقفهم من موسى وهارون كموقف قريش من رسول الله -ﷺ- وكانت عاقبة المكذبين التدمير، قال الله :

﴿ فَدَمَّرْنَاهُمُ تَدْمِيراً ﴾ .

والتدمير هو الهلاك الذي يبيد المهلكين إبادة ولا يبقي منهم، وكذلك فعل الله بفرعون وقومه ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾[نوح : ٢٥] كما فعل الله بقوم نوح لما كذبوا رسل الله. قال الله تعالى:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الآية : ٣٧].

لما كذبوا نوحا فقد كذبوا بجميع رسل الله وكذلك من كذب برسول واحد فقد كذب الرسل لأنه كفر برسالات الله، ومن رد آية من كتاب الله فقد رد كتب الله كلها، ومن هنا أخذ العلماء هذا الحكم لأنه صريح كلام الله في غير موضع من القرآن، وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو نصر :

ومن رد حرفا أو رسولا فإنه　　　برد جميع المرسلين كفرعون

وجاء في القرآن : ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء : ١٢٣] ، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء : ١٤١]، ومثل هذا كثير، ولذلك أجمع المسلمون أن من كفر برسول واحد فقد كفر بجميع رسل الله، وجعل الله عقوبة قوم نوح الغرق كعقوبة فرعون وقومه، ولذلك قرنهما في الذكر مع الفارق الزمني الكبير بينهم، وإنما استحقوا عقاب الله بطغيانهم وتكذيبهم للرسل، قال الله :

﴿لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

فقد استحقوا عقاب الله الذي هو إبادتهم بالغرق جزاء على تكذيبهم رسل الله، وجعل الله هلاكهم آية بينة لمن بعدهم، وقد ظلت حادثة الطوفان خبرا يحكيه الأولون للآخرين، وجاء ذكرها في الكتب المقدسة، وسجلتها التواريخ عبر القرون، وكذلك أراد الله أن تبقى آية بينة لقوم يعلمون، ولله أمثالها ثم قال الله تعالى:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

لقد أعد الله للظالمين عذابا أليما، هكذا يعلق العذاب الأليم بظلمهم، ويعم عذاب

الدنيا والآخرة، وتعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق ، فلقد كانت علة استحقاقهم عذاب الله الأليم هو ظلمهم بالشرك والتكذيب، وايذاء رسل الله ومن معهم من المؤمنين، وبظلمهم أنفسهم بالمعاصي والموبقات، وصف الله العذاب بالأليم، وذلك لما أعد الله لهم في نار جهنم من أنواع الألم الذي لا يطاق، نسأل الله السلامة والعافية، وفي هذا الخبر تهديد للمكذبين من قوم النبي - ﷺ- وتخويف للذين يؤذون الله ورسوله، وإنذار لهم بقرب هلاكهم إن هم استمروا في كفرهم وتكذيبهم وإيذائهم للمؤمنين، إنهم لن يفلتوا من عذاب الله، ولن يعجزوه، وبئس مثوى الظالمين ثم قال الله تعالى :

﴿ وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ [الآية : ٣٨-٣٩].

وأذكر عادا قوم هود ،وثمودا قوم صالح ، وأصحب الرس، قيل هم من قوم شعيب، والرس هي البئر، وقيل غيرهم وقرونا ، أي وأمما بين ذلك كثيرة لم نقصصهم عليكم جاءتهم رسلهم بالبينات، وضرب الله لهم الأمثال يبيّن لهم بها منائر الهدى وشرائع الدين، وفيها أخبار الأولين، وفيها موازين القسط، وأعلام الهدى، يعظهم بها ويحذرهم سوء العواقب، ولكن كثيراً منهم كانوا فاسقين فلم ينتفعوا بأمثال الله، فأهلكهم الله بأنواع من العذاب قال الله :

﴿ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ .

أي وكلا من هؤلاء الظالمين المكذبين أنزلنا عليه العذاب الذي استأصل شأفتهم

وأبادهم فلم يُبق منهم أحداً ،وما بقيت إلا آثارهم للمعتبرين ثم قال :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ [الآية : ٤٠].

هنا يتغير الأسلوب تغيراً ملحوظاً في تعبير مؤثر ذي إيقاع خاص، والقرية التي أمطرت مطر السوء، والتي هي بسبيل مقيم يمرون عليها هي قرى سدوم قوم لوط الذين أمطر الله عليهم حجارة من سجيل بعد أن كذبوا رسل الله ، وأتوا الفواحش التي لم يأتها أحداً من العالمين قبلهم، ولم يستمعوا لوعظ نبيهم لوط عليه السلام فأهلك الله قراهم جعل عاليها سافلها وأمطر الله عليهم مطر العذاب، وجعلهم عبرة لمن بعدهم، ولقد أتت قريش وعرب الجزيرة على سدوم وسمعوا أخبارها، قال الله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أي كلما مروا بها أفلا يعتبرون برؤية هذه القرية وبأخبارهم التي تروى لهم ! ثم قال تعالى :

﴿ بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾.

بلى لقد رأوها وعرفوا أخبارها ولكنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، لا يرجون أي لا يتوقعون ولا يخافون نشوراً، وقد جاء الرجاء في القرآن بمعنى الخوف، إنهم ينكرون البعث ويستبعدونه، ويسخرون ممن يُخوفهم به، ويقولون ﴿ أَذَا مِتْنَا وَكُنَا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٨٢-٨٣].

تلك كانت علة إعراضهم عن النذر وتعاميهم عن نظر الاعتبار في آثار الأولين، وعواقب الظالمين ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس: ١٠١].

هكذا يبين الله تعالى في هذا الإضراب قيمة الإيمان بالبعث والجزاء، وعدم الإيمان على سلوك الإنسان طرداً وعكسا .

وقد سبق مثل هذا الإضراب في أثناء السورة قبل هذا، وبيّنا هنالك خطر الإيمان بالآخرة وعدمه على سلوك الأفراد والأمم، وأن سر الاستقامة لمن استقام هو الخوف من عذاب الآخرة، وأن سبب الإعراض والكفر هو خلو القلب من الإيمان بيوم الجزاء، وكذلك الأمر بالنسبة لمن يعتقد بالخلود أو عدمه، فالذي يعتقد الخلود لأهل الكبائر في جهنم ينفعه هذا الاعتقاد، ويعدّل من سلوكه، فلا يزال عليه من نفسه رقيب وحافظ، يزعه عن الوقوع في المعاصي، ويحمله على فعل الطاعات، والإتيان بالفرائض والواجبات ،والمسارعة إلى التوبة من الذنوب، والتكفير عن السيئات فلنتمسك بهذا الاعتقاد الذي نراه حقا فإنه أعظم وازع لنفوسنا، وأبلغ واعظ لقلوبنا، وكم من أناس شردت بهم نفوسهم طويلا عن سبيل المؤمنين ثم تابوا وأنابوا وحسنت حالهم وردوا المظالم وقضوا الفوائت ، وراجعوا الاستقامة قبل الفوات، وما ذلك إلا لتأثير الإيمان بالآخرة في قلوبهم.

وخاصة الإيمان بالخلود في العذاب لأهل الكبائر المصرين عليها، وللخوف سلطان على النفوس أعظم من سلطان الرجاء ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الأنعام : ٥١] .

ثم يستمر الكلام في وصف هؤلاء المكذبين الذين لا يرجون النشور فيقول الله تعالى فيهم :

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً * إن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنَ الِهَتِنَا لَوْلاَ أن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الآية : ٤١-٤٢].

وإذا رءاك هؤلاء الكفار إن يتخذونك إلا هزؤا، أي لا يقابلونك إلا بالاستهزاء والسخرية، ولهم في ذلك أساليب في سخريتهم وهمزهم ولمزهم، وربما يتجاذبونه وقد وقع ذلك مرة ففرقهم عنه أبو بكر رضي الله عنه ويقولون :

﴿أَهَذَا الذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ .

وقولهم هذا تفسيره: ألم يجد الله من يرسله إلا هذا ؟! . وهذا منهم احتقارا لشخص النبي ـ ﷺ ـ لصغر سنه وفقره، ولأنه ليس من سادات القوم وأغنيائهم، وكأن رحمة الله تكون على رغبتهم واختيارهم، وقد رد الله عليهم بقوله : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِه﴾[الأنعام: ١٢٤]، كما رد عليهم في موضع آخر بقوله تعالى : ﴿أَهُم يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾[الزخرف : ٣٢]، ولكن أهواءهم حجبتهم عن إدراك الحق، وعن قبوله وكذلك يسخر أهل الباطل بأهل الحق في كل زمان، ويزعمون أنهم على حق وأن المحقين المؤمنين سفهاء وهم السفهاء الضالون ويبلغ بهم السفه وقد لزمتهم الحجة أن يقولوا :

﴿ إن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنَ الِهَتِنَا لَوْلاَ أن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ .

وهذا الكلام منهم اعتراف بقصور حجتهم فلم يملكوا من مقاومة الحق إلا الإصرار والعناد وهو ما عبروا عنه بالصبر على آلهتهم وقولهم :

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ .

تعبير منهم عن زعمهم أنهم على صواب وأن رسول الله على ضلال، يدعو الناس إلى ضلاله وكذلك قال فرعون في نبي الله موسى عليه السلام : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦]، وكذلك يرى المفسدون المصلحين ضالين مفسدين، واليوم يقول الملاحدة عن المؤمنين إنهم جامدون رجعيون متقوقعون في ألفاظ كثيرة يصمونهم بها، في لهجات تدل على السخرية والاستهزاء، فجاء جواب الله لهؤلاء جميعا بما فيه وعيد لهم وتسلية لقلوب المؤمنين المستضعفين، وتقوية لهم على التمسك بدينهم الحق، قال الله تعالى :

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ .

أي تهديد تحمله هذه الآية التي يتوعد الله بها هؤلاء الكفرة الجاحدين، قال الله : وسوف يعلم هؤلاء المستهزئون الساخرون حين يرون العذاب، إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة وقد أحاط بهم ولا منجى لهم منه حينئذ، يعلمون من أضل سبيلاً ، سوف يعلمون أي الفريقين أضل سبيلاً، فأولى لهم أن يراجعوا أنفسهم اليوم، ويقبلوا الحق قبل أن يفلت الأمر من أيديهم فيندموا ولات مندم، ولات حين مناص، ففي الآية وعيد شديد وفيها موعظة بليغة لمن أراد الله به خيراً فيؤمن بالله ورسوله ما دام باب التوبة مفتوحاً والإسلام جب لما قبله، ولا شك أن لكلام الله تأثيراً على النفوس ولاينكره إلا المكذبون الضالون الذين اشتروا الدنيا بالآخرة، والذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم، وما ذاك إلا لاستيلاء الأهواء على نفوسهم . قال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الآيات : ٤٣-٤٤] .

«أرأيت» كلمة تعجب وإلفات نظر إلى عمل غريب، كذلك يلفُت الله أنظارنا إلى هؤلاء إلفات تعجب، وذلك أنهم عبدوا أهواءهم واتخذوها آلهة يصدرون عن أوامرها، وتلك دركة من التردي إلى أسفل سافلين، يصل إليها الإنسان الذي غلب هواه على عقله، فأصبحت شهواته تتحكم فيه، وأصبح معبوده هواه وهو تبع له، يقول الله تعالى مخاطباً نبيه في شأن هؤلاء العابدين للهوى المتخذين له إلها من دون الله يقول :

﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ .

إنك مهما حاولت هدايتهم لن تستطيع ذلك ما دام الهوى حائلاً بينك وبينهم، وأي وكالة تكون على عُبَّاد الهوى .

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ .

أي هل تحسب أو تظن أكثر هؤلاء يسمعون الكلام أو يعقلونه ، إنهم لا يسمعون ولا يعقلون، قد نبذوا عقولهم وراء أهوائهم فلم يعودوا إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً من الأنعام، وتلك طبيعة الإنسان حين يتبع هواه ينزل إلى دركة أسفل من البهائم والبهائم تكون حينئذ أهدى سبيلاً منه ذلك لأن البهائم وإن ركبت فيها غرائز الشهوات ولكنها ملهمة في استعمالها بحسب ما تقتضيه الحكمة، ولا تتجاوز حدود الحكمة، لكن هؤلاء يتجاوزون كل حد ولا تعود عقولهم تنفع، فهم لا يسمعون ولا يعقلون، وذلك هو الضلال البعيد ، ومن عدالة الله تبارك وتعالى أن قال : ﴿ أكثرهم ﴾

ولم يقل كلهم، لأن الله علم أن فيهم من سيهتدي إلى الحق، ويرجع إلى سبيل الله
ولله عاقبة الأمور وهو وحده عليم بذات الصدور ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ
دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟
فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى
كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا
كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا
وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

يلفتنا ربنا في هذه الآيات المباركة من كتابه الكريم إلى آياته المجلوة في الكون أرضه وسمائه، نوره وظلماته ،لنتدبرها ونزداد إيمانا ويقينا، وهي الآيات العظيمة الدالة على عظمة خالقها، ولو كان الكفار يبصرون بعقولهم لأرشدتهم إلى الإيمان بخالق هذا الكون الواسع البديع، وياليتهم إذ لم يبصروا الآيات ولم يهتدوا بها استمعوا إلى النذر، واهتدوا بآيات الله المنزلة في الكتب ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، غلبت أهواؤهم على عقولهم فأعمتها وأصمتها، وكذلك يفعل الهوى بالعقل، في هذه الآيات يلفتنا الله تبارك وتعالى إلفات تذكر واعتبار إلى بعض آياته في الكون فيقول :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾[الآية : ٤٥-٤٦] .

ألم تروا بعين التذكر والاعتبار كيف مد الله الظل، وكيف جعل الله الشمس عليه دليلا، ولو شاء الله لجعله ساكنا، وليس من مصلحتنا ولا من مصلحة الحيوان والنبات أن يبقى ساكنا بل من الرفق بنا معشر الإنسان والحيوان والنبات أن يتحول الظل والحرور، والليل والنهار والحر والقر، وفي تحول هذه الأشياء صلاح الحياة وبقاؤها على هذا الكوكب الأرضي الذي جعله الله مأوى لنا وفيه معايشنا ومرافقنا، وقد تكلم المفسرون في هذا الظل الذي مده الله فقالوا ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس حين يشرق الكون بنور الله ويكون الظل ممدودا والجو رائقا جميلا حتى إذا أشرقت الشمس رسمت ظلال الأشياء وتلك هي دلالة الشمس على الظل، وفي ذلك تأملات للناظرين وآيات للمتوسمين ودلالات واضحة على قدرة خالق الظلال وقابضها وباسطها وعلى

رحمته بخلقه في قبضها ومدها ولو شاء لجعلها ساكنة وهو على كل شيء قدير فلنتأمل هذه الآية ولنشكر هذه النعمة العظمى ولنعبد الله ربنا ورب السموات والأرض رب العالمين، قال تعالى:

﴿ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾.

ثم قبضنا الظل إلينا قبضا يسيرا وأي روعة في إضافة القبض إليه تبارك ربنا وتعالى وكل شيء منه وإليه ومن رحمة الله ولطفه بعباده أن يقبضه قبضا يسيرا، وفي هذا رفق بمخلوقاته إذ لو قبضه مرة واحدة لعشيت أبصار خلقه بنور الشمس الوهاج، واحترقوا بحر الشمس المفاجئ.

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَيلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَار نُشُوراً﴾ [الآية:٤٧].

ثلاث آيات يلفتنا الله إليها في هذه الآية القرآنية لنعتبر ونشكر نعم الله علينا: «آية الليل وآية النهار وآية النوم» الله هو الذي متعنا بهذه النعم العظمى التى فيها لنا متاع ولنا فيها معتبر وذكرى وموعظة يقول تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَيلَ لِبَاساً﴾.

الله ربكم هو الذي جعل لكم الليل لباسا يستركم بظلامه، فتقضون حاجات كثيرة تتطلب التستر والكتمان، وفي الليل تخرج النساء المتسترات العفيفات المحتشمات لقضاء حوائجهن، وكانت نساء الصحابة لا تخرج للبراز وقضاء الحاجات إلا في الليل، وذلك لقلة أكلهن، وكانوا لا يأكلون لحد الشبع ولا يسرفون في الأكل، وفي الليل تخرج الشواب والعوانس لزيارات أقاربهن، وعيادة مرضاهن، وسائر أغراضهن وكن أيضا يخرجن للمساجد لصلاة الصبح متلفعات بمروطهن ما يُعرفن من الغلس،

فهذه نعمة الليل في ستره للعورات فكأنه لباس ساتر ويقول تعالى :

﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتاً ﴾ .

أي جعل لكم النوم سكونا وراحة، وفي النوم منفعة عظيمة لجسم الإنسان ومخه وأعصابه، فالخلايا التي يستهلكها الجد والتعب في النهار تتجدد في الليل أثناء النوم، وقد تجدد في نوم القيلولة ، فالإنسان مدة اضطرابه في النهار في طلب المعاش يفقد خلايا، وعند المساء يجد نفسه متعبا فيذهب ينام، ومثله مثل الذي أخل سيارة في «الكراج» للتشحيم والإصلاح والتجديد، وعند الصباح يستلم سيارته مشحمة سليمة ويدفع حساب الفاتورة لصاحب الكراج ونحن لا يطالبنا الله بفاتورة حساب ، كل الذي لله علينا أن نشكر نعمة الله، ونركع له ركعتين للصبح قبلهما ركعتان للفجر، أو قبلهما ركعات في السحر فيها شكر للمنعم، وفيها أجر عظيم والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فما أجدر من أصبح معافى في بدنه أن يجدد لله شكرا، فكم من أناس يصبحون عميا أو بكما أو صماً أو مفلوجين، أو ينامون أحياء ويصبحون أمواتا، فلما نغفل عن شكر نعمة السلامة حين نصبح سالمين معافين في أبداننا وعقولنا وأسماعنا وأبصارنا، وما بكم من نعمة فمن الله وكان رسول الله - ﷺ - يقول إذا أصبح : «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر» ومثل ذلك يقول في المساء : « اللهم ما أمسى بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر» .ويقول الله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ .

جعل الله لكم النهار بعثا ونشوراً حين يرسل أرواحكم في أجسادكم بعد الموت

الأصغر الذي هو النوم، يبعثكم الله في النهار كل يوم بعد النوم لتضطربوا فيه في طلب معايشكم وأسفاركم وقضاء مآربكم، ولتنتشروا في الأرض تبتغون من فضل الله، فكم لله من ألطاف ونعم في تعاقب الليل والنهار، فالليل يجمع، والنهار يفرق، وفي ذلك عبرة لأولى الألباب، والويل لمن ينام ويقوم ويتقلب في الليل والنهار ولا يعتبر، ولا يتذكر نعم الله، ولا يؤدي شكرها، أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً :

﴿ وَهُوَ الذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾[الآية: ٤٨] .

آية أخرى من آيات الله العظيمة في كونه البديع يشاهدها جميع الناس، بدوهم وحضرهم يشاهدونها ليلاً ونهاراً، وهي إرسال الرياح بالسحب المتراكمة، ونزول الأمطار بالمياه العذبة الطاهرة المطهرة ، يقول الله تعالى :

﴿ وَهُوَ الذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ ﴾ .

الله هو الذي يرسل الرياح اللواقح التي تثير السحب وتجمعها وتسوقها بإذن الله، وبعض الرياح مبشرات بإقبال الحيا، وفي قراءة من القراءات السبعية : ﴿ وَهُوَ الذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ ﴾، ذلك لأنها تبعث البشرى في القلوب المتوسمة، وسمى الله المطر رحمة فقال :

﴿ بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ ﴾ .

أي قبل نزول المطر وإقبال السحب، والمطر هو رحمة الله التي تعم جميع مخلوقاته، الناس والدواب والأنعام والطيور فهم جميعا يستبشرون بنزول الغيث ، قال تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ .

وهنا أسند الفعل إلى نفسه ، وهو أسلوب الإلتفات الذي له تأثيره في نفوس المخاطبين ، فالله هو الذي أنزل من السماء ماء يطهر الأرض والجو والشجر والعباد ،وهو أصل الحياة .

﴿ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾[الآية : ٤٩] .

يقول الله تعالى : لنحيي بالمطر النازل بلدة ميتا أي أرضا جرداء لا نبات فيها وهي الأرض الميتة فإذا نزل عليها المطر اهتزت وحييت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وفي ذلك تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وهو مثل للبعث بعد الموت ، والله يقول : ﴿ إِنَّ الذي أحْياهَا لَمُحْيِي المَوْتَى ﴾[فصلت : ٣٩] ، ثم قال :

﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ .

ونُسقيه بضم حرف المضارعة ، أي ونجعله سقيا للأنعام ، وهنا بدأ بذكر الأنعام لأن الناس يهتمون بأنعامهم أكثر من اهتمامهم بأنفسهم ، لأن الناس لا يهلكون بقلة المطر فالقليل من الماء يكفيهم ، ولكن الأنعام هي التي تهلك بفقد الماء وجفاف الأرض ، والأنعام هي معتمد المعايش عند الناس فإذا نزل المطر فرح الناس لأنعامهم .

قال تعالى : ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ رحمة الله تسقي خلق الله من الأنعام والناس ووصف الناس بالكثرة وغيث الله العميم رحمة وسقيا لأعداد كثيرة من الناس والأنعام ، لا يعلم كثرتها إلا الله تبارك وتعالى ، فهو وحده يحصيها ويسوق لها أرزاقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ، وفي هذا الوصف

إلفات الأنظار للتأمل والاعتبار، والتفكر في هذا يزيد المؤمن إيماناً ويبعث على شكر نعم الله السابغة، وفي نزول المطر سقيا للناس والأنعام، وفيه عمارة لخزائن الأرض وإمداد لينابيعها الجارية ،ولولا نزول المطر لجفت العيون والآبار، فالكل محتاج لنزول المطر حتى الذين يسقون بالعيون ويستقون منها لذا فنفع المطر عام لا يستغني عنه فريق من الناس، فمن زعم ذلك فهو جاهل، وكثيراً ما نقصت مياه العيون فالتجأ الناس إلى طلب الغيث وتنادوا بصلاة الاستسقاء فيتضرعون إلى ربهم فيسقيهم وينزل بقدر ما يشاء. ثم قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ [الآية: ٥٠].

يقول بعض المفسرين إن الضمير في هذه الكلمة ﴿صَرَّفْنَاهُ﴾ يعود إلى نزول المطر، وتصريف المطر إنزاله بمقادير مختلفة ما بين بلد وبلد، وبين زمان وآخر، ففي بعض البلاد تمر السنة والسنتان ولا يمطرون إلا شيئًا ضئيلاً ،وبعض البلاد تتهاطل فيها الأمطار هطول متواصلاً لاسيما في بعض الفصول التى تنزل فيها المقادير الكثيرة من الأمطار الموسمية ،مثل أواسط افريقيا، ومنابع الأنهار فيها، وبعض البلاد تنزل فيها الثلوج المتراكمة في الشتاء وفي غير الشتاء، إن للناس لمعتبرا في تصريف نزول المياه بينهم، وكذلك يفعل الله، ليذكروا وليعتبروا ويشكروا نعمة الله ولكن أكثر الناس أبوا إلا كفوراً، فهم ينسون منزل الغيث ويقولون : مطرنا بنوء كذا، ومطرنا لإقبال موسم المطر ولهبوب الرياح الفلانية، ويردون ذلك إلى أسباب وينسون مسبب الأسباب، ومنزل الغيث بسبب، ولغير سبب، وهو على كل شيء قدير، هذا تأويل بعض المفسرين في هذا التصريف المذكور في هذه الآية، وقال غيرهم وهم جمهور المفسرين بل الضمير هنا يرجع إلى تصريف القرآن المنزل :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ .

أي صرفنا تنزيل القرآن بينهم، وتصريفه تنويع الأساليب ما بين مطنب وموجز، ومجمل ومفصل، وما بين خبر وإنشاء وذكر وحذف وما بين وعد ووعيد وإنذار، وتبشير وقصص وأمثال، ليذكروا بكل ذلك، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً وإعراضاً، ويؤيد هذا القول مرجع الضمير في الآية التالية بعد هذه الآية وهي قوله تعالى :

﴿ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ .

أي جاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً، فمرجع الضمير في الآيتين واحد هكذا يستقيم فهم المعنى ولتصريف القرآن تأثيراً كبيراً على النفوس المؤمنة، قال تعالى في سورة الإسراء :﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُوراً ﴾[الإسراء/ ٨٩] ، وقال في آية أخرى من سورة الكهف : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف ؛ ٥٤] .

وكثيراً ما أثرت آية في نفس فآمنت، وأثرت آية أخرى على نفس أخرى، وذلك كتأثير بعض الأدوية في بعض الأجسام دون بعض، لاختلاف طبائع الأمزجة، وكذلك تختلف النفوس والعقول، وعلم ذلك عند منزل القول ومصرف القرآن ،ولا يأبى الهداية إلا مريض القلب شقيه لرين الذنوب، وكبر الصدور وعمى البصائر ونعوذ بالله العظيم من سوابق الشقاء . ثم قال تعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً * فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [الآية : ٥١-٥٢] .

في الآية تسلية وخطاب للنبي - ﷺ - وإرشاد له في كيفية معاملة هؤلاء الكفار

يقول الله تعالى :

﴿ولَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ .

ذلك لأن الله يعلم أن قلب النبي - ﷺ - ضجر وقلق بكفرهم وإعراضهم ولجاجهم، فقال له : لو شئنا لأرسلنا في كل قرية رسولاً ينذرهم فيخفف عنك الحمل، ولكن الله يريد أن يشرفك بهذه الرسالة الخاتمة للرسالات، وتكون أنت وحدك القائم بتبليغها والحامل لأعبائها، والله مؤيدك ومعينك وناصرك ، ذلك لأن الله يريد أن يختم بهذه الرسالة جميع الرسالات التى سبقتها، وهي المكملة لها والمهيمنة عليها، ويريد لها أن تكون رسالة واحدة، بكتاب واحد لأمة واحدة، لا أمة بعدها حتى تقوم الساعة، قال الله تعالى لنبيه :

﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ .

فلا تطع الكفرين في حلولهم التى يعرضونها عليك ، ذلك لانهم يحاولون النبي - ﷺ - على حلول ترضيهم وذلك كأن يترك سب آلهتهم، ويعرضون عليه أن يؤمنوا بالله على شرط أن يذكر آلهتهم بخير، ويمسح عليها بيده تبركا ولو مرة في الأسبوع، أو في الشهر، فان هو فعل ذلك رضوا عنه، واستمعوا له، واعترفوا برسالته، فيحذره الله من ذلك وينهاه أن يطيعهم في مقترحاتهم، فليس في الدين أنصاف حلول، ليس في الدين إلا حل واحد هو أن يؤمنوا بالله وحده ويكفروا بالطواغيت ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤتُواْ الزَّكَواةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : ٥] .

وأمره الله تبارك وتعالى أن يخاطبهم ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ

أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ولا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] ، هذا هو القول الفصل بيننا وبين الكافرين فلا يطاوعون إلى مساوماتهم، وليس في الدين مساومة تكون هدما لأصل الدين ونقضا لمبدأ التوحيد، وكلمة التوحيد التي يقوم عليها الدين هي: (لاَ إِلَه إلاَّ اللَّهُ) فلا تطع الكافرين ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ، ولا يحملنك حرصك على إيمانهم أبدا على طاعتهم ﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] وقال الله تعالى له :

﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾.

أي جاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً أي دافعهم به وأردد شبههم ومحاولاتهم بالقرآن، وفي القرآن السلاح الكافي لمجاهدة خصوم الإسلام، فالأمر بالجهاد للنبي - ﷺ - ولنا جميعا في كل عصر ومصر ما دامت الدنيا وما دام القرآن، والله يعلم أن القرآن هو الذي يقمع أباطيل الكفرة والملاحدة والزنادقة، ويرد عليهم ردا محكما فلنتمسك بكتاب الله، ولنجاهد به أعداء الله جهاداً كبيراً ولينصرن الله من ينصره، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً .

فالآية محكمة والجهاد مستمر إلى قيام الساعة . وفي الآية تقوية لقلوب المؤمنين، وتحصين لها مما يوجه إليها من شبه أعداء القرآن مما يكتبون ويخطبون وينشرون، وهم يحاولون بذلك زلزلة العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين، فنهانا الله عن طاعتهم وأمرنا بمقاومتهم ومدافتهم بالقرآن، وهو الجهاد الكبير المتصل .

ثم يعود الأسلوب القرآني في ذكر آيات الله الكونية، وهي التي يتأملها أولوا

الألباب فيزدادون إيمانا . قال تعالى :

﴿وَهُوَ الذى مَرَجَ البَحْرَيْن هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ اجَاجٌ وَجَعَل بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً * وَهُوَ الذِى خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ [الآية: ٥٣-٥٤] .

الله هو الذي مرج البحرين ، والمرج قيل هو الإرسال ومنه مرج البقر أي أرسله في المرج، مرج البحرين أي أرسلهما وجعل بينهما برزخا من الأرض لا يبغي بعضهما على بعض، وقيل المرج هو الخلط ومنه الهرج والمرج ، أي الاختلاط، مرج البحرين خلطهما وجعل بينهما برزخا من قدرته لا يبغي بعضهما على بعض، وفي كل من الوجهين آية عظيمة من آيات الله ومظهر من مظاهر عظمته وقدرته، هذا البحر عذب فرات، أي في غاية العذوبة ، وهذا ملح أجاج في غاية الملوحة والمرارة، جعل الله بينهما برزخا من الأرض فلا يبغي بعضهما على بعض، وكم هي متانة هذه الأرض وصفاقتها حتى لا يتسرب منها الماء الحلو أو المالح ، وآفة البنيان الماء.

فسبحان الله الذي أتقن كل شيء صنعا، وهناك بحار حلوة تجري في بحار مالحة لها تيارات ومجار يعلمها علماء البحار، لا يبغي الحلو على المالح، ولا المالح يبغي على الحلو ، بينهما برزخ من قدرة الله الذي جعل بينهما برزخا وحجرا محجوراً، وقد تقدم الكلام قريباً في معنى الحجر المحجور، وهو الحجاب المانع والسد القاطع، وفي تأمل هذه الآية العظيمة معتبرا وذكرى لأولي الألباب، وفي الآية معجزة تدل على أن الكلام من عند الله عالم غيب السموات والأرض، خالق البر والبحر ،وما علم محمد - ﷺ - بطبيعة البحار وتياراتها وما ركب البحر قط فيما نعلم ولا كانت نشأته نشأة بحرية ولا

آباؤه ولا قومه ولا عرفت عند قريش ملاحة، بل كانوا أهل إبل ورحلات برية يجوبون فيها البراري والقفار، إنه كلام الله يوحيه إلى عبده ورسوله فيبلغه إلى الناس ليؤمن به من أراد الله به خيراً، وليذكر أولوا الالباب.

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾.

وهذه آية أخرى من آيات الله العظيمة الدالة على علمه وقدرته، آية خلق الإنسان وأصل تكوينه ﴿ وَفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١]، في أنفسنا لو تأملنا آيات للموقنين، وصدق الشاعر حيث يقول :

وتزعم أنك خلق صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ .

الله الذي خلق من الماء بشراً فجعل منه الذكر والأنثى ، وأي ماء هذا ؟ هل هو الماء الذي خلق الله منه جميع الأشياء ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠]، أو هو الماء الذي يتكون منه الإنسان خاصة وهو النطفة التى يقذفها الرجل في رحم المرأة، والتي تحمل القذفه منها نحوا من ثلاثمائة مليون شعيرة، واحدة منها يتكون منها الإنسان، وهي شعيرات دقيقة، لا ترى إلا بعد رؤيتها بالميكروسكوب التى تكبرها آلاف المرات ، وإذا أراد الله خلق إنسان دخلت واحدة من هذه الشعيرات في بويضة الأنثى فتثقبها فتستقر فيها، وتحمل هذه الشعيرة الضعيفة معها طبائع الأب الخلقية والخلقية، ثم تضاف إليها طبائع الأم وخصائصها ، فسبحان الذي أتقن كل شيء صنعا ، وما تبلغ هذه الشعيرة الضعيفة التى لا ترى بالعين المجردة، فتحمل معها خصائص الأب والجد فيولد الولد وله شبه بأبيه أو أحد أجداده، وكذلك البنت يكون

لها شبه بأمها أو إحدى جداتها، وقد يرث الابن من أخلاق أمه أو جدته، كما ترث البنت من أخلاق أبيها أو جدها، وقد تكون البنت سببا موصلا طباع أبيها أو أمها إلى أولادها، وكذلك الشبه الخَلْقي والعرق دساس كما يقولون، وأي سر في هذه الحيوانات المنوية الضعيفة في تكوُّنها ونشوئها في ذلك القرار المكين، في ظلمات ثلاث ، وفي حملها لخصائص الآباء والأمهات ، كم في ذلك من الحكم والآيات ! .

وكم في هذه الآيات من تأملات وتأملات لا ينقضي العجب منها، تأملات يزداد بها المؤمن إيمانا ويقوى إيمانه بربه وخالقه ،فيبلغ درجة اليقين .

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ .

ما أبلغ هذا التذييل وما أشد وقعه في النفوس، بعد عرض هذه الآيات الكبرى في تكوين الملايين والملايين من الناس منذ نشأة الإنسان الأول حتى تنتهي هذه الحياة الأولى فسبحان الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلما ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]، وبعد عرض هذه الآيات يرجع الحديث الإلهي الى هؤلاء الكفار الذين يشركون بربهم غيره من الأصنام وهم يعلمون أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً فيقول الله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

ما أحسن التعقيب بهذه وما أنسبها لهذا المقام ! . يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ [الآية: ٥٥] .

أي أن أمرهم لعجيب، يبصرون آيات الله العظيمة ويعبدون غيره، وهم يعلمون

أنهم لا ينفعونهم ولا يضرونهم، لا يملكون لهم جلب نفع ولا دفع ضرٍ .

﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ .

وكان الكافر الذي يكفر بربه ويشرك به غيره عدواً لربه، محاداً له مظاهراً لشياطين الانس والجن ، ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : ١٧]، ما أكفرك يا من تشاهد آيات الله في نفسك ثم تذهب تعبد غيره، إن هذا لظلم عظيم، تكفر بالله الذي خلقك وتكون في حزب عدوه الشيطان ظهيرا له على ربك، إنهم بهذا الكفر يستحقون الخلود في النار أبداً وما لهم من دون الله من أولياء ثم لا ينصرون ، وفي الآية كشف وبيان لحقيقة الكافر فهو عدو لربه، ظهير للشياطين يصدر عن أوامرهم ولا يكون سعيه إلا في ضلال .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ .

هذه الآية خطاب من الله تعالى لنبيه يحدد له مهمته التي من أجلها أرسله وهي التبشير والإنذار والتبليغ ليس إلا ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[الغاشية ٢١ -٢٢] ، وفي الآية تسلية للنبي - ﷺ - وربط على قلبه وتطمين له أنه قد بلغ، وليس عليه أن يؤمن الناس كلهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠]، والقصر في الآية إضافي معناه أن الله أرسل نبيه مبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه ثم بعد ذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ لَيْس

عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[البقرة/ ٢٧٢]، وكذلك كانت وظيفة جميع رسل الله يبشرون المستجيبين لهم من أممهم بما أعد الله لهم من النعيم المقيم في جنات النعيم، وينذرون المعرضين المكذبين عذاب الله المقيم، أما الدنيا فما هي إلا دار اختبار وابتلاء وعمل، وإنما يجزى الناس يوم القيامة على أعمالهم بالعدل ويزيد الله المحسنين من فضله .

﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إلاَّ مَن شَاءَ انْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾[الآية :٥٧].

يأمر الله نبيه في هذه الآية أن يخاطب قومه بهذا الخطاب الواضح الذي هو في منتهى الرقة والوداعة وفيه إظهار النصح لهم وحب الخير ليس إلا، فهو لا يطلب منهم أجراً على دعوته هذه ولا سيادة ولا ملكا.

﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ .

لا أسألكم على هذا الأمر من أجر مطلقاً والكلمة تؤذن بالعموم المستعرض فهو لا يسأل قليلاً ولا كثيراً من المكافأة ، إنما أجره على الله، وكذلك جميع الرسل يقولون هذا لأممهم ، يقول نوح شيخ المرسلين لقومه :﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء/ ١٠٩] .

ويقولها هود وصالح ولوط وشعيب ومن بعدهم، ولوكان رسل الله يطلبون الأجر من أقوامهم لاتهموهم في دعواتهم أنهم إنما جاءوا بها طلبا لمال الدنيا ورئاستها وملكها، ولكان ذلك عائقا عن إيمان أقوامهم بهم، ولكن الله تعالى يريد أن يبرئهم من هذه التهمة، ويطهر قلوبهم من حب الدنيا، والميل الى زهراتها، ويملأها بحب الله والدار الآخرة :

﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ أَجْرٍ الأ مَن شَاءَ انْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ .

أي لا أبتغي بهذه الدعوة إلا إرشادكم إلى أقوم سبيل هو السبيل إلى الله.

﴿الأ مَن شَاءَ انْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ .

وفي الآية بيان أنه لا إكراه في الدين ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرِ﴾ [الكهف / ٢٩] وفي هذا التعبير بيان استغناء الرسل عن أممهم، يدرك هذا من تأمل العبارة وتذوقها؛ أن الرسول مهمته التبشير والإنذار، ولا يرجو من وراء ذلك نفعا من العباد، إلا من شاء منهم أن يستقيم وقد تبين الرشد من الغي، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا يسلكه يبتغي فيه وجه الله الكريم ويطلب رضاه بعبادته والاستقامة كما أمره وهو وحده سبيل النجاة: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ .

ثم يأمر الله نبيه أن يتوكل على ربه ويسبح بحمده، فكفى به خبيرا بذنوب عباده، وكفى به مجازيا لهم عليها أو يتوب عليهم إن شاء.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الذِى لاَ يَمُوتُ﴾ [الآية: ٥٨]

أعرض عن الجاهلين وتوكل على الحي الذي لا يموت، وهو وحده الوكيل الحق الذي

عليه يتوكل المتوكلون ، الحي الذي لا يموت ، الغني الذي لا يفتقر ، القوي الذي لا يُغلب ، القاهر فوق عباده ، الذي ملكه دائم لا يزول ، هذا وحده الذي تتوكل على وتثق به وتعتمد عليه ، وكل من سواه إلى موت وزوال ، وكل ملك سوى ملكه الدائم فإلى عزل وإلى ذل ، وما أشد ضلال من يتوكلون على الأموات الذين لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، اجعل كل اعتمادك على الحي الذي لا يموت .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ .

وسبح اسم ربك الأعلى ، ونزهه عن النقائص ، وعما يصفه المبطلون ، وأحمده بحمده الذي يرضاه ويليق بعظمته وجلاله ،وأثن عليه بما أثنى هو على نفسه :

﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ .

كفى بربك بذنوب عباده خبيراً ، يقول الله لنبيه هذا بعد أن شكاهم إلى ربه حين قال له : ﴿يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان / ٣٠] ، فسلاه الله بقوله له ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ إنه لا تخفى عليه خافية من ذنوبهم التى يخفونها في قلوبهم ، والتي تجري على ألسنتهم والتي يجترحونها بأيديهم وأرجلهم ، إنها تكتب عليهم وسيجازيهم عليها ، إنهم عباده ونواصيهم بيده ومصيرهم ، فتوكل على ربك وسبح بحمده واترك مصير العباد إليه ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وفي توكلك عليه عبادة ، وفي تسبيحك بحمده أجر عظيم واعتصام بربك : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] ، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران : ١٠١] ، فكأن الله تعالى يقول له : لا تشكهم إلي ولا تخاطبني فيهم فإن أمرهم إلي وأنا الخبير بذنوبهم فتوكل علي وسبح بحمدي ، فذلك ما ينفعك ، وذلك خير عند ربك ثوابا وخير مرداً .

﴿ الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيراً ﴾ [الآية: ٥٩] .

ربكم الذي خلق السموات السبع والأرضين وما بينهما في ستة أيام، وهذه الأيام ليست كأيامنا لأن أيامنا تقدر بدوران الأرض حول نفسها وإنما هي أيام من أيام الله، وبتقدير الله ولا يعلم أحد غيره مقدارها، ثم استوى على العرش، يدبر الأمر مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع، هذا الذي نتوكل عليه ونسبح بحمده وهو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، هو الله الرحمن وسعت رحمته كل شيء، ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿ وفي الأرضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذريات: ٢٠]، لله آيات بينات وفي السموات وأجرامها وأفلاكها، وسيرها بحساب دقيق وأبعاد ما بينها وأن منها ما يقدر بالآف سنة ضوئية، والضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، وثمانية عشر مليون كيلو متر في الدقيقة، وفي تكوين طبقات الأرض آيات بينات تشهد لخالقها بالعلم والقدرة، والعظمة والرحمة والغنى، وفيما بينهما أي بين السموات والأرض آيات بينات تشهد للخالق بالعلم والقدرة وكمال الإحاطة بكل شيء وسعة رحمته ولطفه وتدبيره ﴿ إنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾[فاطر: ٤١].

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ .

والعرش مخلوق عظيم هو غير السموات والأرض، وهو فوق السموات وهو مصدر

أوامر الله تعالى وأحكامه، واستواؤه عليه بالمعنى الذي يليق بجلاله وعظمته، من غير تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل، وقال أسلافنا معشر الإباضية أن استواءه هو الإستيلاء والقهر وتدبير الأمر كما جاء هذا المعنى في الأثر الذي رواه الربيع بن حبيب رحمه الله في مسنده ﴿ الرَّحْمانُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾[طه : ٥] ، أي استوى أمره وقدرته فوق بريته .

قال جابر بن زيد : سئل ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمانُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فقال : ارتفع ذكره وثناؤه على خلقه، لا على ما قال المنددون أن له أشباها وأندادا تعالى الله عن ذلك - وقال الحسن في قوله :﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾[فصلت : ١١]، أي استوى أمره وقدرته إلى السماء، وقوله :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ .

يعني استوى أمره وقدرته ولطفه فوق خلقه، ولا يوصف الله تعالى بصفات الخلق، ولا يقع عليه الوصف كما يقع على الخلق . اهـ .

هذا ما وجد في كتاب الربيع بن حبيب رحمه الله وهو ما ندين الله به .

﴿ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ .

قال بعض المفسرين ﴿ الرَّحْمنُ ﴾ خبر مبتدؤه الموصول وصلته .

﴿ الذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ .

ولكن الذي أراه ويبدو لي وأختاره وأرجحه لمناسبته وشدة ارتباطه بالآية أن ﴿ الذي ﴾ هو نعت للحي .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الذى لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ .

لا يزال الفكر يتابع هذه الأوصاف والقلب يمتلئ بهذه النعوت، حتى إذا وصل الى هذا الحد تساءل في خشوع وروعة : من هذا الذي يجمع كل هذه الأوصاف العظيمة والأسماء الحسنى جاء الجواب ﴿ الرَّحْمَانُ ﴾ اختار الله هذا الاسم الذي اختص به وتسمى به، فلا يشاركه فيه أحد، والكفار ينكرون هذه الصّيغة ، وسيأتي التعرض لذلك في الآية التالية، والرحمن عظيم الرحمة وواسعها واختار الله هنا ذكر هذا الاسم ليعطّف قلوب عباده ، ويؤنسهم برحمته ويحبب نفسه إليهم، ويذكرهم أنه وإن كان عظيما فهو رحمان في عظمته، ولو لم يذكر هذا الوصف هنا بعد ذكر أوصاف القدرة والاستواء على العرش لتقطعت قلوب العارفين من شدة الهيبة من عظمة جبار السموات والأرض، القاهر فوق عباده فسبحان من سبقت رحمته غضبه، نعوذ برضاك من سخطك، ونعوذ بمعافاتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك يارب يا رحمان يا رحيم .

﴿ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ .

الرحمن الذي يقبل التوبة عن عباده ويرحم الراحمين من خلقه ويكتب رحمته للمحسنين منهم والمتقين.

﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ .

ترى هل السؤال المقصود هنا هو الدعاء والطلب؟ أي فادعه وحده وأقصر الدعاء

عليه، وهو الخبير بحاجات عباده، العليم بما ينفعهم فيقربه لهم، وبما يضرهم فيصرفه عنهم، وقد مكنهم من ذلك قبل يسألوه، لأنه الخبير بما يصلح بحالهم، وهم أجنة في بطون أمهاتهم وبعد ولادتهم وهم ضعفاء، ثم بعد ذلك وهو الذي ركبهم طبقا عن طبق، فإذا سألوه سألوا خبيراً، أو يكون معنى السؤال هو طلب العلم والمعرفة.

﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾.

لا ينبئك مثل خبير أنه الخبير العليم، الذي أخبر عن نفسه بأنه الحي الذي لا يموت، وأنه خالق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه استوى على العرش بالقهر والغلبة، والتدبير المطلق، فهو الفعال لما يريد فاسأل به خبيراً ولا تسأل عنه غيره، وتفكر في خلقه فإن التفكر في خلقه مفتاح معرفته والإيمان به والتصديق بكلماته، وهو الخبير بأحوالنا، العليم بسرنا وعلانيتنا، ومن الدعاء المأثور عن أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام: «اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي» وورد عن أبينا إبراهيم عليه السلام أنه لما رماه قومه بالمنجنيق ليقع في النار عرض له جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة فقال: أما إليك فلا وأما إلى الله فعلمه بحالي يغنيه عن سؤالى. وليس هذا من إبراهيم استغناء عن دعاء ربه، لا بل لقوة إيمانه ويقينه أن الله يعلم سره وعلانيته وأنه فعال لما يريد وهذا يلقي لنا ضوءا على قوله تعالى:

﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾.

ولتكن معرفتنا بربنا عن طريق كلماته، ولتكن ثقتنا بالله أعظم من ثقتنا بأنفسنا، إذ ربما نسأله شيئاً وهو يعلم أن صلاحنا في غيره، فهو العليم البصير بعواقب الأمور

نتوكل عليه، ونفوض أمورنا كلها إليه ونرغب إليه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَامُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ [الآية: ٦٠].

يعود الكلام إلى هؤلاء الكفار الذين لا تزيدهم الدعوة إلى الله إلا طغيانا ونفوراً، فهم إذا دعوا إلى السجود للرحمن الذي غمرهم برحماته، والذي سجد له من في السموات ومن في الأرض، والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب، إذا دعوا إلى السجود لهذا الرحمن العظيم الرحمة قالوا وما الرحمن؟، فهم يتساءلون تساؤل تهكم وسخرية عن هذا الاسم، ويقولون لا نعرف هذا، ويااليتهم قالوا «ومن» التى هي للعقلاء ولكنهم قالوا **﴿ وما الرحمن ﴾** «وما» في عرف العرب تستعمل لغير العقلاء، وقد تستعمل للجهل المطلق بحقيقة العاقل، ولكنهم هنا يريدون السخرية والتهكم، بدليل ما بعدها وهو قولهم :

﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَامُرُنَا ﴾ .

أي أنسجد لأمرك إيانا بالسجود لهذا الاسم الذي لا نعرفه ومنهم من بلغ به التنطع أن قال : إن محمداً يأمرنا تارة بالسجود لله، وتارة بالسجود للرحمن، ويقولون له إلاهان أحدهما اسمه الله، والآخر اسمه الرحمن، وهذا منهم تجاهل وتنطع واستهزاء، وهم يفهمون جيدا لو أرادوا الفهم أن هذين اسمين لإله واحد، جاء ذكرهما في البسملة التى نزلت على الرسول - ﷺ - ونزل قوله تعالى : ﴿ قُلُ ادْعُواْ اللَّه أَوَ ادْعُواْ الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُواْ فَلَهُ الاسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[الاسراء: ١١٠]، دعاهم رسول الله إلى رحمة الرحمن الرحيم فنفروا من دعوته، وزادتهم نفوراً وزادهم الله رجسا إلى

رجسهم، وباؤوا بالخسران المبين، وكذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب : ﴿ ۞ تَبَارَكَ
ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا
مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ
أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ
عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾
إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟
لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ
سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ
لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا
صُمًّا وَعُمۡيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ
أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ
إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ
وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ
مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا
دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾.

جاءت هذه الآيات الكريمة التي تلفتنا إلى عظمة الله بتأمل مخلوقاته، وهي تتضمن الرد على هؤلاء الكفار المعرضين الذين تزيدهم الدعوة إلى الرحمن نفوراً، وإن كفرهم ونفورهم لن ينقص ذرة من ملك الله الواسع العريض، وإن كفرهم راجع إليهم بالوبال، ولن يضروا الله شيئاً، وفي الآيات تسلية للنبي - ﷺ - وتقوية لجانبه، وأن عليه التبليغ والإنذار لا غير، وفيها مقابلة بين أولياء الله الذين ذكر بعض أوصافهم في هذه الآيات، وهم عباد الرحمن الذي أذعنوا وسجدوا للرحمن، وبين أولياء الشيطان الذين إذا دعوا أن يسجدوا للرحمن زادهم ذلك نفوراً والبون شاسع بين الحزبين،

وكذلك يكون جزاء كلا الفريقين مختلفا ولا يستويان، هؤلاء يدخلون الجنة يلقون فيها تحية وسلاما، وهؤلاء سوف يكون عذابهم لزاما في جهنم وساءت مستقرا ومقاما؛ وفي هذه المقابلة ما يهز القلوب ويلينها ويملؤها خوفا من عذاب الله وسخطه ورجاء في ثواب الله ورحمته وإيمانا بالله العظيم. يقول الله تبارك وتعالى :

﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً﴾ [الآية: ٦١].

تبارك أي تعاظم وتقدس وجل ثناؤه، وعظمت قدرته، وشملت بركاته أهل السموات والأرض، لا غنى لأحد من خلقه عن بركته ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا﴾ ، البروج هي المنازل التى تتحول الشمس في الطلوع منها سائر العام، وهي اثنا عشر برجا على عدد شهور العام، وهي برج الحمل، وبرج الفيل، وبرج الميزان، وبرج العقرب، وبرج السرطان، وغيرها من البروج هذه بروج الشمس، أما القمر فله المنازل وهي ثمانية وعشرون منزلة، قال الله تعالى : ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[يونس / ٥]، وباختلاف البروج تختلف فصول السنة، ولها تأثير على نبات الأرض وحيواناتها ومعادنها برها وبحرها كما أن لأشعة القمر تأثيراً على مد البحار وجزرها، ولها أيضا تأثير على نضاج بعض الثمار.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً﴾ .

جعل الله الشمس في السماء سراجا و هاجا شديد الحرارة النور، ويقدر العلماء حرارتها بنحو اثني عشر ألف درجة، وهي مبعث الضياء، ومنبع النور لتوابعها مثل الأرض والقمر والزهرة والمريخ، وغيرها من الكواكب الدائرة في المجموعة الشمسية وجعل الله القمر في السماء كوكباً منيراً يعكس نور الشمس على الأرض، ويتقلب في

منازله وفي إهلال أهلته مواقيت للناس، وفي أشعته هدى للساري وفيها منفعة للنبات والثمار، والحيوان في البر، والحيتان في البحر، فسبحان من جلت قدرته وعظمت نعمته ووسعت رحمته خلقه، تبارك الله رب العالمين.

﴿وَهُوَ الذِى جَعَلَ الَيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن ارادَ أَنْ يَّذَّكَّرَ أَوَ ارادَ شُكُوراً﴾[الآية: ٦٢].

هو الله وحده الذي جعل الليل والنهار يتعاقبان، يخلف أحدهما الآخر، وفي ذلك منافع عظيمة للعباد والبلاد، وأعظم منفعة في ذلك تحديد الأوقات لعبادة الله، والتقرب إليه بالصلوات والصيام، ومن أجل العبادة خلقنا الله، ومن أجل عبادته خلق أهل السموات والأرض، ملائكتهم وإنسهم وجنهم ﴿وَإِن مِّنْ شَيْءٍ الاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الاسراء/ ٤٤].

جعل الله الليل والنهار خلفة لمن أراد من عباده أن يذكر أو أراد شكوراً، وهذا من الله تذكير لنا وتنبيه منه وتحريض على التذكر، فما هو إلا أن ننظر في آيات الله المجلوة في الأكوان، في السموات وقي الأرض، فنتذكر عظمة الله وقدرته وقد فطر الله الإنسان على معرفته، ولكن الإنسان يغفل وينسى فيحتاج إلى التذكير والتنبيه ليتذكر ويشكر نعم الله الكثيرة، الظاهرة والباطنة، وهذا الشكر يكون بالتقرب إلى الله بأنواع الصلوات، فما فاتك أداؤه في الليل تخلفه في النهار، وما فاتك في النهار تخلفه في الليل ، وما ارتكبته من الغفلات والهفوات في النهار تتوب منه في الليل، وما ارتكبته في الليل تتوب منه في النهار، هذا في التذكر والتوبة والإنابة، والقربات من الصلوات والأذكار، أما الفرائض فإن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار وإن لله حقا بالنهار لا يقبله بالليل، إلا من نام عن صلاة أو نسيها فوقتها أنى ذكرها وكذلك في تعاقب

الليل والنهـار تذكـرة للمعـتـبـريـن أولى الألبـاب ، وإنابة لهم إلى الله ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَاخْتِلاَفِ الَيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الالْبَابِ الذين يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتفكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[آل عمران / ١٩٠-١٩١] ، وقوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ الَيْلُ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الابْصَارِ ﴾[النور/ ٤٤]، ثـم بعـد ذكـر هذه الآيات التى تنطق بجلال الله وعظمته وتذكر الغافلين فينهضون بشكر نعم الله ويؤدون له واجب العبادة، يكشف الله تعالى عن أوصاف عباده الشاكرين في آيات بينات يبين الله فيها أخلاقهم وأفعالهم ودعواتهم، وجزاءهم عنده، ويصفهم بأحب أوصافهم عنده وعندهم ، فيسميهم عباد الرحمن، فهم برحمته يلوذون، وإياها يطلبون بينما أعداء الله إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ينفرون، فبهذه المقابلة يمتاز فريق عن فريق، فريق في الجنة وفريق في السعير : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الالْبَابِ ﴾ [الرعد : ١٩- الزمر : ٩] يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الارْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَالذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ
وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ
لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا
صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ
إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا
دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا

جاءت هذه الآيات خاتمة لهذه السورة الكريمة وفيها أوصاف أولياء الله الصالحين، بعد أن ذكرت في أثناء السورة أوصاف أعدائه الكفار المعرضين عن الرحمن، النافرين عن ذكر اسمه وذكرت أقوالهم، وذكر الرد عليها من قبل الله منزل الفرقان، وذكر ت آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته، وصدق أنبيائه ورسله، ثم جاء الثناء على عباد الرحمن بأوصاف هي السبب في نيلهم الدرجات العلا في الجنة والخلود فيها، وفي هذه المقابلة بين الفريقين موعظة وذكرى للمؤمنين، فلنستمع إلى أوصافهم لنقتدي بآدابهم وأعمالهم، ومن آدابهم الإعراض عن الجاهلين، والتواضع في مشيهم.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الارْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ [الآية:٦٣]

الإضافة هنا إضافة تشريف **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ﴾** والهون هو التواضع والوقار والإخبات، فهم يمشون على الأرض كالملائكة كراما متواضعين لله، أذلة على المؤمنين، لا يتكبرون ولا يتجبرون، ولا يختالون في مشيهم، والمشي وهيئته ينطق بشخصية الإنسان وطبعه، وهؤلاء مشيهم ينطق بكرم أخلاقهم، وطيب عنصرهم، وإخباتهم لربهم، يمشون مشية من يعلم أنه عبد الله، وأن الله عليه رقيب وفوقه قاهر، وأنه إليه راجع وصائر، يمشون هينين لينين مشية من يعلم أنه يموت ويبعث بعد الموت فيجازى على عمله، فهم أبعد الناس عن الفرح بالدنيا، والاختيال فيها، والفخر بأشيائها ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد: ٢٣]، كل هذه المعاني توحي بها العبارة وليس من الهوْن في المشي التماوت فيه، بل التوسط والاعتدال في كل شيء محمود، وقد روي أن طائفة من الناس كانوا يتماوتون في مشيهم فسألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: من هؤلاء: المتباوتون؟ فقيل لها قوم من القراء فقالت كلمتها المشهورة:

لقد كان عمر قارئا وكان إذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع وإذا قال أسمع لا تميتوا علينا دنيننا أماتكم الله .

والتصنع في كل شئ مذموم، وانما يمشي المؤمن على سجيته ولا يتكلف، ويعرفه من يراه أنه متواضع وقورٌ متأدب مع الله، لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً، ولا يمشي في الأرض مرحاً.

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ .

والجهل هنا معناه ليس هو ضد العلم وإنما هو ضد الحلم والحكمة، والإنسان لا يسلم من مخالطة الجاهلين، ولكن عباد الرحمن الذي يمشون على الأرض لا يجارون هؤلاء الجاهلين في سفاهتهم، ولا يقابلونهم بالمثل، بل يقولون سلاماً أي بيننا وبينكم سلام ، سلمنا الله من بلائكم ووقانا الله وإياكم الشر، فهم ينطقون بهذه التحية المباركة الطيبة ابتداء، ويجعلونها جوابا لجهالة الجاهلين، أو يقولون نحوها من الكلام الطيب ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[البقرة: ٨٣]، أو يعرضون عن الجاهلين ولا يجيبونهم بكلمة واحدة، والإعراض مأمور به وهو أسلوب من أساليب المسالمة، قال الله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩]، وليس هذا الإعراض ضعفا وإنما هو تكرم وترفع عن الدنايا وتجنب للشر، لإن استرسال الكلام السئ يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، ولا يرضاه الله من القتال، فالإعراض أو المخاطبة بالسلام يغلق باب الشر والفتنة لذا مدح الله الذين طبعهم الحلم، وفي مدحهم إرشاد لنا أن نقتدي بهم ،وبهذه الأخلاق استحقوا أن يقال فيهم عباد الرحمن، فإضافتهم إلى الرحمن كانت عن استحقاق، لأن الله جعل في قلوبهم رحمة ورقة، وتواضعا ولينا، ولم يجعلها قاسية جافية، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي .

ثم مدحهم الله بوصف آخر شديد التلازم لهذه الأوصاف، وهو الإنابة إلى الله، والاجتهاد في عبادته، والرغبة إليه آناء الليل وأطراف النهار، فقال تعالى:

﴿ وَالذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ [الآية: ٦٤].

وفي هذه الآية مناسبة بينها وبين قوله تعالى من قبل: ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ ارَادَ أَنْ يَّذَّكَّرَ أَوَارَادَ شُكُوراً ﴾ فهؤلاء الذاكرون الشاكرون الذين يأخذون وهنا من الليل يصلون فيه لربهم، ويذكرونه ويتضرعون إليه يدعونه، فهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً، فهم لا ينامون الليل كله كما تنام البهائم ،ولا يسمرونه كما يفعل الجهلة، بل يأخذون حظهم منه لعبادة ربهم، فشكر الله سعيهم، ووصفهم بأنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما، وليس معنى ذلك أنهم يبيتون الليل كله راكعين ساجدين قائمين لا ينامون، بل يصلون وينامون، كما قال رسول الله - ﷺ - في حديث له: «وأصلي وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» وكما قال الله له: ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إلا قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوْ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْءَانَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل: ١-٦]، والانسان ضعيف يحتاج لشئ من الراحة والنوم ليعوض ما فقده من الطاقة في الكدح في النهار قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾[النبأ: ٩].

فإذا صليت العشاء في وقتها ومع الجماعة في المساجد وصليت الفجر في وقته مع الجماعة في المسجد، وأخذت بين ذلك حظك من النوافل بعض ركعات، تخشع فيهن لا سيما عند السحر كنت مع الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، وذكر الله السجود وفي معناه الركوع، وذكر الله القيام لأنه يستحب في صلاة الليل طول القيام، ولابد بعد القيام القعود وهي أوضاع الصلاة، وفي كل منها معنى من عبادة الله والتواضع له، فلا

يزال المؤمن يتقلب بين أركان الصلاة، وينال القربى منه ويتشبه في هيئات الصلاة بأنبياء الله ورسله في الأرض، وبملائكة الله في السماوات.

فعباد الرحمن في النهار وفي مخالطتهم الناس يؤثرون الحكمة والحلم، والإعراض عن الجاهلين، وفي الليل يخلون بربهم في محاريبهم ويناجونه في تواضع وخشوع، فحمدُ الله أمرهم في النهار وفي الليل، مدحهم الله في مخالطتهم للناس، ومدحهم في خلواتهم، وهذا هو التقوى المأمور بها في السر والعلن، ﴿فأولَئك كان سعْيهم مّشْكُوراً﴾[الإسراء/ ١٩]، وهم في هذا الاجتهاد في العبادة يتضرعون لربهم بالدعاء:

﴿وَالذين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً إنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾[الآية:٦٥-٦٦]

إن عباد الرحمن يتضرعون إلى ربهم بهذا الدعاء، لأنهم يخافون عذابه، ولا يأمنون مكره، فهم يجتهدون في أنواع العبادات التى تبعدهم عن سخط الله وعذابه، وهم مع هذا لا يأمنون من العذاب، ولا يعتمدون على عبادتهم، فهم أبعد الناس عن العجب بهذه الأعمال، بل لا يأمنون أن تكون ردت عليهم فيستحقون عقاب الله، فهم يلحون في الدعاء إليه أن يصرف عنهم عذاب جهنم، لأنهم يعلمون أنهم سيرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا، وستلتقط أناسا من المحشر، فهم يتصورون ذلك المنظر، ويدعون ربهم أن يصرفها عنهم، فلا تصيبهم بحرها يوم تحتضن أبناءها :

﴿ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ .

والغرام هو ملازمة الشيء للشيء لا يفارقه ولا يزايله، ومنه الغرام الذي هو شدة الحب والولع بالشيء، وملازمة ذكره، ومنه الغريم، سمي بذلك لملازمته المدين ما لم

يقض دينه، وكذلك حال جهنم مع أبنائها فهي شديدة الشغف بأبنائها، تضمهم في أحشائها ثم لا تطلقهم، بل لا يزالون في عذابها الأليم مسجونين، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، فالعذاب مضاعف والإقامة فيه دائمة ، إن أولياء الله يجتهدون في طاعة الله ،ويرهبون من عذاب الله، فهم مع اجتهادهم يلحون في التضرع والدعاء إلى الله أن ينجيهم من عذاب جهنم ويعلمون أن عذاب جهنم، لا ينقطع ولا يفتر.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾ .

ما أسوءها مستقرا وما اسوءها مقاما لساكنيها، وهذه الكلمات تدل على خلود أهل النار في النار واستقرارهم فيها، نسأل الله أن يقينا عذابها ويجنبنا نكالها.

﴿وَالذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يُقْتِرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الآية:٦٧].

في هذه الآية مدح لعباد الرحمن بالقصد والاعتدال في النفقة، فهم ينفقون فيما تجب فيه النفقة ولكنهم لا يسرفون في ذلك ولا يقترون بل يقتصدون ويسلكون مسلكا وسطا، وهو مسلك الاعتدال .

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ .

وكان المسلك المحمود في النفقة مسلكا وسطا، والقوام هو المعتدل الذي لا إسراف فيه ولا تقتير. والإسراف تجاوز الحد في النفقة والإنفاق فيما لا يفيد ولا ينفع، والتقتير هو البخل بما يلزم الإنفاق فيه والإمساك فيما يطلب فيه الإنفاق، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم ، وفي الآية قاعدة عظيمة مهمة من قواعد الاقتصاد، للأفراد والدول

والجماعات لو تتبعها الناس في أنفسهم، ولو طبقها الملوك والرؤساء في خزائن دولهم ، لارتفعت عن كثير من جهات العالم المجاعة، واليوم كثير من الجهات مهددة بالمجاعة والأمراض الفتاكة التي تجرها المجاعة والبرد، وشدة الحاجة، والعري والتشرد وهذه الأشياء نتيجة عدم الاعتدال في نفقات الدول .

إن كثيرا من الدول تتسابق اليوم في الإنفاق بالأعداد الخيالية في مسابقة التسلح، وفي مسابقة غزو الفضاء، لو أن بعضا من هذه الأموال أنفقت على الأمم التي انتشر فيها الجوع والمرض، لارتفع البؤس عن أهل الأرض وعاش الناس في ظل الكفاية والعدل، ونعموا بالصحة والعافية، ولكن خوف الدول بعضها من بعض جعل الكل يجري وراء اختراع الصواريخ الفتاكة، واختراع الصواريخ المضادة لها، وينفق في ذلك آلاف الملايير من الدولارات والجنيهات ،ولا يزالون يتسابقون في هذا الميدان، ولا ينتهون في سباقهم إلى حد ولسنا ندري ما يطالعنا به الغد .

هذا باب من الإنفاق فتحوه على أنفسهم تجاوزوا فيه الحدود وهناك أبواب أخرى ، منها مباراتهم في إقامة الولائم والحفلات، والاستقبالات تجرى فيها سيول النفقات في الإسراف والحرام، وتعطل فيها الأعمال ليخرج العمال إلى الشوارع ليصفقوا للوفود، وفي تعطل الأعمال عشرات الأيام في العام الواحد خسارة كبيرة في الإنتاج، قد تكون في غير مقابل إلا مجرد الأبهة والفخر والخيلاء، وتلقى التكاليف على الرعايا الضعيفة ضرائب في مبالغ باهظة يتحملها العمال وصغار التجار كلاً على كل وهم يرزحون تحت أعبائها، وهم في أشد الحاجة إلى تغطية مصارفيهم اللازمة عليهم وعلى من يلزمهم القيام بنفقاتهم هذا في اسراف الدول والحكومات وكذلك ما يجري في إسراف الأفراد والأسر أمور تجاوزوا فيها الحدود في المباراة في المآكل والمشارب والملابس، والمساكن والمراكب والأثاث والرياش هذا عدا عن الأعداد الباهظة في الملاهي والمحرمات، وهذا

تبذير وللنهي عن التبذير آية أخرى تبين أن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفوراً .

إن الإسراف غائلة اجتماعية، أصيب بها كثير من الناس حملتهم على السرقة والتعدي، وأكل أموال الناس بالباطل، وانتشرت الرشى في الحكام، ومن بأيديهم مصالح الناس وانتشر الغش بين التجار وسرقه المكاييل والموازين وأنواع الربا في المعاملات وكل ذلك نتيجة المغالاة في النفقات والتبذير والإسراف، والله لا يحب المسرفين وينهى عن الاسراف :﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف : ٣١].

والإسراف تجاوز الحدود في النفقة ولو في الحلال، ويتبارى الناس اليوم في أبواب كثيرة من الإسراف منها المغالاة في أنواع الثياب، لاسيما ثياب النساء ويقلدون في ذلك اليهود والنصارى ومن لا خلاق لهم، من المغنيات والراقصات على المسارح وفي الشاشات فترى المرأة إذا لبست ثوبا وبرزت فيه في محفل عرس مثلا تكره أن تبرز فيه مرة ثانية فلابد من آخر جديد وإذا برزت مغنية أو راقصة في موضة من الملابس حاولت بنات حواء في تقليدها ورفض ما كان قديما ولو كان جديدا وتري الثوب من هذه الثياب يقوّم بأعداد باهظة ولا يستر ولا يدفئ ، ما هو إلا خيوط واهية براقة لا تقبل الغسل وإذا غسلت لم تلبس ولم تعد تنفع لشيء ، هذه مصيبة العصر ، مصيبة الموضة، فترى الرجل يسرق ويبغي، ويرتشي ويخون ويرابي ويطفف الكيل ليرضي حليلته، أو خليلته، أو خطيبته، ولا يتقي الله ربه وتلك هي عاقبة الإسراف ولذلك نهى عنه ربنا ومدح المقتصدين الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما .

وكذلك يبغض الله التقتير الذي هو البخل والتقصير دون الواجب من نفقه العيال

وربما يجر الإسراف في بعض الأبواب إلى التقتير في الأبواب الأخرى، وكثيرا ما جر التبذير إلى تضييع الأهل والوالدين والأولاد، فليس من أخلاق عباد الرحمن الإسراف ولا التقتير ولا التبذير بل الاعتدال والقصد هو دأبهم وطريقتهم وهو من المنجيات الثلاث التي وردت في الحديث الشريف فلنقرأ كتاب الله قراءة تدبر وإمعان ولنفهم حكمة الله في إرشاده إيانا إلى الاقتصاد ولنعمل بهذا الوصف الذي هو من أوصاف عباد الرحمن حتى نكون منهم، ونحشر في زمرتهم، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بأوصاف أخرى من أوصافهم اللازمة، وهو اجتناب ثلاثة أشياء هي من المهلكات الكبرى قرنها في نسق واحد، وبين جزاءها وعقابها الأليم لمن أصر عليها ولم يتب ولم ينته من ارتكابها أما من تاب منها فإن الله غفور رحيم. قال الله تعالى :

﴿ وَالذينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً ﴾ [الآية:٦٨-٧١].

الصفة السادسة والسابعة والثامنة من صفات عباد الرحمن أنهم يفرون من كبائر الذنوب، مثل الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، ولحكمة قرن الله هذه الكبائر الثلاث هنا في نسق، وذلك تنبيه من الله وتبيين لنا أن هذه الأمور إثمها كبير، وشرها عظيم، وخطرها جسيم، فهي أصول الفساد والشر في الأرض، فليحذرها الناس وليجتنبها المؤمنون .

وفي ذكر هذه الأشياء بعد ما تقدم من الصفات إشارة إلى أن كثيراً من الناس يصلي ويدعو الله، ولكنه يشرك بالله في إيمانه وصلاته ودعائه، قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] ، وكثير من الناس نشأوا في الإسلام ولا يعرفون خصالا هي من الشرك، فهم يدعون الله ولكنهم يشركون في عبادتهم غيره، فلا تقبل عبادتهم، ولا يستجاب دعاؤهم، قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[الكهف : ١١٠] فهم يدعون الله ولكنهم يدعون مع الله إلها آخر .

إن كثيراً من الناس يغلون في أولياء الله وفي النبي -ﷺ- كما غلت النصارى في المسيح ابن مريم، واليهود في عزيز، فهم يقدسونهم ويعتقدون فيهم ما لا يجوز اعتقاده إلا في الله، يظنون أنهم يغفرون الذنوب، ويقضون الحاجات فهم يدعونهم ويسألونهم الحاجات، وينذرون ويذبحون لهم، ويحلفون بهم، ويتوسلون بهم ،يبنون حول قبورهم وفي كل مكان قبابا وأنصابا، يهرعون إليها ويسألون عندها الحاجات، ويتبركون بها ويخافونها ويرجونها، وهذه الأشياء كلها شرك، وليست من الدين في شيء، ولا يجوز التوسل بمخلوق ذهب ومات، ولا يجوز الاستعانة بمخلوق حي إلا بما يدخل في استطاعته فيعينك بقوة علمه أو بدنه، أو جاهه أو بماله، وهذا مأمور به بين الناس، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] .

وكذلك التوسل إذا كان بعبد صالح حتى ترغب أن يدعو لك ويستغفر لك، لاسيما في موطن من مواطن الإجابة، أو في وقت مرجو من أوقاتها، أو في موسم من مواسم العبادة كالحج والعمرة، فهذا مشروع ودعاء المسلم لأخيه المسلم عن ظهر الغيب من أفضل الرغائب، وثبت ذلك في السنة الصحيحة أما غير ذلك من التوسلات

بالموتى وبمن هو غائب عنك فهو غافل عن دعائك، من الأحياء فهذا شرك، وكثيراً ما يخطئ الناس في الأطباء المعالجين فينسبون إليهم الشفاء، والشفاء لا يكون إلا من الله تعالى : يقول أحدهم شفاني الطبيب الفلاني أو الدواء الفلاني، أحذروا هذا فإنه شرك. وإن الشافي هو الله، لا شفاء إلا شفاؤه، وفي نزول المطر مثل ذلك، فمن قال مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بالله كافر بالكوكب، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بالله مؤمن بالكواكب، جاء هذا الكلام في الحديث الصحيح القدسي المروي عن النبي – ﷺ – بطرق ثابتة .

فالخلاصة في الموضوع أن نسبة أمر من هذه الأمور إلى غير الله شرك، وإن الله لا يغفر أن يشرك به والدعاء عبادة، فمن دعا مع الله أحدا فقد أشرك، ولا يستجيب الله دعاءه، ويرد عليه عمله، وكذلك من الشرك الخفي الرياء، وهو أن يعمل أحد من الناس عملاً يحب أن يطلع عليه الناس، ليشكروه فهذا عمل باطل مردود عليه ، ويعاقب عليه يوم القيامة وفي مثل هذا نزل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : ١١٠]، ونزل قوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾[الزمر : ٢-٣]، ونزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣].

وعباد الرحمن يخلصون عبادتهم لله، ولا يدعون مع الله إلها آخر، وهم الذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، فالرجل منهم، يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه . أولئك الذين يتقبل الله منهم ولا يكلف الله نفسا إلا

وسعها . والصفة السابعة من صفات عباد الرحمن :

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التى حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالحَقِّ﴾ .

فهم أبعد الناس عن الظلم لا يظلمون الناس، ولا يبغون عليهم ولا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بوجه من الوجوه التي شرع الله وشرعه الحق، وذلك مثل الارتداد بعد الإيمان وقتل النفس بظلم وعدوان، وزنا بعد إحصان، فالمسلمون عصمت دماؤهم وأموالهم وأعراضهم بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلا تباح دماؤهم إلا بحقها، وذلك مبين في القرآن وفي السنة الصحيحة ،وهو مفصل في كتب الفقه، فلا يحل لمسلم أن يمد يده إلى سفك دم مسلم، أو أخذ ماله، ولا يأمر بذلك، فمن أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينه آيس من رحمة الله، جاء بذلك الخبر الصحيح عن النبي -ﷺ- وجاء في خطبة النبي -ﷺ- يوم الحج الأكبر في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ......» الحديث .

وقتل النفوس أعظم الجرائم، وكل جريمة دون الشرك بالله إلا وجريمة القتل أعظم منها، وليس شيء أدل على ذلك من ذكرها مقرونة بالشرك بالله . ثم تأتي الصفة الثامنة من صفات عباد الرحمن، وهي في قوله تبارك وتعالى :

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ .

فعباد الرحمن يحفظون فروجهم، ويغضون أبصارهم، ولا يقربون الزنى، لأنهم يعلمون أنه فاحشة من أعظم الفواحش، تردي أصحابها في جهنم وتحل عليهم غضب

الله، فهم لا يزنون ولا يلوطون، ولا يتمتعون بالمتع الحرام، بل يحفظون فروجهم، إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم وجريمة الزنى ربما يظنها الواحد معصية بين العباد وبين ربهم ، كلا بل إنها جريمة اجتماعية كبرى وفاحشة يتسع خطرها وفسادها في الناس، فهي توقع العداوات والفتن، وتفسد الأنساب، وتخرج أولاد الزنى وهم خطر على المجتمع ،وتشيع الأمراض الفتاكة بين الناس .

وفي الحديث : «وما انتشرت فاحشة الزنى في قوم إلا فشا فيهم الطاعون» ويسري مرض الزنا في النسل فيضعف الأولاد ويفتك بهم، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[الإسراء: ٣٢]، وهنا أيضا في سورة الإسراء قرن الزنا بالقتل لعظم خطره، واتساع فاحشته، وفساده في المجتمعات يقول الله تعالى بعد هذه الآية :﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ثم بين الله تعالى عقوبة هذه الجرائم تخويفا لعباده فقال :

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ .

ومن يرتكب هذه الفوحش أو إحداها يلق أثاماً والآثام هو العقاب الأليم ، وقد نكَّر لفظ الآثام إشارة لعظم العقوبة، ثم بين نوع العقاب فقال :

﴿ يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾

يعذبون في جهنم ويضاعف لهم العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، أي ذليلا محقوراً، وهذا دليل على ثبوت الخلود لأهل الكبائر المصرين عليها لأن الوعيد هنا

يشمل الشرك، وما قرن به من كبائر الأعمال، ولاعتقاد الخلود أثره الفعال في تقويم النفوس، ونهيها عن الهوى، وشتان بين من يخاف الخلود وبين من لا يخافه ، فلا مطمع لأحد من أهل الكبائر في النجاة بغير التوبة والإقلاع عن الذنوب، قال الله تعالى :

﴿ إلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

يفتح الله تعالى باب التوبة للعصاة، ولا يوئسهم من رحمته، فمن ارتكب شيئا من هذه الكبائر ثم وفقه الله للتوبة فتاب توبة نصوحا فإن الله يقبل توبته، ويبدل الله سيئاته حسنات، أي يوفقه بعد ارتكاب الذنوب إلى اقتراف الحسنات، ويجتهد في اكتساب الحسنات تكفيراً عن ذنوبه، فهذا هو معنى تبديل سيئاته حسنات وقال قوم يكتب الله له بدل سيئاته حسنات، لأن التوبة والإقلاع عن ذنوب ألفتها النفس واستمرأتها أمر شاق لا يطيقه إلا أولوا العزم، لذلك يكتب الله على توبته هذه حسنات تكون بدلا عن سيئاته :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.

يعلن الله لخلقه أن مغفرته أعظم من ذنوبهم، ورحمته أوسع لهم .

ومن أسماء الله الحسنى الغفور الرحيم، أي العظيم المغفرة، الواسع الرحمة، ولكن مغفرته ورحمته للتائبين المنيبين المستغفرين، لا للمصرين على الذنوب المتشبثين بالأماني الذين يقولون : نحن نحسن الظن بالله . أولئك قال رسول الله -ﷺ- في حقهم رداً عليهم «كذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[الأعراف : ٥٦]، والمحسنون هم التوابون ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة : ٢٢٢]، ثم قال الله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً ﴾ .

هذه الآية تحقق معنى التوبة، وهي الرجوع الحقيقي إلى الله، والندم على الذنب بعد الإقلاع منه، والعزم على عدم العودة إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، والإنابة إلى الله تعالى وطلب المغفرة منه بألفاظ الاستغفار الواردة في الأثر، ومنها سيد الاستغفار : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما أستطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ويتخير الإنسان للاستغفار أوقاتا منها بعد صلاة المغرب، ومنها في السحر، ومنها بعد أداء الصلوات وعند ساعة الإفطار، ومنها أن يستغفر المؤمن لأخيه عن ظهر الغيب، لاسيما في أثناء الطواف والسعي للحج أو العمرة، وفي عرفات ومنى، وعند المشعر الحرام، ويجتهد التائب في الأعمال الصالحات، ويجعلها كفارة لذنوبه، فإن أنواع القربات تكفر الذنوب ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[هود : ١١٤]، فقد قرنت التوبة في الآية بالعمل الصالح ،وكرر ذكره مرتين، وقد ورد في الحديث الصحيح أن إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة من المكفرات للذنوب الماحيات للخطايا فإذا تاب المذنب إلى ربه متابا وأ رفق توبته بالعمل الصالح فإن الله يقبل توبته ويغفر ذنبه إن الله غفور رحيم .

واختلف العلماء في القتل العمد العدوان فقال بعضهم : لا توبة له ، ومنهم ابن عباس رضي الله عنه واستدلوا بآية النساء وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُومِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[النساء : ٩٣]، فقد أغلظ عليهم هنا في الوعيد ، ولم يفتح لهم باب التوبة مع العلم أن آية النساء متأخرة نزولاً على آية الفرقان ، وقال الجمهور إن باب التوبة مفتوح واستدلوا بهذه الآية التي في سورة الفرقان ، التي فتحت باب التوبة بآية عامة لم تخصص ، واستدلوا أيضا بالحديث الصحيح الوارد في حق من قتل مائة نفس ، ثم تاب فقبلت توبته ، وذهبت به ملائكة الرحمة إلى رحمة الله ويرجح هذا المذهب وهو الأنسب بسعة رحمة الله ، ولقوله تعالى في حق المسرفين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾[الزمر : ٥٣] ، وقال بعض العلماء إن قاتل العمد العدوان لا يوفق إلى التوبة لعظم جريمة القتل ، وربما يكون لهذا القول وجهة نظر فقلما يوفق القاتلون إلى التوبة ، كيف تكون توبة من توبته أن يقود نفسه إلى القتل عن طواعية إلا أن يعفو أولياء الدم ، ويعدلوا عن القصاص إلى الدية أو العفو .

فإذا تاب المذنب من ذنبه ورجع إلى الله رجوعاً صادقاً تقبل الله توبته ، أما قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ .

ففي الآية دليل على أن مرتكب هذه الكبائر قد زايله إيمانه حين ارتكابها فإن تاب فلابد بمراجعة إيمانه والتكفير بالعمل الصالح ، وقد ورد حديث شريف في هذا المعنى ، روي أن النبي – ﷺ – قال : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق

حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» وجاء في صيغة الاستغفار «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك » .

ففي الصيغة تجديد الإيمان مع الاستغفار، وهذا كله لا ينفع إلا مع الإقلاع عن الذنب والندم ، وصدق التوبة ، والرجوع إلى الله ، ثم تأتي بقية صفات عباد الرحمن فيقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَالذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً وَالذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً ﴾[الآية : ٧٢-٧٣] .

الصفة التاسعة والعاشرة لعباد الرحمن الذين أثنى عليهم ربهم هو أنهم يعرضون عن مجالس اللغو والزور، ويقبلون على مجالس الذكر بأسماعهم وأبصارهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

﴿ وَالذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ .

الزور هو الكذب والغيبة والنميمة ، والبهتان والباطل من القول ، فهم لا يشهدون مجالس الزور ولا يشهدون على ما لم يعلموه ولم يتحققوه ، وتلك هي شهادة الزور التي هي من أكبر الكبائر ، أن يشهد أحدهم بما يعلم ولا يقول أحدهم على الله وعلى رسوله ما لا يعلم، فقد سمى الله أقوالهم زورا ، قال تعالى : ﴿ فقد جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الاوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[الفرقان : ٤-٥] ، وقال في نحو قولهم : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾[الكهف : ٥] ، كل هذا ونحوه من الكذب سماه الله زورا ، ونزه عنه أسماع وألسنة عباده المؤمنين، فهم أطهار صادقون أبرار ، بعداء عن الإفك والكذب ، لا يشهدون الزور ولا يرتضونه ، بل يكرهونه ويكرهون أهله ، ثم

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ .

إن من صفات عباد الرحمن أنهم يعرضون عن اللغو، فهم إذا مروا بأصحاب اللغو مروا كراما لا يشاطرونهم في لغوهم، واللغو هو الكلام الفارغ الذي لا طائل تحته ولا منفعة ترجى منه وإنما هو مجرد كلام يلهو به من لا خلاق لهم، فهم في لغوهم يمرحون، وقد ورد في الحديث الشريف: «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها» ولذلك فإن عباد الرحمن تترفع نفوسهم عن اللغو فهم إذا مروا به مروا كرام النفوس منقبضين عنه كما قال الشاعر الحكيم:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما

وليس معنى ذلك أنه متكبر، كلا بل مترفع عن سفاسف الأمور متنزه عنها، وقد يكون الرجل متكبرا ولاغيا يمرح في مجالس اللغو، يداني الأنذال في لغوهم ولهوهم، يميل إلى سقط الكلام ويترفع عن قبول الحق، يسفه من جاء به وذلك هو الكبر، فعزة النفس وترفعها عن سفاسف الأمور غير عزة النفس وترفعها عن قول الحق: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ﴾[البقرة: ٢٠٦]، نعوذ بالله من هذه العزة إنها في الحقيقة ذلة وصغار. إنما العاقل يصون نفسه عن اللغو وسقط الكلام، والناس يتمدّحون منذ القديم بهذه الصفة قال الشاعر البحتري:

صنت نفسي عما يدنس نفسي ... وترفعت عن جداكل جبس

وكل مجلس لا يذكر فيه اسم الله ولا ما يقرب إليه من طيبات الأقوال والأفعال

فهو لغو إلا أن يمزح الإنسان بكلمة يدخل بها الإنس على قلوب إخوانه فهذا لا يعد لغوا لأن النبي - ﷺ - ما كان لاغيا، وكان يمزح ولا يقول إلا حقا، وينبغي أن يختم الناس مجلسهم بذكر الله تعالى، فهو كفارة مجالسهم وقد ورد ذلك في الأثر أن يقول الإنسان قبل قيامه من مجلسه : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ على الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الصافات : ١٨٢]، أو يقول : «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» فإن الله يغفر له ما صدر منه من لغو في ذلك المجلس إن شاء الله .

ثم تأتي الصفة العاشرة من صفات عباد الرحمن، وذلك قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَالذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً ﴾ .

وما ألزم هذه الصفة بما قبلها من الصفات، وهي تنم عن طبع سليم، ونفس مؤمنة، وعقل نير، وقلب مستبصر، فهم إذا ذكروا بآيات ربهم تذكروا فإذا هم مبصرون، فهم لا يتصاممون عن الحق إذا قيل لهم، ولايتعامون عن الهدى إذا جاءهم، وقوله تعالى :

﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً ﴾ .

تعبير قرآني بديع له وقعه في النفوس، وهو تعريض بأعداء الله، الذين إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم رجسا إلى رجسهم، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فهم يخرون على آيات الله البينات صما وعميانا صرفت عنها قلوبهم كأنها في صناديق مقفله طبع الله عليها فلا ينفذ نور القرآن إليها بل يحاولون طمسه فهم يخرون عليه يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ،والله متم

نوره ولو كره الكافرون، أما عباد الرحمن فيفتحون له قلوبهم يتلون آيات الله، ويتدبرون معانيها، ويزدادون بها إيمانا مع إيمانهم ،وهذا هو الواجب على كل من يسمع آيات الله تتلى عليه أن يتواضع ويتخشع، ويزداد إيمانا، ويستبشر بآيات الله، ويخر ساجدا في مواضع السجود يسبح لربه، ويقدس له، وأقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد .

فالمؤمنون يخرون للأذقان ساجدين لربهم، والكفار يخرون على آيات الله بالطعن والجحود، والتأويل بالباطل ابتغاء الفتنة، والصد عن سبيل الله، ففي الآية الكريمة مدح لعباد الرحمن، وتعريض بأعداء الرحمن أعداء الرسول والقرآن، وقد جاء هذا المعنى مصرفا في أساليب متنوعة في غير موضع من كتاب الله تعالى، واليوم وقد انتشرت الفلسفات الغربية، والنظريات الشيوعية في الشباب المتعلم في الجامعات، فتأثروا، فهم يحاولون الطعن في القرآن، والكيد للإسلام، يريدون أن يطفئوا نور الله بفلسفات الغرب، ونظريات ماركس ولينين، وسارتر ودارون وغيرهم، ولن يستطيعوا ذلك وسيحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[التوبة : ٣٢] ، فليحذر الشباب مرض الشك والإلحاد، وليعلموا قول الله هو الحق، ولينبذوا كل الفلسفات المعادية للإسلام ،وليتشبثوا بدينهم الحق، ولا يفتحوا قلوبهم لشبهات الملحدين، والزنادقة الذين لا هم لهم إلا الدس على الإسلام، والطعن في القرآن، أولئك أعداء الله ورسوله الذين اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، ونعوذ بالله من عمى القلوب بعد إبصارها، ومن ارتداد ها بعد إيمانها، ونسأل الله أن يحفظنا ويحفظ شبابنا من شر الإلحاد والزندقات آمين :

﴿ وَالذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا من ازواجنا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً اولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً خَالدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً ﴾ [الآية: ٧٤-٧٦].

الوصف الثاني عشر من أوصاف عباد الرحمن أنهم يتقربون إلى الله تعالى بالدعاء الحسن لأنفسهم ولأهليهم وذريتهم، فهم يسألون ربهم أن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين لهم ، وربما يظن الظان أن قرة الأعين من أولئك أن تكون الزوجة جملية حسنة الوجه، ويكون الولد كثيرا وأغنياء، ولهم وظائف ومناصب في الهيئات الاجتماعية وأحساب وإقبال من الدنيا، كلا ليس ذلك من عباد الرحمن الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، إنما قرة أعينهم في صلاح واستقامة الأزواج والذرية في صراط الله ذلك هو مناهم كما دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيم الصّلاة ومن ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعَائي رَبَّنا اغْفر لي ولوالديَّ وللمُومنين يوم يقوم الحساب ﴾[إبراهيم: ٤٠-٤١].

ذلك هو تفسير قرة الأعين من الأزواج والذرية، لأنه عندما يكونون صالحين مقيمين للصلاة يسعد بهم المؤمن في الدنيا وفي الآخرة وبعد موته يجري عليه الأجر بصلاح ذريته واجتهادهم في العمل الصالح، والدعاء لوالديهم، فيدخل عليهم من ذريتهم أطباق من نور، وفي هذا الدعاء أيضا محبة الخير للأزواج والذرية، لأنه لا تقر عين المؤمن إلا بسعادة زوجه وذريته واجتماعهم به في الجنة، كما قال تعالى في سورة الطور : ﴿ والذين ءامنُوا واتَّبعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ الحقْنا بهمْ ذُرِّيَّاتهمْ وما ألتناهُمْ منْ عملهم من شيْءٍ كُلُّ امْرئ بما كسب رهينٌ ﴾[الطور: ٢١]، تلك هي قرة أعين الصالحين، أن يلحق

الله بهم ذرياتهم الذين اتبعوهم بإيمان، ويجمع شملهم جميعا في جنات النعيم .

فعباد الرحمن يهتمون لأهاليهم ويدعون لهم بالخير، بعد ما اجتهدوا في تربيتهم على خصال الإسلام وأعمال الإسلام، والدعاء من تمام القيام بما كلفوا به من الوقاية في قوله تعالى في سورة التحريم : ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ ﴾[التحريم : ٦] ، فهم يجتهدون في أسباب الوقاية، ومنها الدعاء الحسن وإن كان الدعاء وحده مع التقصير في واجب الطاعة لا يكفي، وقد قال العلماء : إن الذي يدعو الله يسأله الجنة وهو لا يسعى لها سعيها، هو كالمستهزئ بربه، وهذا كالذي يسأل الله زرعا وهو لم يحرث الأرض، ولم يبذر البذر ويسأل ربحا وهو لم يتاجر ولم يعمل، وفي مثل هذا المعنى روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : يقول أحدكم اللهم أرزقني، وهو لا يتحرك وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

إن سنن الله لا تتغير فلابد بالعمل والجهاد في أعمال البر، ونهي النفس عن الهوى، ولابد بتربية الأهل والذرية، وأمرهم بالصلاة بعد الاصطبار عليها، ثم يحسن الدعاء ويكون مقبولا، ومن دعاء عباد الرحمن :

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ .

يدعون ربهم أن يجعلهم أئمة للمتقين، يقتدون بهم ولا يقتدي المتقون إلا بأهل الهدى والتقوى، والناس جبلوا على التقليد، وأصناف الناس شتى، كل صنف يميل إلى شكله، فالصالحون يقتدون بأشكالهم وهم الصالحون أهل التقوى، والفاسقون يقلدون

أشكالهم أهل الفساد والهوى كل يميل إلى جنسه، للمتقين أئمة يهدونهم بأمر الله إلى الخير، وللمجرمين أئمة يهدونهم إلى النار، ولذلك فعباد الرحمن يدعون ربهم أن يجعلهم أئمة لأهل التقوى يقتدون بهم، ويأتمون بهداهم.

وقد جعل الله هذا الدين أمانة يتناقلها أهل الإستقامة والصلاح جيلا عن جيل، كأنها سلسلة ذهبية متماسكة، فرغب عباد الرحمن إلى ربهم أن يجعلهم حلقة متينة من هذه السلسلة، يقتدون بمن قبلهم من أهل الهدى كما أمرهم الله ،ويقتدي بهم من بعدهم من أهل التقوى ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا مؤمنين حقا متقين لله، قد حققوا خصال التقوى في أخلاقهم وأفعالهم، فقد سألوا ربهم ضمنيا أن يكونوا متقين كي يكونوا أئمة للمتقين، وليس هذا الدعاء منهم حبا للصدارة والعلو في الأرض، إنما هو رغبة للخير وحرصاً على هداية الناس لينالوا بذلك أجراً عظيماً، درجات عند الله، إذ كانوا أئمة للهدى يقتدي بهم المتقون ويجري على أيديهم نسب هذا الدين، فهم أئمة الإسلام، أعلام الهدى، أدلة الناس على الخير، وطوبى لمن كان كذلك ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ...الحديث .

ذلك هو دعاء عباد الرحمن المتقين وتلك هي رغبتهم إلى الله، وذلك هو همهم الذي يشغل بالهم، لأنهم يعلمون أن من كان قدوة في الخير فهو في الدرجة العليا عند الله، وفي هذا الوصف إرشاد لنا أن نكون كذلك ، نتقبل أمانة هذا الدين، و نحافظ عليها ثم نبلغها لمن بعدنا من غير تبديل ولا تغيير، فإذا كنا كذلك وأيدنا فعلنا بالدعاء الصالح، فإن الله يستمع لدعائنا ويستجيب لنا، ويعطينا ما ذكر في الموضوع مما وصف الله تبارك وتعالى ، قال الله تعالى :

﴿ اولَئكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً ﴾ .

المراد الغرفة هنا هو الجنة التي أعدها الله للمتقين، فيها قصور وغرف من فوقها، غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، وجاء في موضع آخر : ﴿ وَهُمْ في الغُرُفَات ءَامِنُونَ ﴾[سبأ :٣٧]، فالغرفة إذن هي المقصورة المبنية في مكان مرتفع، تزين وتؤثث وتفرش ليتنعم فيها ملك القصر هو وزوجه من الحور العين، وفي الجنة يكون فيها آمنا من كل الأكدار والمنغصات فليس ثمة ما يقلق بال الإنسان ويسوءه ، ليس ثمة إلا النعيم المقيم، والسرور الدائم ،وكل ذلك جزاء لأولياء الله بما صبروا في الدار الدنيا على طاعة ربهم، واختار الله تعالى كلمة الصبر هنا وصفا لهم، لأنها هي الكلمة الجامعة لخصال الإيمان كلها، فلولا الصبر ما أطاع الله مطيع في امتثال الأوامر ،واجتناب المناهي، ولولا الصبر ما تلقى المؤمنون المصائب بالرضا والتسليم لأمر الله ،ولولا الصبر ما نزل أولياء الله على حكم الله ورسوله، ولولا الصبر ما أعرض عباد الرحمن عن الجاهلين وقالوا سلاما، ولولا الصبر ما أخلص المخلصون عبادتهم لربهم، ولولا الصبر ما تورع المتورعون عن الشبهات والحرام، فبالصبر وحده أحسنوا عبادة ربهم فنالوا جزاء إحسانهم غرفات عليا في الفردوس الأعلى، حيث يلقون تحية وسلاما. قال الله تعالى :

﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾ .

والتحية كلمة فيها الدعاء بالحياة الطويلة، والحياة الطيبة، والحياة الهنيئة، واختار الله لتحية أهل الجنة السلام ، لأنها كلمة تحمل السلامة والعافية ،والسلام أسم من أسماء الله الحسنى وهو السلام لمن سالمه وأسلم نفسه له : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِن الصَّالِحَات

وَهُو مُومِنٌ فَلاَ يخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾[طه: ١١٢]، إن أهل الجنة يلقون السلام من ربهم ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[يس: ٥٨]، ويلقون السلام من ملائكة الله الأخيار ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٣-٢٤] ﴿ تَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، ويسلم بعضهم على بعض قال الله تعالى: ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأثِيماً إلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً ﴾[الواقعة: ٢٦]، ثم ختم الله الكلام على جزاء عباد الرحمن بكلمة فيها تمام النعيم وكل نعيم دونها منغص مكدر ناقص، فلا تكمل النعمة إلا بالخلود في النعيم في الجنة، ولا تكمل نعمة الله في الدنيا على عباده إلا بما يسيرهم في صراط الله المستقيم، الذي يؤدي بهم إلى رضوانه وينيلهم الحسنى يوم لقائه، ذلك تمام النعمة، وتلك هي غاية عباد الرحمن وأولئك الذين أنعم الله عليهم، وأمرنا بسلوك سبيلهم، والسير على صراطهم، وعلمنا أن ندعوه دائما بالالتحاق بهم، والاهتداء بهداهم: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين ﴾[الفاتحة: ٦-٧].

والخلود هو البقاء الطويل الذي لا ينقطع وقد استعمل في القرآن كثيرا في الوعيد ليدل على هذا المعنى وفيه البشارة العظيمة لأولياء الله والانذار المفزع لاعداء الله: هؤلاء في الجنة خالدين فيها أبداً، لا يبغون عنها حولا، وهؤلاء في النار خالدين فيها أبداً، ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّوصَدَةٌ في عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾[الهمزة: ٨-٩]، ثم إن الله تبارك وتعالى أعلن حكمه على الجنة التي خلقها وأعدها لأوليائه بصيغة تفضيل فقال:

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾ .

أي ما أحسنها مستقرا ومقاماً وهي المنزل الذي يستقر فيها أولياء الله أخيرا، ويقيمون فيه الإقامة الدائمة لا تفنى ولا يموتون ولا يتحولون عنها، ولا يبغون عنها حولا، وجاءت هذه العبارة هنا لتتم المقابلة بين مصير ومصير، هؤلاء قال في مصيرهم : ﴿ساءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾[الفرقان : ٦٦] ، وهؤلاء قال في مصيرهم :

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾ .

وكم في مثاني القرآن من أمثال هذه المقابلات، فكأن الله تبارك وتعالى يقول لنا : وازنوا بين هذه المثاني واعتبروا يا أولي الأبصار واختاروا لأنفسكم ما دام لكم الاختيار، واتقوا مصير أهل النار، ثم اعملوا لتنالوا مصير الأبرار، واستعينوا بدعائكم ربكم آناء الليل وأطراف النهار، ثم يختم الله هذه السورة بخطاب يوجهه للناس جميعا، وينصب الوعيد الذي فيه على المكذبين، وهم أكثر الناس، قال الله تعالى :

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونَ لِزَاماً﴾[الآية :٧٧] .

الخطاب من الله تبارك وتعالى، وأمر نبيه بتبليغه للناس جيمعا قل يا محمد لهم : ما يعبأ بكم ربي، أي ليس لكم عند الله وزن ولا خطر، ولا يبالي بكم لولا دعاؤكم، والدعاء مخ العبادة فدعاء المؤمنين ينفعهم عند الله، ويستجيب الله لهم،ودعاء الكفار ربما ينفعهم في الدنيا وربما يردعنهم عذاب الدنيا لكن لا ينفعهم في الآخرة ولا يرد عنهم عذابها : ﴿وَما دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلاَّ في ضَلالٍ﴾[الرعد : ١٤ - غافر : ٥٠]، ذلك

لأنهم مكذبون بوعد الله ووعيده، وكذبوا برسله وما جاءتهم به من الوحي من عند الله. قال تعالى :

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ .

أي فقد كذبتم أيها المكذبون فسوف ينزل بكم عذاب الله، ويكون نزوله لزاما ويكون هلاكاً لكم، وقد حقق ذلك يوم بدر ونعوذ بالله من سوابق الشقاء، ونعوذ بالله من نزول العذاب، وقد ختم الله السورة بمثل ما افتتحها به من تثبيت قلب نبيه والمؤمنين بالكتاب الذي نزل بالحق وأن المكذبين به سوف يلقون جزاء تكذيبهم قريبا، وكذلك افتتح السورة التي تليها بمثل ذلك وقال فيها : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُومِنِين إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ ايَةً فَظَلَّتَ اَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء :٣-٤]، وما أمتن المناسبة بين سور القرآن الكريم، فكأنها حلقات من سلسلة ذهبية آخذ بعضها ببعض، ولا غرابة في ذلك فهي : ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت :٤٢]، وما أروع هذه الخاتمة المحكمة التي تحمل حكم الله لعباده المتقين بالسعادة الدائمة، وعلى أعدائه المكذبين بالشقاء الملازم المحقق، ومن أراد الله به خيرا فقهه في الدين وألهمه رشده، والذكرى تنفع المؤمنين، جعلنا الله من عباده المتقين الذين تنفعهم الذكرى إنه ولي المتقين آمين والحمد لله رب العالمين .

سورة الشعراء

تفسير سورة - الشعراء - وهي مكية وآياتها - ٢٢٧-

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ
لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا
عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

السورة تسمى سورة الشعراء ، وهي من السور المكية ، وللمفسرين والفقهاء تميز بين السور المكية والسور المدنية ، لأن في السور المكية اعتناء بالعقيدة وما يتصل بها من الوعد والوعيد وضرب الأمثال ، أما السور المدنية ففيها بيان الأحكام وما يتصل بها وهي لا تخلو من المواعظ والزواجر لأن القرآن كتاب ذكر ، وسورة الشعراء هذه هي السورة الثانية عشرة من السور المبدوءة بالحروف الهجائية المقطعة ، وهي سورة البقرة

وآل عمران والأعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر ومريم وطه ثم هذه السورة التي نحن بصدد تفسيرها .

والله تعالى أعلم بمعاني هذه الحروف وما علينا إلا أن نرد حقيقة العلم بها إلى الله منزل القرآن، وللعلماء فيها أقوال تقدمت في مواضعها مما سبق، ولا يحجر عليهم أن يبحثوا في المعاني المرادة منها، وليس لهم أن يجزموا بها، ولو صح عن النبي - ﷺ - شيء في المراد لقبلناه على الرأس والعين، وكلامه وحي من الله يوحى، أما ولم يرد في معناها شئ فالباب مفتوح للنظر والبحث، ونرد العلم بعد ذلك إلى الله .

ومن أقوال العلماء فيها أنها أسماء السور، ويبدو أن هذه أضعف الأقوال. والذي يظهر أنه أقرب إلى الصواب واعتمده كثيرون أن الابتداء بهذه الحروف إنما المقصود به إقامة الحجة على المكذبين بالقرآن، المنكرين لرسالة محمد - ﷺ - بذكر هذه الحروف المقطعة، فيها إظهار الإعجاز، أن هذا الكلام نزل بلسان عربي مبين بلغتكم وبالحروف التي تركّبون بها كلامكم ، بالألف واللام، والميم والراء، والصاد والكاف والعين، ولكنكم تعجزون عن الإتيان بمثل هذا الكلام ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا، بل تعجزون عن الإتيان بعشر سور مثله مفتريات، بل بسورة من مثله وستظلون عاجزين حتى تقوم الساعة، واعتمد كثير من علماء التفسير هذا المعنى في تعليل هذه الحروف المقطعة، وهو تعليل وجيه والعلم عند الله .

ومن غريب أمر هذه السور المبدوءة بهذه الحروف أن عددها يساوي عدد حروف الهجاء تسعة وعشرون سورة، وأن الحروف التي بدئت بها أربعة عشر حرفا، وهذا العدد يساوي نصف جملة الحروف تقريبا، والذي يرجح ما ذهب إليه أكثر العلماء ذكر الكتاب أو القرآن بعدها مباشرة، وفيه ما فيه من التنبيه والإشارة إلى إعجاز القرآن

المؤلف من هذه الحروف، ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، فلنذكر بعض أمثلة من هذه السور، فمن ذلك سورة البقرة: ﴿أَلَم ذَلكَ الكتَابُ لاَ رَيْب فيه هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وسورة آل عمران: ﴿أَلَمّ اللَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ نزّلَ عليْك الْكتَاب بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بيْنَ يدَيْه وَأَنْزَلَ التَّوْرَاة والانجيلَ من قَبْلُ هُدًى للنَّاس وأنْزل الفُرْقَانَ﴾ وسورة الأعراف: ﴿اَلْمص كِتَابٌ انزل إِلَيْك فلا يَكُن في صَدْرِك حرجٌ منه لتنْذر به وذِكْرَى للْمُومنينَ﴾ ومن سورة يونس: ﴿آلَر تلْكَ ءاياتُ الكتَاب الحَكيم﴾ وسورة هود: ﴿أَلَر كِتَابٌ احْكِمت ءايتُهُ ثُمَّ فُصلَتْ منْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خبيرٍ﴾ وسورة يوسف ﴿أَلَر تِلْكَ ءايَاتُ الكتَاب الْمُبِين إِنَّا أنزَلْنَاهُ قُرءاناً عَربياً لعَلَّكُمْ تَعْقلُونَ﴾.

وهكذا نرى أغلب هذه السور يأتي ذكر الكتاب أو القرآن فيها بعد الحروف المقطعة مباشرة، فهي كلها على هذ النمط إلا أربع سور وهن « مريم والعنكبوت والروم وسورة القلم » والحكمة في كل ذلك فيما ذكر فيه الكتاب والقرآن وفيما لم يذكر يعلمها منزل القرآن، والذي نفهمه ويفهمه كثير من العلماء أن هذا القرآن عربي مبين، ينطق بلسان عربي، وأحرفه هي التي ينطق بها الناس، ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله ولن يطمعوا في ذلك أبدا فهو إذن من عند الله، لا من كلام محمد ولا غير محمد، وهنا تتحقق المعجزة لأنه لو كان من كلام آخر لا يفهمونه، ومن حروف أخرى لا يستعملونها في نطقهم، لكان لهم بعض الشبهة في عجزهم عن الإتيان بمثله.

ومما يقوي هذا المعنى تعقيب هذه الحروف بذكر القرآن والكتاب، كما قال الله تعالى في هذه السورة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسمٓ تِلْكَ ءَايَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[الآية: ١-٢].

– تلك – إشارة إلى الآيات المنزلة من الكتاب المبين، وهي إشارة البعيد تنبيها إلى

علو شأن كلام الله المنزل بالآيات البينات، كما جاء في سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الكِتَابُ ﴾ هذا الذي ينزل عليك به جبريل من عند الله، كتاب مبين في آيات بينات تفرق بين الحق والباطل، والإبانة هي الكشف والإظهار، فكتاب الله وآياته البينات توضح للناس طريق الهدى الذي يوصل إلى الله، وتضع فيه المعالم والمناير وما أحوج الناس إلى ما يبين لهم ويهديهم سنن الهدى، ويهديهم الصراط المستقيم الذي يسكله عباد الرحمن، كما جاء بيان ذلك قريبا في خواتم سورة الفرقان، فما أعظم المناسبة بين السورتين ! .

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤمِنِينَ ﴾[الآية: ٣].

لعلك مهلك نفسك أي لا تهلك نفسك أسى عليهم أن لا يؤمنوا بما جئتهم به من الحق، إن عليك إلا البلاغ وهكذا يمسح الله على قلب نبيه ويسليه من همه وغمه بعد شكواه التي جاءت في السورة السابقة : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴾[الفرقان: ٣٠]، وقد غاضه - ﷺ - أن يكون قومه الأدنون يكفرون بكتاب علموا أنه الحق من عند الله وقد كان يرجو أن يكونوا أول من يؤمن به، فإذا بهم يكونون أول كافر به، فلم يؤمن به إلا ضعافهم وعبيدهم، ولا يسلم هؤلاء المؤمنين من أذاهم، ويريد الله أن يبلو بعضهم ببعض، وأن يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب، ويعذب الكافرين المكذبين عذابا أليما، هؤلاء الذين يصدون الناس عن سبيل الله ويحولون بينهم وبين الإيمان بشتى الوسائل، إن كفرهم وصدهم عن سبيل الله غير خاف على الله وهم غير معجزي الله ولا يُهلكون إلا أنفسهم . قال الله تعالى :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الآية: ٤].

إنهم لا يعجزون ربهم بل هم في قبضته ومشيئته، يقول الله تعالى : إن نشأ ننزل

عليهم من السماء آية من آياتنا الكونية تخضع لها رقابهم ، وتذل لها أعناقهم، فلا يجدون حينئذ بدا من الإيمان، ولكن لا ينفع هذا الإيمان القهري، ولأنهم بعد اقتراحهم للآيات لو لم يؤمنوا بها يهلكهم الله ولأنهم يقترحون الآيات ويقولون : ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [يونس : ٢٠ - الرعد: ٧، ٢٧] ، وذلك لأنهم كانوا يسمعون عن الرسل السابقين أنه كانت لكل واحد منهم معجزة أو معجزات من الخوارق كعصا موسى ويده ، وناقة صالح ، فطلبوا آية من هذا القبيل فأجابهم الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام:٣٧] ، لو شاء الله لنزل عليهم آية في طرفة عين، ولكن حكمته اقتضت أن يتركهم أحراراً، يتفكرون بعقولهم في معجزة القرآن الذي هو الآية العظمى، فيؤمن منه من يؤمن ويستحق ثواب الله في الجنة، ويكفر منهم من يكفر ويستحق عقاب الله في النار، وعلى الاختيار يكون الثواب والعقاب لا على الإجبار، والجبر لا يتعلق عليه جزاء ولا حكم.

فلو أن أحدا أجبر بالسيف مثلا على تطليق زوجته أو تحرير عبيده، لم تطلق عليه امرأته ولم تحرر عليه عبيده ولم يصح منه عقد حتى يكون مختاراً آمنا على نفسه، وكذلك لو أكره أحد على أن يكفر بالله فنطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فإنه لا يأثم بذلك، ولا يعتبر مرتدا، وفي مثل هذا نزل قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ اكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالايمانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[النحل:١٠٦]، وفي حكمة الاختيار . بقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[السجدة:١٣] .

واقتضت حكمة الله أن يبعث إلى الناس بشرا من جنسهم يشعرون بما يشعر به

أقوامهم، ويحسون بما يحسون به، ويبلغون لهم شرائع الله، ويقيم الله بهم الحجة على الناس، ويبينون لهم بأعمالهم وأحكامهم ما نزل إليهم من ربهم ومذهب أهل الحق أن العبد مختار، وأن أفعاله خلق من الله وللعبد حرية الاكتساب، وعلى ذلك يتوقف الثواب والعقاب فلا إجبار، ومذهب الجبرية باطل، والناس اليوم كلهم يعتقدون أن الإنسان مختار غير مجبر، حتى أصحاب الفلسفات المادية كالوجوديين والماركسيين واللينيين كلهم يقولون إن الإنسان حر مختار يفعل ما يريد، غير أنهم أفرطوا في حريتهم إفراطاً كبيراً، وتحللوا من كل دين وإفرطاهم يقابل جانبا آخر وهو جانب الجبر الذي قال به الجبرية في القديم .

ومذهب الإباضية وأهل السنة أن العبد ليس خالقا لفعله ولا مجبراً، ولكنه مختار في كسبه، يجازى على اختياره الكسبي جزاء عادلا، فلا مجال أبدا لإنكار هذه الحقيقة التي يجدها كل عاقل سليم التفكير في قرارة نفسه، هذا وقد مضى أنبياء الله ورسله ومضت معجزاتهم معهم، ولكن معجزة خاتم النبيين خالدة باقية ما بقي الزمان، فكتابه الخالد الذي ضمن الله حفظه، يحمل المعجزة الخالدة التي تقيم للناس البرهان على أنه من عند الله، وليس هو من كلام البشر ﴿ وقالُواْ لوْلاَ أُنزلَ علَيْه ءايَاتٌ مّنْ رَّبّه قُل إنما الآياتُ عنْد اللَّه وإنّما أنا نَذيرٌ مُّبينٌ او لم يكفهمُ أَنَّا أنزلْنا علَيْكَ الكتَابَ يُتْلى عليهم إنَّ في ذلك لرحْمَةً وذكْرى لقوْمٍ يُومنُون ﴾[العنبكوت : ٥٠]، فهؤلاء الذين يطلبون ويقترحون الآيات ما لهم لا يتدبرون هذا الكتاب الذي عجز الأولون والآخرون عن الإتيان بمثل سورة واحدة من سوره، وقد مضى أربعة عشر قرنا على نزوله ولم يأت الزمان بما ينقضه، بل لا تزال آياته تظهر ويرى العلماء أنها الحق والإعجاز قائم في أسلوبها وأحكامها وحكمها وتشريعها فهي على الدوام تعلو ولا تُعلى، ولا ينقضي

منها العجب، ولا تنتهي أسرارها ولا يشبع منها العلماء، ولا ينكر ذلك إلا العمي الصم الذين لا يعقلون .

وما جرى للنبي - ﷺ - من خوارق العادات، ورفعها بعض إلى ألف معجزة إنما كانت كرامات للنبي - ﷺ - وتؤيده وتقيم الحجة على الذين شاهدوها من قومه، أما آيته الخالدة ومعجزته الباقية فهي القرآن، ففيه دعوته، وفيه معجزته ،والقرآن شاهد على أن آية النبي الكبرى هي القرآن لا غيره : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الآوَّلُونَ﴾[الإسراء:٥٩]، كذبت الأمم الأولى بآيات الله فأهلكها الله، واقتضت حكمة الله أن لا يهلك هذه الأمة بعذاب يستأصلهم لأنهم آخر الأمم فلا أمة بعدهم حتى تقوم الساعة ، وآيتهم الخالدة في كتاب الله الخالد، فطوبى لمن ءامن به وعمل بما فيه، وويل لمن كذب به ولم يرفع به رأسا :

﴿وَمَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنبَاؤُاْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الارْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الآية:٥-٩] .

يبين الله تعالى لنا في هذه الآية مبلغ إعراضهم وجحودهم للحق وقساوة قلوبهم وبعدها من الرشاد وهذا شأن من طغى وأهلكه حب العلو والفساد في الأرض وطمست بصيرته الأهواء وحب الشهوات فلم يعد ينفعه التذكير والوعظ بل قلوبهم في أكنة وعلى آذانهم وقر فهم ينادون من مكان بعيد فما أشد إعراضهم عن النذر وتكذيبهم لآيات الله فهم كلما جاءهم ذكر من ربهم محدث إلا كانوا مصرين على إعراضهم ونفورهم.

﴿ وَمَا يَاتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ .

سمى الله تعالى ما ينزل من القرآن ذكرا لأنه يحدث للمؤمنين موعظة وتذكراً، ويحدث لهم علما، وسمى نفسه الرحمن في هذه الآية حتى يذكرنا أن رحمته هي التي اقتضت نزول ما نزل من الذكر لنتذكر، ونتعلم ونعمل، فتنالنا رحمته، فرحماته تنزل مع آياته البينات على الذين يتذكرون فيرحمون، إن رحمات الله مقرونة بآياته النازلات فهي تزيد الذين آمنوا إيماناً، وتقربهم من ربهم، ويتلونها فترتفع درجاتهم، ويستمعون إليها حين تتلى فيرحمون، وجعل الله نزول هذا القرآن منجما ليحدث نزوله للمؤمنين ذكراً، وليساير الأحداث فينزل لكل حادثة بحكم، ليعلّم الناس، وليثبت فؤاد النبي والمؤمنين معه، وهذا يكون أوقع في قلوبهم من نزوله جملة واحدة، بجميع المواعظ والأحكام، قال الله تعالى في هذه الموضوع : ﴿ كذلك لنُثبِّتَ به فُؤادكَ ورَتَّلْناهُ ترْتيلاً ولا يَاتُونك بمثلٍ إلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تفْسيرا ﴾[الفرقان : ٣٢-٣٣] ، وقد مر علينا معنى هذه الآية قريبا في السورة التي قبل هذه وتبين لنا هناك بعض حكم هذا الترتيل.

أما هؤلاء القوم الذين اتخذوا القرآن مهجوراً وجحدوا به، فهم عنه معرضون. وهنا يتقدم الجار والمجرور عن متعلقه ليدلنا على شدة إعراضهم ونفورهم، فهم عنه أشد منهم إعراضا عن غيره، وهذا منهم أمر عجيب فهم عن التذكرة معرضون، وقد أدركوا أنه الكلام البليغ الذي فيه حلاوة، وعليه طلاوة، والذي يعلو ولا يعلى وما هو بكلام البشر، ولكنها القساوة في قلوبهم، والكبرياء في نفوسهم، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي .قال الله تعالى :

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

حكم الله عليهم بحكمه الصارم، فإذن سينالهم جزاء تكذيبهم واستهزائهم بأنبياء الله ورسله، إنهم مكذبون جاحدون، مستهزئون بآيات الله البينات فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، والأنباء جمع نبأ والنبأ هو الخبر العظيم ذو الأهمية والشأن، إن الله يخبرنا في غير موضع من كتابه أن عاقبة المكذبين وخيمة، فهي الويل والعذاب الأليم الخالد، فالسين المقترنة بهذا الفعل للتهديد والوعيد الشديد، ولا يعلم إلا الله حقيقة هذه الأنباء وتأويلها وفي هذا الإبهام وقع هائل في القلوب الواعية، فهو يؤثر فيها ما لا يؤثره التفصيل ولكل أثره لمن أراد الله به خيراً فيتذكر ويتوب إلى ربه قبل فوات الأوان، ويصرّف الله القول في كتابه تصريفا ولا يعرض بعد هذا إلا شقي لا خير فيه، وسيعلم المستهزئون بالله وآياته ورسوله أي مصير مشئوم ينتظرهم، ويوم ينالهم فكأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، وقد نالهم شيء من ذلك يوم بدر، ويوم الخندق، وعند فتح مكة، والذي ينالهم عند ربهم في الآخرة أشد وأبقى ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ثم قال تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

أغفل هؤلاء الذين يقترحون الآيات عن آيات الله المجلوة في الأكوان أعموا فلم يروا آيات الله في أرضه وسمائه، وفي أنفسهم أفلا يبصرون، أو لم يروا إلى الأرض ونباتها الكثير المتنوع ؟ من الذي أنبته وجعله أزواجاً وأشكالاً، أليس الله هو الذي أخرج من الأرض نباتها ونماه وبارك فيه، كما أنزل من السماء ماءها وبارك فيه أغفلوا فلم

يعتبروا، هذه الأرض التي تطئونها بأقدامكم أفلم تعتبروا بآيات الله فيها، فمن شق أنهارها وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها، وجعل من ثمارها ونباتها متاعا لكم ولأنعامكم، أليس هو الله الذي ألحقتم به شركاء فأنى، تؤفكون، انظروا إلى بذرة واحدة أو حبة أو نواة نظرة اعتبار، من الذي فلقها وأخرج من نباتها خضرا يخرج منه حبا متراكبا ، انظروا إلى النخل من الذي أخرج منها طلعا نضيدا ثم نماه وجعل منه قنوانا دانية، من الذي جعل لكم جنات من أعناب ونخيل ورمان وزيتون وتين تجنون ثمارها، من الذي أخرج من الأرض كل زوج كريم أي كل صنف طيب بهيج من زهور بديعة وألوان حلوة لذيذة من الفواكه، أليس هو الله الذي وسع كل شئ رحمة وعلماً، الذي يقول للشئ كن فيكون فأنى تصرفون فما لكم عن التذكرة معرضون أليس في ذلك ما يكفى للنظر والاعتبار .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤمِنِينَ ﴾ .

يقول الله تعالى : إن في ذلك لآية كافية لمن نظر نظرة اعتبار واستعمل عقله في التفكر ، آية وأي آية من آيات الله تنطق بوجود الله، وتدل على أنه الواحد القهار القادر الفعال لما يريد الخالق الرازق الرحمن الرحيم ولكن أكثر هؤلاء يمرون عنها معرضين فلا يؤمنون :

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤمِنِينَ ﴾ .

نفى الله عن أكثرهم لا عن كلهم الإيمان لأن منهم من ينظر ويعقل ويؤمن وهم قلة وحكم الله عادل :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

تذييل بليغ في مثل هذا المقام يصف الله نفسه هنا بالعزة و الرحمة، وبتأكد

الوصف بمؤكدين ثالثهما تعريف الخبر وفيه ما فيه من تقوية المعنى ، إن الله عزيز ذو قوة مقتدر، ولا يعجزه شئ عن الانتقام لو شاء ولكن رحمته سبقت غضبه، فهو يؤخرهم ويمهلهم لعلهم يتذكرون ويوم يأتي أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون إن أجل الكافرين لآت وما هم بمعجزين، فلا يستعجلوا ربهم وما ربك بغافل عما يعملون ، وفي هذا التذييل تخويف للكافرين ، وتسلية للمؤمنين المستضعفين الذين ينالهم أذى الكفار، وتضيق صدورهم بما يفعلون، ويستبطئون انتقام الله لهم من أعدائه وأعدائهم ولتمكين هذا المعنى وذلك في قلوب هؤلاء وهؤلاء يضرب الله الأمثال بالأمم السالفة وما آلت إليه من سوء المصير بعد ظلمها وتكذيبها لأنبياء الله ورسله وكفرهم بآيات الله قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠

مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا
وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ
حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا
غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ
إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

يذكرنا ربنا تبارك وتعالى بنبأ موسى وقومه، ولا يبسط القصة كلها بل يأخذ منها موضع العبرة لقومه المكذبين من قريش، والآية مكية وقد جاء التفصيل في سور أخرى

من القرآن الكريم ولم يأت لنبي من أنبياء الله مثل ما جاء في خبر موسى وبني اسراءيل وفرعون وقومه وذلك لقرب زمانه ومكانه وللتشابه الكبير بين شريعتنا وشريعته :

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ﴾ [الآية: ١٠-١١]

أذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى أذكروا نداء الله لموسى ووحيه إليه، وتأتي الإضافة هنا في هذه السورة باسم الرب المضاف إلى كاف الخطاب، وهي إضافة تشعر بالحفاوة والتكريم، والخصوصية والاصطفاء لسيدنا محمد - ﷺ - ونحن له تبع في هذا التكريم، نادى ربك موسى بن عمران أن ايت القوم الظالمين «وأن» تفسيرية أي قال له فيما أوحى به إليه : اذهب إلى فرعون وقومه ووصفهم هنا بالظلم لأنهم لما آزروا ملكهم فرعون على ظلمه وظاهروه ، شاركوه في وصفه بالظلم، فكانوا كلهم ظالمين. وظلمهم بالشرك بالله أعظم أنواع الظلم وهو أصل الظم كله يتولد منه الطغيان والبغي وسائر أنواع الظلم وإضافتهم إلى فرعون تؤذن بذلك وقد غدت كلمة فرعون تدل على الظلم والطغيان ومن اسمه اشتقت عبارات تدل على ذلك فقيل لكل ظالم جبار متفرعن ثم قال :

﴿أَلاَ يَتَّقُونَ﴾ .

تعجب الله من حالهم وقساوة قلوبهم وغفلتهم وإعراضهم عن النذر ألا يتقون الله ربهم ألا يخشون مصارع الظالمين وما هي منهم ببعيد.

أمر الله موسى عليه السلام أن ينذرهم ويذكرهم لعلهم يتقون وما زادهم تذكير نبيهم إلا طغيانا كبيراً وازداد ظلمهم وإيذاؤهم لبني إسرائيل وقد عرف هذا موسى

منهم ولذلك أجاب ربه لما أمره بإنذارهم إجابة على الفور بقوله :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلِ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الآية:١٢-١٤] .

لم يكن هذا الجواب من موسى عليه السلام اعتراضا على أمر ربه، كلا ولن يصدر هذا من نبي من أنبياء الله وما ينبغي له وقد يظن هذا بعض الجاهلين وهو ظن باطل، إنما كان موسى يبث شكواه إلى ربه من بعض أمور ربما تكون له عائقا عن تبليغ رسالته ونجاح دعوته فهو يخاف أن يفرط عليه عدو الله فرعون ويقتله قبل أن يبلغ دعوة ربه ورسالته ،لاسيما وللأقباط عليه ثأر في الرجل الذي قتله من قبل، فخاف أن يقتلوه به بعد أن يكذبوه فتموت دعوته معه ويذهب قبل أن يبلغ رسالة ربه، فرغب إلى الله أن يرسل إلى هرون أخيه ليكون له وزيراً ومعه نذيرا ويخلفه في تبليغ الرسالة إن هم عجلوا عليه وقتلوه، هذه كانت هواجس موسى وهي معقولة ولم يضعف موسى ولم يجبن وما أبعده عن ذلك وهو الشجاع القوي الأمين المتوكل على ربه وما كان الله ليختار نبيا ضعيفا أو جبانا والله أعلم حيث يجعل رسالاته، لقد سمع الله نجوى عبده موسى واستجاب دعوته، وحل عقدة لسانه التي يخاف منها ضيق صدره وعجزه عن التعبير بمقصوده وأرسل إلى أخيه هرون، وجعله معه وزيرا وطمأنهما وقال لهما لا تخافا إنا معكم مستمعون ومن كان في معية الله لا يذل ولا يخزى:

﴿قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الآية:١٥-١٧] .

قال الله لعبده موسى : كلا لن يقتلون فلا تخف أنت ولا أخوك، فاذهبا إلى فرعون

بآياتنا البينات إنا معكم مستمعون، وجاء في موضع آخر من القرآن : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه : ٤٦]، والاستماع هنا والرؤية هناك عبارة عن شدة العناية والحفظ لهما، فقولا لفرعون وقومه إنا رسول رب العلمين لما كانت الرسالة و احدة والرب واحد فكأنهما رسول واحد يبلغ رسالة رب العلمين، رب موسى وهرون وفرعون والناس أجمعين رب الجن والإنس وسائر العالمين :

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾ .

إنا أرسلنا إليك من رب العلمين، ندعوك بدعاية الإسلام وأن ترسل معنا بني إسرائيل أحراراً وكفى باستعبادهم وإذلالهم فماذا كان جواب فرعون الطاغية بعد هذا الكلام الموجز المفهوم المعقول ؟.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الآية:١٨-١٩].

أجاب فرعون موسى في صلف وكبرياء، وقد غاظته دعوته إلى رب العلمين، وهو يدعي الربوبية ،قال ألم نربك فينا وليدا في حجرنا، وفي نعمتنا ولبثت فينا من عمرك سنين وأنت تنقلب في إنعامنا وإحساننا، أنسيت كل هذا وجئت تجابهنا بهذا الكفران، ثم إنك فعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين أي من الجاحدين لإحساننا، والفعلة هذه هي قتله القبطي دفاعا عن أحد من بني إسرائيل، فذكر له فرعون هنا هذه الفعلة لما جاءه بهذه الدعوة التي غيظته وقد مرت عليها سنون طويلة، ويبدو أنها تنوسيت لولا هذا الموقف من موسى وقد توقعها موسى من قبل وخاف أن يقتلوه بها ولكن الله أمنه فلم يزيدوا على ذكرها وإنما شغلهم عنها ما هو أعظم وهو دعاء موسى

لهم إلى رب العالمين وإفراده بالعبادة، وإرسال بني إسرائيل وما تلى ذلك مما بهرهم من الآيات فشغلهم التفكر في معارضتها، والسعي في تنفيذ خطتهم لعلهم يغلبون، أجاب موسى عليه السلام فرعون:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٢٠-٢١].

قال موسى لفرعون: فعلتها إذن وأنا من الضالين، إنما كنت ضالاً مخطئاً في قتلي الرجل وما قصدت قتله، وما قتله بمحدد ولا بآلة إنما وكزه بمجمع اصابعه في حالة غضب، وكان مدافعا عن الإسرائيلي المستغيث، فكان في ذلك حتفه فلما بلغه أن ملأ فرعون يأتمرون على قتله فر هاربا منهم فكان من ذلك الفرار طريق إلى اجتباء الله إياه واصطفائه له بالرسالة والوحي.

قال عليه السلام:

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فررت من بلادكم خائفا فآواني ربي ووهب لي حكما وجعلني رسولا من المرسلين، وأرسلني إليكم لأدعوكم إلى دينه وفيه نجاتكم لو تعقلون، وكان موسى من قبل يتفكر في تخليص بني إسرائيل من ظلم فرعون وقومه وما يدري كيف يصنع حتى قدر الله هذا الفرار فكان طريقا إلى نجاتهم من سوء العذاب بعد صبر طويل وإذا أراد الله شيئا هيأ له الأسباب ثم إن موسى خاطب فرعون بخطاب فيه نوع من التعزز والصرامة فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَاءِيلَ﴾ [الآية: ٢٢].

أي أتجعل تربيتك لي نعمة تمن بها عليّ أتجعل استعبادك لبني إسرائيل وتقتيلك

لأبنائهم نعمة تمن بها علينا، ومتى استقام هذا في ميزان العقل وما تربيتك لي إلا نوعا من القهر والاستعباد لقد كنت تأمر بقتلي لولا لطف الله بي، ولقد لاقت أمي من ذلك بلاء مبينا، ولطف الله بها فردني إليها وحرم عليّ المراضع وما كنت في هذا إلا منفذا لقدر الله ولو كنت تعلم ما يراد بك من ذلك ما فعلت فلا تمنن عليّ الآن واستمع لما أدعوك إليه، ويبدو أن فرعون راجع فكره فيما دعاه إليه موسى من عبادة رب العالمين، وأخذته العزة فألقى إليه هذا السؤال في عناد وكبرياء :

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُوقِنِينَ﴾ [الآية:٢٣-٢٤].

قال فرعون الذي يزعم أنه إله : وما رب العلمين ؟ لم يسأل بمن التي هي لتمييز العقلاء، بل أغرق في الإنكار وتجاهل أن يكون هناك رب غيره، فسأل بما التي هي للسؤال عن حقيقة الشئ المزعوم أو المجهول وهذا منه غاية المكر والكفر والجحود، أي ما هذا الذي تقوله يا موسى، وما هذا الذي تزعمه أجاب موسى إجابة المعتقد المتأكد بحقيقة ما يقول ويدعو إليه :

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُوقِنِينَ﴾ .

ألْهم الله عبده موسى أن يجيب بالجواب الصحيح الذي يدحض حجة كل معارض فإذا بها تتهاوى بطلانا وتتلاشى قال رب السموات والارض وما بينهما ورب كل شيء، فلا مكان لربوبية فرعون المزعومة وما ملك مصر وأنهارها إلا جزء قليل من هذه الأرض العريضة التي هي ومن فيها وما فيها ملك لله رب العالمين الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما، ثم عقب موسى جوابه بقوله :

﴿إن كُنتُم مُوقِنِينَ﴾ .

لقد أدركتم ما أقوله لكم وعرفتم صوابه إن رجعتم إلى عقولكم، فإن رب العالمين تدرك معرفته بالنظر إلى مخلوقاته التي هي السموات والارض وما بينهما، ولا تدرك حقيقة ذاته بالسؤال، ولا بغير السؤال لأنه لا يرى فهو الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ويعرفه خلقه بالرجوع إلى فطرتهم والتأمل في مخلوقاته :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

فلا ينكره إلا جاحد، ولا يجادل فيه إلا معاند طبع الله على قلبه : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:٣٥] ، وهل قبل عدو الله هذا الكلام الواضح البيّن ؟ لقد حجبت قلبه ظلمات الكبرياء فازداد عتواً ونفوراً.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ [الآية:٢٥].

لما بهت فرعون وأفلس من الحجة لجأ إلى هذه العبارة الفارغة التي ليس فيها إلا التعجب، وحمل قومه على هذا التعجب المزعوم، فهو لا يستطيع أن يدعي ملك السموات والارض وما بينهما ولاشيء من ذلك يملكه مطلقا، وإن كان يدعي ملك أرض مصر وربوبية سكانها ادعاء لاسلطان عليه، وهكذا يفعل الجبارون إذا أعيتهم الحجة. وهم على مشهد من أقوامهم يتشبتون بأمثال هذه الأساليب خوفا من الافتضاح ، ولا يسلمون للحق ولا ينصفون ولو فعلوا ذلك لكان أصون لكرامتهم وأرفع لأقدارهم وأسلم لهم عاقبة في الدنيا والآخرة، ولكن كبر صدورهم يمنعهم من الإيمان والتسليم : ﴿ إن فِي صُدُورِهِمُ إلاَّ كِبْرٌ مَّاهُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾[غافر: ٥٦]، فنعوذ بالله من كبر الصدور

وأهواء النفوس ، أيّ فائدة تفيد هذه الكلمة التي جابه بها الحق واستخف به قومه على إنكار الحق الساطع من كلام نبي الله موسى، فتباً له ولهم من أذلاء طمس قلوبهم الاستخذاء والذل وأعماهم الهوى عن التصريح بالحق، وقد يدركون في قرارات نفوسهم أن ربهم رب السموات والأرض وما بينهما، ولكن بصيص هذا الإدارك يختفي وراء ركام من الأهواء والشهوات والتقليد، ولما بلغوا إلى هذا الحد من الإنكار أجابهم موسى بجواب آخر فيه حقيقة أخرى لا يستطيعون إنكارها البتة :

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾[الآية:٢٦].

ذكر لهم أولاً أن إلاههم الحق هو رب السموات والأرض وما بينهما ثم وجه إليهم إضافة ربوبيته إليهم على الخصوص، ولا مناص لهم من الاعتراف بهذه الحقيقة الجلية، وفي هذا الجواب تعريض بفرعون بذكر آبائه الذي فنوا وماتوا، ولولا موتهم ما آل إليه الملك ولا يستطيع أن ينكر هذا وسيموت كما ماتوا ويفنى كما فنوا فأين الربوبية المدعاة وأنى يكون إلها من يموت ويفنى .

يقول لهم موسى : « رب العالمين هو ربكم ورب آبائكم الأولين فاستمعوا أو لا تستمعوا وهنا يلجّ فرعون في كبره وعتوه، فينطق بالعبارة السخيفة موجها كلامه إلى قومه الذين جعلوا عقولهم وقلوبهم ملكا لجبارهم ،وما هي إلا ملك لخالقها، وإلى هذا الحد يبلغ الذل بالنفوس المتلوثة بالشرك والإجرام، وصدق الله العظيم : ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، لقد لج فرعون في عتوه وبلغ من الطغيان والتمرد مبلغا عظيما :

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الآية:٢٧].

وجه خطابه إلى قومه المخذولين واستنكف أن يكون من جملة المخاطبين لموسى وهو المقصود به أولا، وإليه وجهت الرسالة وهو لون من أعجب ألوان الكبرياء: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لقد أكد حكمه على رسول الله موسى بالجنون بكل المؤكدات التي يعرفها وأضافه إلى قومه مرتين وما سماه الرسول إلا تهكما واستهزاء وهذا التعبير يعكس كل ألوان الكبر والإعراض التي في نفس هذا الكافر المتكبر الجبار، وهو في نفس الوقت يدل على منتهى عجزه عن معارضة الحق، وإفلاسه المطلق من الحجة وهي عبارة ترد كثيرا في القرآن تصدر من أعداء الله وصفا لرسله لتنفير الناس منهم، ولا تنطلي إلا على من أذلهم الله وأخزاهم من أقوامهم الذين جعلوا عقولهم في قبضة ساداتهم وكبرائهم، وهذا كفر لنعمة العقل سينالهم عقابه عند الله وسيندمون عليه ويتحسرون يوم القيامة ولات مندم.

وفي هذا الجو من الإنكار والإعراض المتزايد ينطلق نبي الله موسى بحجة أخرى يدمغهم بها ويجعلها جوابا لكلام فرعون:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الآية:٢٨].

ألزمهم الحجة البالغة فقال رب المشرق والمغرب وما بينهما، فانظروا إلى مشارق النجوم والكواكب ومغربها وانظروا إلى ما بينهما من مسار الشمس والقمر والنجوم في فضاء الله العريض، وانظروا إلى مطالع السحب ونزول الأمطار ومهاب الرياح، وانظروا إلى تعاقب الليل والنهار الذيْن لا يخرج منهما أحد من دواب هذه الأرض وطيورها، أليس كل هذا ملكا لله أفلا تعقلون، ما أحراكم أنتم بوصف الجنون ا لذي ترمون به من جاءكم بالحق وسلطان مبين وهل تستطيع يا فرعون الذي يدعي الألوهية

أن تأتي بالشمس من المغرب أو تذهب بها في المشرق واختار موسى هذه العبارة :

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

وهي عبارة أدل على انفلات العقل منهم ،وخروجهم في جدالهم عن حد المنطق والفهم السليم حين وصفوا عين الصواب بالجنون .

وهنا يستشيط الجبار غضبا وينفد صبره على سماع كلام موسى وهو الحق ولكنه يأباه ويأنف من سماعه ، فيلتجئ إلى أسلوب القوة ، وهو ما بقي في يده ليعارض بها الحق ، وقد مكنه الله بها ليفتنه بها ولو شاء لانتصر منه ولكن ليبلو بعض عباده ببعض فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو الفعال لما يريد .

لقد كان جواب فرعون وقد أعيته الحجة التهديد لموسى بالسجن وما فيه من الإهانة والتعذيب والأذى :

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَاهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[الآية : ٢٩] .

هذا شأن الطغاة الجبابرة يلجأون إلى القوة والتهديد حين يفلسون من الحجة فنرى فرعون يهدد موسى بالسجن إذا هو عبد إلها غيره ،وما أجرأه على الله ، وقاتله الله ، ما أكفره وهو يعلم أن الله الذي خلقه وخلق السموات و الأرض وما بينهما أحق بأن يوحد بالعبادة ولكنه الكفر والطغيان : ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَاهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقل لأسجننك وهذا ليتصور موسى حالة المسجونين في سجون فرعون وما يلقونه من التعذيب والتنكيل والتقتيل فيرهب من مخالفته وما يدري المغرور أن موسى آمنه الله حين أرسله ، وقال له ولأخيه : ﴿لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه : ٤٦] ، لقد كان نبي الله موسى عليه السلام يتكلم ويحاور فرعون في

تعقل ورباطة جأش ولم يكن تهديد فرعون يثنيه عن بيان الحق والصدع بما يؤمر فأجاب فرعون حين هدده بالسجن :

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ٣٠] .

أي أتسجنني ولو جئتك بمعجزة بينة ولما سمع فرعون هذا الكلام تطلعت نفسه إلى معرفة هذه الآية وكان المنتظر منه وهو في حالته المتوترة أن يأمر بسجنه، ولا يستمع لكلامه ولكنها النفس البشرية التواقة إلى حب الاطلاع والمعرفة ولذلك عدل عن التهديد وأذعنت نفسه العتية لسلطان العلم :

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الآية: ٣١] .

قال فرعون لموسى في لهجة الاستعلاء والتكذيب فأت بما تدعيه إن كنت صادقا. وقد بدا لفرعون حينئذ أن موسى مدع فيما يزعمه من الإتيان بالشئ المبين، وإنه لن يفعل ولكنه الطغيان والجبروت يصلان بالإنسان إلى أبعد حدود السفاهة ،فما لبث موسى أن أجاب فرعون بما يراه هو وقومه ولا يستطيعون له دفعا :

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الآية: ٣٢-٣٣] .

معجزتان وآيتان بينتان من آيات الله، أيد الله بهما عبديه موسى وهرون، تكفي الواحدة منها لرد الشرود إلى صراط الله والاعتراف بالحق، لولا كبرياء فرعون وتمرده هو وقومه، وكذلك يقيم الله حججه البالغات على الناس ليهلك من هلك عن بينة. ويحيا من حيي عن بينة ولئلا يكون للناس حجة بعد الرسل .

ما هو إلا أن ألقى موسى عصاه فإذا هي تنقلب ثعبانا مبينا يتقلب، وما هو إلا أن يمد

يده إليها فإذا هي تعود إلى حالتها الأولى عصا عادية لا فرق بينها وبين عِصيِّ الناس. وما هو إلا أن يدخل يده في جيب ثوبه ويخرجها فإذا هي بيضاء تشع نوراً للناظرين. ثم يعيدها مرة أخرى في جيبه فإذا هي يد سمراء عادية كأيد الناس، ومن ذا الذي يفعل هذا أو يستطيعه من الناس، لكن الله يفعل ما يريد وأمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

ذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ،ولكن الطغيان والكبر يسدل الحجب الكثيفة على القلوب المتكبرة، فإذا هي عمياء لا تبصر الحق ولا تريده ونعوذ بالله من الطبع على القلوب .

﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[الآية: ٣٤-٣٥] .

يجئ خطاب فرعون دائما موجها إلى ملائه، وتكون إضافة الأرض هنا إليهم حتى يستجيشهم ويثير مكامن الحمية والغيرة من قلوبهم، وحب الوطن أمر فطري في النفوس وكم للزعماء والكبراء من أمثال هذه الأساليب من الكلام يخدعون بها أقوامهم ويصرفونهم عن الحق الذي يصدع به الدعاة المخلصون فإذا بهم في نظرهم الزايغ هم المصلحون وإذا بالدعاة هم الأدعياء المفسدون وهذا من مكر أعداء الله : ﴿ وإن كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ ﴾[إبراهيم: ٤٦] .

وطبائع العلو والاستبداد متشابهة في كل زمان ومكان قال فرعون للملأ المحتفين به الجالسين حوله إن هذا الرجل لساحر عليم، وصفه بالسحر والتمكن فيه والعلم به وأكد وصفه بمؤكدين حتى يثبت بهما دعواه الباطلة ويزيل ما يكون عالقا بنفوس قومه من

الحيرة في أمر هاتين الآيتين العظيمتين ثم تظاهر بالغيرة عليهم فقال يريد بعمله هذا أن يخرجكم من أرضكم، وقد أنطقه الله بالحقيقة فيكون الخروج من أرضهم عقوبة لهم على كفرانهم وطغيانهم وعصيانهم لرسل الله، ولو آمنوا بالله ورسله لزادهم الله تمكينا في الأرض وعزاً، أضاف إليهم الأمر ليراجعوا أنفسهم الملوثة بالكفر والذل وعبادة غير الله فيتشبتوا بكفرهم وضلالهم وكذلك يفعل الظالمون ثم بعد هذا فوض إليهم الأمر ليحكموا حكمهم في هذا الرجل بعد أن اطمأن إلى خنوعهم له وذوبان ذواتهم في طغيانه وجبروته فهم لا يحكمون إلا بما يرضيه وقد ظهر بهذا التفويض في مظهر أكبر ديموقراطي في العالم، وهذا من مكر الظالمين المستبدين وتلبيسهم على الضعفاء من الناس الذين مسخهم الذل والاستخذاء إلى أشباه ناس وليسوا بناس ولكنهم كالأنعام بل أضل سبيلاً .

لقد قرروا بإجماع وأغلبية ساحقة أنه ساحر وليس بنبي، فسيرجئون أمره هو وأخاه ويحشرون له المهرة من السحرة حتى تكون لهم الغلبة عليه، ويفتضح أمره فيتخلصون من دعوته هذه.

﴿قَالُواْ أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[الآية: ٣٦-٣٧] .

فكروا في الموضوع ثم أصدروا فيه قراراً وجهوا أمر تنفيذه إلى ملكهم الديموقراطي، الذي سيقوم بتنفيذ أمر أصدره الشعب المخلص فهو لا يستبد بالأمر إنما يجعل الأمر شورى بين أعضاء مجلس البرلمان، ثم يكون له أمر التنفيذ لا غير، وهكذا ينتهي أمر الاستبداد والجبروت إلى مكر خفي عجيب، وهو المكر الكبار الذي ليس وراءه مكر يعرفه البشر ولكن مكر الله رب العالمين أشد وأنكى، وهو الذي بيده الأمر.

وهو على كل شيء قدير قالوا أنظره وأخاه واضرب لهما موعدا وابعث في مدائن مصر ناسا يحشرون كل سحار عليم بفنون السحر حتى ننظر لمن تكون الغلبة والعلو .

يقولون هذا الكلام وهم واثقون بالنصر ، ولم يعد لهم شك في ظهور كثرتهم على الرجل الفرد الذي لا يقف إلى جنبه إلا رجل واحد هو أخوه ،وما علموا أن الله معهما ، ومن كان الله معه فهو الغالب العزيز المنتصر . ومهما يكن فإن قرارهم هذا يدل على نوع من النضوج والتعقل، ولو شاءوا لأمروه بقتله وأخيه، وفي مثل هذا الموقف تنقل لنا كتب السيرة كلام البثجاء - رضي الله عنها - حين قبض عليها الحجاج فقال لمن معه من بطانته ماذا ترون ؟ فقالوا أقتلها فضحكت، وقالت إن ملأ فرعون خير من وزرائك؛ قالوا أرجه وأخاه ولم يأمروه بقتلهما ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ
وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟
هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا
إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ
وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ

أَن ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا
خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أمر فرعون بجمع السحرة الماهرين فأرسل في مدائن مصر الكثيرة ويقال كانت ألف مدينة واثنتي عشر ألف قرية وكان فن السحر يومئذ بارعاً ومنتشراً في بلاد مصر وكذلك يريد الله أن يقهرهم بآيته العظمى في العلم الذي برعوا فيه، حتى تظهر معجزة الله وتقوم الحجة على العباد .

لقد جعلوا موعد ملاقاتهم يوم عيد من أعيادهم، يسمى يوم الزينة، وأن يكون اجتماع الناس ضحى ليظهر الأمر جلياً لكل الناس، ويبدوا أنهم جعلوا مدة كافية لجمع السحرة والناس حتى يتصل الخبر بأقصى بلاد المملكة، وفي ذلك ربح للوقت، وقد شاع أمر موسى وهرون فكان موضوع أحاديث الناس .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الآية :٣٨-٤٠] .

جمع السحرة للموعد المعلوم واستجابوا لرسل فرعون وقد كان هؤلاء أيضا يحرضون الناس على الحضور في هذا الميقات الذي ستجرى فيه أكبر مباراة في تاريخ مصر، وسيكون يوم له ما بعده .

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلَ اَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ .

أي اجتمعوا واستجيبوا لداعي الملك، فهي أوامر وتحريضات توجه من طرف الحاشرين لشعب مصر لمليكه فرعون الذي أراد أن يقهر موسى وهرون بغلبة الساحرين عليهم، في يوم مشهود ولكن إرادة الله فوق إرادة فرعون، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

لقد شاع الأمر في الناس على النحو الذي يريده فرعون فتحمسوا، وتنادوا للحضور في اليوم المعلوم ليتغلبوا، أو ليشهدوا تغلب السحرة على هذا الرجل الذي يريد أن يخرجهم من أرضهم، وهكذا أذيع الأمر في الناس، والناس على دين ملوكهم، فلابد إذن لاستجابة منادي الملك طوعاً أو كرهاً، ومن لا يستجب يتهم في ولائه لفرعون، والجبابرة يسجنون ويقتلون بالظنة فتنادى الناس للحضور، وأكره السحرة على الاستجابة كلهم لا يشذ منهم واحد، ولا عذر في التخلف مطلقا، وللمفسرين في هذا الموضوع نكتة عجيبة تفطنوا إليها وذلك أنهم قالوا إن الله تعالى لطيف لما يشاء، فقد سخر الله تعالى عدوه فرعون ليجمع الناس من أطراف مملكته ليستمعوا من موسى رسول الله، ويشهدوا آية الله البينة، وتقوم حجة الله على خلقه، ولولا قدر الله المقدور فمن ذا الذي يجمع الناس من بلاد مصر المتنائية، وما يبلغ جهد موسى وهرون من ذلك، وجهد الفرد محدود، وكذلك يسخر الله أعداءه لما يريده من تحقيق دعوته، وتبليغ رسالته ولله الحجة البالغة.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ [الآية: ٤١-٤٢] .

جاء السحرة من كل بلاد مصر مستجيبين لنداء ملكهم طوعاً وكرهاً، ولما مثلوا

عنده استوثقوا لأنفسهم ، واشترطوا نصيبا من دنياه يكون أجراً لهم، وقد علموا أنهم ينالون من ذلك ما يشترطون، فهم عدته في شدته، وهم في هذا المقام أفضل جنوده. فسيكونون ظهيراً لفرعون إن هم نصحوا وأظهروا الغلبة على خصمهم ،ولذلك طمأنهم ووعدهم بما طلبوا، وأكثر من ذلك فسيكونون إذا غلبوا من المقربين لفرعون وسيخلع عليهم ثوب الرضا.

﴿قَالَ نَعَمْ﴾.

أي لكم ما سألتم.

﴿وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

ثم أكد لهم وعده بأنه سيقربهم إليه، ويكونون من الخاصة الذين تقبل وفادتهم. ولا ترد شفاعتهم ، وكذلك يطأطئ الجبارون من كبريائهم لبعض رعاياهم إن هم شعروا بالخطر المحدق، ورجوا في هؤلاء نصرة ونفعا، وحينئذ يتعزز هؤلاء المرجوُّ نفعهم على مليكهم وتنخفض مهابته في نفوسهم فيتجاسرون عليه فيشترطون عليه شروطا يكون لهم فيها نصيب وافر مما في يديه من الدنيا، ويسخر هذا الجبار على هؤلاء المتعززين المشترطين إذ يرى فيهم الملجأ والنصير.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[الآية:٤٣-٤٤].

كان هناك تفاوض بين السحرة وموسى ويبين لنا القرآن في غير موضع أنهم هم الذين بدأوا بمفاوضة موسى، وتخييره في أن يبدأ هو بالإلقاء أو يبدأوا هم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اعتدادهم بما أعدوه من السحر العظيم كما وصفه الله ولكنه

سحر على كل حال وليس بحقيقة وقد كان موسى عليه السلام أعظم اعتدادا بنصر ربه من السحرة بسحرهم ولذا قال لهم ألقوا ما أنتم ملقون أي هاتوا ما أعددتموه من السحر ولا تتركوا شيئا من ذلك لقد كانت ساحة الإلقاء واسعة ، قيل ميلاً في ميل ، ولا يُستبعد ذلك ، وربما تكون أوسع لكثرة السحرة وتجمهر الناس .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

لقد أعد السحرة لهذه المبارة حبالاً وعصياً ، ذلك لأنه قيل لهم إن آية موسى هي العصا يلقيها فتنقلب حية تسعى ، فأعدوا من سحرهم ما يشاكل ما جاء به ، وقد كانوا واثقين من النصر والغلبة لأنهم جاءوا بالآف العصي والحبال ، وعصا موسى واحدة فما عساها تفعل في هذه الكثرة الكاثرة ، وما دروا أن قدرة الله فوق كل شيء وإذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، أقسم السحرة بعزة فرعون لأنه معبودهم أنهم هم الغالبون ، وذلك حين ألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين الناس فرأوها حيات وثعابين تتلوى تملأ الوادي وتدهش الرائين ، فأعجبوا حينئذ بسحرهم ، وأقسموا بعزة معبودهم أنهم هم الغالبون ، وما دروا ما خبأ لهم القدر فما هو إلا أن ألقى موسى عصاه كما أمره الله ، فإذا هي ثعبان عظيم ، يتلقف ما يأفكون من السحر ويبطله .

ألقى موسى عصاه فإذا تبتلع كل ما في الساحة من عصي السحرة وحبالهم ،ولا تذر منها شيئا ، ولقد أندهش الناس وانزعجوا لهذا المنظر الهائل ، فتقهقروا مدبرين خائفين ، وسقط بعضهم على بعض ، حتى قيل أنه مات منهم يومئذ خمسة وعشرون ألفا ، ولا يستبعد ذلك ، ونحن نرى الموت في ازدحام الجمرات في الحج ، فكيف إذا وقع ازدحام الناس من شدة الخوف ، وربما يموت منهم عدد بالروع والفزع .

يا لها من ساعة هائلة ظهرت فيها آية الله العظمى في عصا موسى، ثم بعد كل هذا يمد إليها يده غير خائف ولا وجل فإذا هي عصا تعود بقدرة الله سيرتها الأولى، كل هذا في لحظات وما أن شاهد السحرة هذا المنظر العجيب الرهيب حتى أدركوا أنه الحق من عند الله، فخروا له ساجدين مؤمنين برب موسى وهرون .

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[الآية: ٤٦-٤٨] .

أدركت رحمة الله قلوب السحرة لما سبق في علم الله من إسعادهم، نسأل الله حسن الخواتم وسوابق الخير من رب العالمين .

لقد أدركوا إدراكاً حقيقياً أن الذي بيد موسى ليس بسحر ساحر، إنما هو معجزة من رب العلمين وآية من آياته العظمى فخروا لله ساجدين كلهم، ولم يجدوا بدا من الاعتراف والإيمان والسجود، وكذلك يهدي الله لنوره من يشاء ويجتبي إليه من يريد .

تضاءل حينئذ في أعينهم كل سلطان غير سلطان الله القوي القاهر فوق عباده فسجدوا له معترفين له بحقيقة الربوبية ووحدانية الألوهية .

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ .

صرحوا بإيمانهم بالله ،ولم يرهبوا فرعون لأنهم علموا أن لا سلطان لفرعون مع سلطان الله، وأن لا إله إلا الله، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون الذي نصرهما وبعثهما بالهدى ودين الحق وهو رب موسى ورب فرعون ولكن تأييده لموسى وهارون وتغليبه لهما جعل هذه الإضافة تخصهما بعد عمومها فهي إضافة حفاوة ومعية وتكريم .

كانت هذه انطلاقة السحرة من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ولكن فرعون لم يرضى هذا الإيمان الذي لم يأذن به لهم، وكأن قلوب الناس ملك له تابعة لسلطانه .

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ اٰذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الآية: ٤٩] .

لقد أملى جبروته وكبرياؤه هذا القرار الحاسم الذي لم يستشر فيه ملأه هذه المرة ، لأن الأمر أعجل من ذلك أصدر قراراً قاسياً وحاسماً على السحرة الذين بادروا بالإيمان برب موسى، حتى يجعلهم عبرة لمن تحدثه نفسه بتصديق موسى لما ظهرت على يده هذه الآية الباهرة البينة وقد توجس في نفسه الخبيثة ما سيحدث في قلوب ملائه والناس من حيرة، فبادر بهذه الكلمات القاسية التي عبر فيها عن منتهى غضبه وأقصى جبروته حتى يفتن قومه ويصدهم عن سبيل الله، وليتهم آمنوا في هذه الساعة إذن لنفعهم إيمانهم لا كإيمانهم في قاع البحر لما أدركهم الغرق وفي كلا الحالين تظهر آيات الله ولكن شتان بين الساعتين ساعة يتحقق فيها الهلاك فلا ينفع فيها الإيمان وساعة ترجى فيها الحياة فينفع نفسها إيمانها كما نفع السحرة إيمانهم لما أبصروا الحق وظهر أمر الله.

لقد كان السحرة هم العلماء والكهان أرباب المعابد يتبعهم الناس، وسيكون إيمانهم مدعاة لإيمان الناس ، لذلك بادر فرعون بهذا التهديد الشديد، حين أدرك خطر إيمانهم فشعر بزلزلة عرشه، فشده بالظلم والجبروت وكذلك يفعل الجبارون ويمهلهم الله إلى حين لتقوم حجة الله عليهم وعلى أقوامهم .

لقد كانت آية الله كبيرة وكبيرة، ولكن طبع الله على قلب فرعون بكبريائه وآثامه فلم يبصر الحق، وكذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار .

قال للسحرة الذين آمنوا بالله رب موسى وهرون ورب العالمين .

﴿ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ اذَنَ لَكُمْ﴾ .

أي أسلمتم له وآمنتم قبل أن تستأذنوني ، وقد ظن المغرور أنه يملك قلوب الناس كما ملكه الله أجسامهم ، وأنى له ذلك وكذلك يظن الجبارون في كل زمان أنهم يملكون عواطف الناس وأفكارهم فيبثون في الناس جواسيسهم ويعاقبونهم على أفكارهم وعواطفهم ، وهذا ظلم مبين .

وهل يتوقف الأمر على إذنك يا عدو الله ؟ أتستعبد قلوب الناس كما استعبدت أبدانهم ؟ إنك لا تملك أن تحول بينهم وبين الإيمان الذي هداهم الله إليه ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، إنهم عباد الله لا عبادك يا عدو الله ، ولن تملك من أمر قلوبهم شيئا ثم قال الجبار للسحرة المؤمنين .

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ .

أي إنه معلمكم الذي علمكم السحر وأنتم تلاميذه ، قال ذلك لما بهرته معجزة العصا ، وقد علم أنها شيء فوق السحر ولكنه خاف على زوال ملكه فقالها ليلبس على قومه ، ويضمن بقاءهم على الكفر فلا ينجروا مع السحرة ، وإلا فمتى كان موسى معلم السحرة ، وقد خرج من مصر صغيرا وها هو الآن يجمع بهم ، ويحذرهم من السحر والافتراء ويخوفهم من عذاب الله .

أليس هو الذي كان يقول لهم قبل إلقائهم حبالهم وعصيهم : ﴿وَيْلَكُمْ لا تفتروا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيَسْحَتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾[طه : ٦١] ، ولكنه مكر فرعون وكيده وما كيد فرعون إلا في تباب ، ثم استمر عدو الله يتوعد السحرة

ويهـددهم بالنكـال والقتـل إن هم اسـتـمـروا على إيمانهـم هذا ولـم يرجـعـوا إلـى عـبـادته فقال:

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

هكذا يهـددهم بأفظع أنـواع النكـال الذي عـرفـته الجـبـابرة وهو القـتل صـبـرا بطـريقـة التـمـثيـل ، يـهـددهـم أولاً طـمـعـاً في تـراجـعـهـم ، فـإن لـم يفـعلـوا أنـزل عليـهـم هـذا النكـال لـيـجعلهم عـبرة للنـاس حتى لا تحدث أحداً نفـسه بالإيمان بـرب مـوسـى وهـرون ، وقد فـعل الملعـون ذلك فـنفـذ تـهـديده وفـعله فـأمـر بتـقـطيـع أيديهـم وأرجلهـم من خلاف ثـم بتـصـليـبـهم حـتـى مـاتـوا كـلـهم ،وهـذا كـل مـا يملك من أمـر الحـيـاة الدنيـا في إنـزال العـذاب على أجسـادهم ،وهكذا قدر الله عليهم هذه الميتة لينالوا بهـا رفيـع الدرجات عنـد ربـهم رضي الله عنهم أجمعين .

﴿قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الآية: ٥٠-٥١] .

ربط الله على قلوب أوليـائه المؤمنين فلم يضعـفوا ، ولـم يسـتكـينوا ولـم يثنهـم تـهـديد فرعـون عن إيمانهم بل ازدادوا تمسكاً به ورسوخاً فيه ، ووطنوا أنفسـهم على الصـبر على الأذى .

﴿قَالُواْ لاَ ضَيْرَ﴾ .

أي لا يـضيـرنـا تـهـديدك ،ولا يحوّلنا عما هدانا الله إليـه من الإسلام .

﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ .

إنا إلى الله ربنا راغبون وإليه صائرون ومنقلبون، فكأنهم تنسموا ريح الجنة من وراء هذا القتل فازدادوا شوقاً إليها وعلموا أنهم قادمون على رب جليل يعطي الكثير، ويعفو عن التقصير، ويقبل اليسير، فطمعوا في مغفرته الواسعة وثوابه الجزيل فقالوا :

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

لقد قذف الله نور الهدى والإيمان في قلوب هؤلاء السحرة فإذا بهم يعرضون عن الدنيا، وخيرها وشرها إعراضاً كلياً، ويحتقرون فرعون وتعذيبه ويقبلون على ربهم الذي هداهم بقلوب مؤمنة مخلصة في إيمانهم ويرغبون إليه أن يغفر ذنوبهم أن كانوا أول المؤمنين، فهم يتوسلون بإيمانهم هذا إلى الله ونعم الوسيلة ويطمعون منه أن يغفر لهم خطاياهم حين كانوا يشركون بالله، ويؤلهون فرعون، ويتعاطون السحر وهي ذنوب عظيمة وخطايا كثيرة ولكن عفو الله أعظم منه ومغفرة الله أوسع من ذنوبهم والإسلام جب لما قبله وفي موقفهم هذا عبرة عظيمة للمعتبرين وكذلك ينزل القرآن بمكة يقص الله فيه على عباده المؤمنين أحسن القصص ليثبت به قلوب المؤمنين، وما أحوجهم إلى أمثال هذه القصص وهم يُستضعفون، ويتلقون أنواع الأذى من أعداء الله المشركين، وستبقى هذه القصص ما بقي القرآن عبرة لأولى الألباب.

أما موقف السحرة فهو موقف عجيب فيه آيات للسائلين، فلنتفكر كيف غسل الله قلوبهم من أدران الشرك وملأها بنور الإيمان في ساعة واحدة، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان وتلك نعمة الله الكبرى على عباده المؤمنين ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾[النساء:٦٩]، وآمن بموسى وهرون قومهما بنور إسرائيل حين شاهدوا آية الله فلقوا من فرعون وقومه أذى كثيراً في سنوات طويلة، وصبروا على ذلك ونبي الله موسى يصبرهم ويربط على قلوبهم بكلمات الله ويؤملهم في فرج الله ونصره للمؤمنين والعاقبة للمتقين . ويطوي الله تعالى هنا كل هذا التاريخ ويبسطه في مواضع أخرى من القرآن لحكم بليغة تقتضيها ظروف نزول القرآن المكي والمدني، ولكل تأثيره في قلوب المؤمنين، ثم يخبرنا الله تبارك وتعالى بنجاة بنى إسرائيل مع موسى وهرون، وهلاك أعداء الله فرعون وقومه، في آيات قليلة بليغة، شديدة الوقع في نفوس المعتبرين، عظيمة التأثير في قلوب المؤمنين، فلنستمع إلى بقية الآيات في الموضوع ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا

ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يبين الله تبارك وتعالى في هذه الآيات خبر نجاة موسى وهرون وقومهما بني اسرائيل، في عرض مختصر عجيب يأخذ بمجامع القلوب، وفي هذا العرض تسلية لقلب رسوله محمد - ﷺ - ومن معه من المؤمنين المستضعفين، وبيان لهم أن العاقبة للمتقين، وفيه تهديد ووعيد للكافرين الذين يؤذون النبي والمؤمنين ويطوي القرآن في هذه السورة المسافة الزمنية الكبيرة بين مشهد إيمان السحرة وقتلهم، وإنجاء بني إسرائيل وهي لا شك فترة طويلة، يذكر المفسرون أنها نحو من ثلاثين سنة، وفي سورة الأعراف ما يدل على طولها، وفيها بيان الآيات البينات التي وقعت فيها وهي كثيرة .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَاتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾[الأعراف : ١٣٠-١٣٣] آيات مفصلات بينها فترات من الزمن فيها عقوبة الظالمين وتنكيل بهم، وعبرة للمعتبرين، وتثبيت للمؤمنين وهم موسى وهرون وقومهما بنو إسرائيل، ولقد كان عدو الله فرعون وقومه

ينزلون على بني إسرائيل في هذه الفترة أنواع الأذى يسومونهم سوء العذاب، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ،وكان موسى يصبرهم ويمنيهم يوم الخلاص، ويعدهم أن الله سوف يستخلفهم في الأرض من بعدهم ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُّهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف : ١٢٩] ، كان هذا دأبهم ودأبه حتى جاء الأجل المكتوب في علم الله، وحان موعد هلاك فرعون وقومه ،ونجاة بني إسرائيل من البلاء العظيم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ [الآية: ٥٢-٥٦] .

أوحى الله تعالى إلى عبده موسى بعد الصبر الشاق الطويل أن أسر بعبادي، والسري هو المشي في النصف الثاني من الليل وهو وقت نوم القوم وغفلتهم، لأن سراهم هذا فرار من ظلم فرعون، فليكن في وقت غفلتهم ونومهم وجاءت الإضافة.

﴿بِعِبَادِيٓ﴾ .

هنا للتقريب والمعية ،لأن بني إسرائيل مؤمنون بربهم، وهم مستضعفون متحملون الأذى في ذات الله، فأذن الله لنبيه بالهجرة بهم إلى جهة معينة في وقت معيّن، وأوحى الله لنبيه.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ .

أي إن القوم سيتبعونكم في مسيركم هذا فلا تتوانوا، وكان الأمر كذلك .

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ .

ما إن سمع فرعون بهجرة بني إسرائيل وفرارهم من مصر ، حتى شعر بالخطر فأرسل في مدائن مصر حاشرين ، يحشرون الناس ويحرضونهم على الخروج كلهم وراء القوم الفارين فما على الناس إلا أن يطيعوا أمر مليكهم ويستجيبوا لدعوته ويخرجوا كلهم لما يريد الله بهم من الهلاك وأمر الله لابد واقع ولا مفر لهم من قدر الله ، تفرق رسل فرعون في بلاد مصر على جناح السرعة يحشرون الناس ، ويبلغون أمر فرعون .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ .

ويقال الشرذمة للجماعة القليلة المحتقرة المستضعفة المهينة ، ثم وصفهم بالقلة وروي أنهم كانوا ستمائة وعشرين ألف مقاتل ، عدا عن النساء والشيوخ والصبيان ، ولكنهم بالنسبة لفرعون وقومه قليلون وهذا يدل على أن الجموع التي لاقتهم غفيرة وكثيرة وقد أعجبتهم كثرتهم فخرجوا في أبهة وخيلاء وظنوا أنهم غالبون ، وما درؤا أنهم مغلوبون وأنهم واردون مورداً ما هم منه بصادرين . وقال فرعون :

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ .

أي إن خروج القوم وفرارهم يغيظنا ، وقد خرجوا كالعبيد الآبقين من غير إذن منا وإنا لنحذر من جراء خروجهم هذا خطراً كبيراً ، فربما يتجهزون للرجوع فيغزوننا بعد أن يتسلحوا ويستعينوا بأقوام آخرين وسيحدث خروجهم خسارة كبرى في أموالنا وديارنا ، ذلك لأن رجالهم كانوا خدماً مسخرين في أموال فرعون ، وقومه ونساءهم كن يشتغلن في بيوتهم فستحدث لهم من جراء خروجهم هزة اقتصادية كبرى هذا ما يحذر

فرعون ويحذر قومه منه، ويبدي لهم أن الخطر يتهددهم جميعاً، فليتحمسوا وليخفوا في طلبهم قبل أن يفلتوا أو يفوت الأمر وقد انتشر هذا الوعي في مدائن مصر فخفوا إليه مسرعين مطيعين لأمر معبودهم فرعون وما أمر فرعون برشيد . قال الله تعالى :

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾ [الآية :٥٧-٥٩].

كذلك يمكر الله بالظالمين وهو خير الماكرين، فأخرجهم طائعين مسرعين من ملك عظيم في أغنى بلاد الله ،وأطيبها مناخا، وأكرمها منبتا ومقاما، أخرجهم لحينهم خروجا لا رجوع بعده .

قال تعالى :﴿ فأخرجناهم ﴾ ، هكذا جاء التعبير بنون العظمة، والله فعال لما يريد، وما شاء الله كان فخرجوا من جنات غناء وافرة الثمار، تجري من تحتها العيون والأنهار، وخرجوا من قصور فيها الأثاث والرياش والكنوز، ولا تزال كنوز الفراعنة في مصر قائمة شاهدة على ما بلغ القوم من حضارة ورفاهية وقوة ولما جاء أمر ربك ما أغنت عنهم قوتهم ولا علومهم ولا كنوزهم شيئاً، بل تركوها ميراثا لمن كانوا يحتقرونهم ويستذلونهم ويسومونهم سوء العذاب .

لقد شاء الله الجبار المنتقم الفعال لما يريد، أن يرث بنوا إسرائيل الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله فيها بجودة التربة ووفرة المياه وطيب المناخ ، يقول الجبار الرحيم :

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾.

هكذا بنون العظمة، يورث الله الأرض لمن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وفي هذا

تسلية لقلب النبي محمد -ﷺ- وأصحابه المستضعفين فليصبروا كما صبر من قبلهم بنو إسرائيل والعاقبة للمتقين الصابرين، ولكل أجل كتاب وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ثم قال تعالى :

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الآية: ٦٠-٦٨].

فأتبعوهم أي فأتبع فرعون وقومه بني إسرائيل عند إشراق الشمس، فلما تراءى الجمعان ظن بنوا إسرائيل أن القوم مدركوهم، ولا مفر لهم منهم، لأن البحر يعترضهم، ولا طاقة لهم على مدافعتهم فظنوا أنهم أحيط بهم، فقالوا لموسى إنا لمدركون أي إن القوم سيحيطون بنا ويهلكوننا فأين المفر وما الحيلة ؟ عندها أجابهم نبي الله موسى رابط الجأش واثقا بنصر الله ومعيته، وقد شهد من هذه المعية آيات بينات، قال كلا لن نهلك ولن يحيط بنا القوم ولن يدركونا، إن معي ربي سيهدين، سيجعل لي ولكم فرجا من هذا الضيق، وإلى تلك اللحظة ما كان يعلم موسى كيف يكون المخرج، ولكن ثقته بربه عظيمة فظن به خيراً ،وأوى إلى معيته، وقد علم أنه لن يخذله في مثل هذه الساعة الرهيبة، وكذلك هداه الله .

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ .

ولهذه الفاء المقترنه بالفعل مدلول عظيم في اللغة، فهي تفيد العلية والسببية، فإن تفويض موسى أمره إلى الله وتوكله عليه في هذه اللحظة الحرجة كان سببا في نيل

أسباب النجاة له ولقومه من ربه الذي أحسن فيه الظن فكان عند ظنه ،أوحى الله إلى عبده موسى أن أضرب بعصاك البحر ، وماذا تكون العصا في جانب البحر الخضم العريض؟ ! إنها قدرة الله التي تقول للشيء كن فيكون ، وما العصا إلا حركة يسيرة يظهر فيها امتثال موسى لأمر ربه ، كما امتثلت مريم ابنة عمران أمر ربها حين هزت جذع النخلة فطاوعها فتساقط الرطب الجني من النخلة بإذن الله وفي هذه الحركات إشارة إلى أن أعمالنا كلها لا تغني شيئا إلا بعون الله العلي القدير ، وكذلك أعمالنا لا تدخلنا الجنة إلا برحمة الله ، ورحمة الله قريب من المحسنين .

امتثل موسى أمر ربه وقلبه واثق بمعيته ورحمته وقدرته ، فإذا البحر ينفلق وينشق عن طرق يابسة ليس فيها وحل ، ولا يخاف منها غرق ، وإذا المياه تنعزل يمينا وشمالا تتماسك كالجبال الشاهقة ، وما يمسكهن إلا الله ، شبه الله كل فرق منها بالطود العظيم ، وما وصفه العظيم بالعظمة فهو عظيم حقا وتلك معجزة الله يراها المؤمنون فيزدادون إيمانا ويراها الكفرة المتمردون فلا يزيدون إلا كفرانا .

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾ .

يقول الله تعالى وقربنا هناك الآخرين وهم فرعون وقومه ، قربهم الله إلى البحر على قدر تحثهم الرغبة في إدراك بني إسرائيل ، ولكنهم لا يدركوهم لأنهم سيسلكون طريقهم في البحر قبل وصول الجنود ، وسيغتر فرعون بطريق البحر اليابس فيسلكه هو وقومه وراء بني إسرائيل في قوة وحماس ، وقدر الله أن يوافق آخر بني إسرائيل صعودا من البحر ، حين يكون آخر جنود فرعون نزولا فيه ليتم أمر الله .

﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ .

كذلك يتم أمر الله على النحو الذي يريده الله ، وفي لمح البصر انتهى كل شي .

انتهى ملك فرعون، وفرج الله على بني إسرائيل وأورثهم الأرض من بعد هلاك عدوهم.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرْضِ وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[الأعراف:١٣٧].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

إن في ذلك أي ذلك الأمر الذي هو إنجاء بني إسرائيل وإهلاك فرعون وقومه لآية عظمى من آيات الله، فيها عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين فيها تخويف المتكبرين وبشرى للصابرين، قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ ﴾.

أي وما كان أكثر الناس مؤمنين بآيات الله، بل استهوتهم الشياطين فكانوا يمرون بآيات الله معرضين.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

الخطاب للنبي -ﷺ- يثبته الله ويربط على قلبه وقلوب المستضعفين من المؤمنين، ويقول له وإن ربك لهو العزيز المنتقم من أعدائه ولا يعجزونه، وهو الرحيم بأوليائه يفرج عنهم، ويهلك أعداءهم، ويجزيهم على صبرهم أجرا عظيما. ويكتب لهم العاقبة الحسنى، ويأتي هذا التذييل البديع في هذه السورة الكريمة عقب كل عرض لقصة من قصص من قبلنا، وبعد بيان نجاة أولياء الله وهلاك أعدائه، لأن القرءان كتاب دعوة ووعظ وذكرى فلابد من وقفة اعتبار

وذكـرى عقب كل نبإ من أنباء القـرى نستخلص فيهـا العبـرة من آيات الله، تزيـدنا إيمانا مع إيماننا ويقينا في قلوبنا فلا تؤثر عليها وساوس الشياطين، ولا ينال منها إيذاء الظالمين، ولنعلم أن العاقبة للمتقين، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده وينفعه بما يتلى عليه من الآيات والذكر الحكيم ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ

يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

القصة الثانية من القصص السبع التي يقصها الله تعالى على نبيه، في هذه السورة (الشعراء) وهي قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، مع قومه الذين كذبوه وعاندوه، وفي مقدمتهم أبوه ويقصها الله تبارك وتعالى على نبيه -ﷺ- ويأمره بتلاوتها على قومه ليسلي المؤمنين منهم، ولينذر الكافرين المكذبين برسل الله، ولا تستطيع قريش إنكار خبر إبراهيم، وأنه خليل الرحمن وأنه بنى الكعبة هو وولده إسماعيل، ونادى في الناس بالحج، وإن زمزم هي سقيا إسماعيل وأمه هاجر، لا تستطيع قريش أن تنكر رسالة إبراهيم، ومشاعر البيت الحرام التي تركها ملة تتبع من بعده لأنه جدهم الذي ينتسبون إليه ويتشرفون بهذه النسبة، كيف ينكرون هذا وهم به يفتخرون على سائر العرب، ويعتزون بهذه النسبة، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم، ولكنهم بدّلوا وغيروا وابتدعوا في دين الله ما ليس منه، وعبدوا الأصنام التي أنكرها جدهم إبراهيم.

وتأتي قصة إبراهيم هنا مصدرة بذكر حواره مع قومه في إنكار عبادتهم للأصنام وتسفيههم في عبادتها، وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر، وقصص القرآن لا تسرد الحوادث سرداً كما يفعل القصاصون، بل يذكر الله من القصة محط العبرة الذي يناسب المقام، لأن القرآن كتاب دعوة وإرشاد ووعظ، وهو الذكر الحكيم، ولا يراعي في عرض القصص الترتيب الزمني لأن هذا لا اتصال له بموضوع الموعظة والذكرى ولذا نرى هنا قصة إبراهيم تعرض بعد قصة موسى، ونحن نعلم أن موسى بعد إبراهيم بزمن

طويل وما دخل الترتيب الزمني في التذكير والوعظ والإنذار .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الآية:٦٩- ٧١]

واقرأ عليهم يا محمد خبر إبراهيم مع قومه وهو يحاورهم، والنبأ في اللغة هو الخبر الذي له شأن وخطر، ولا يطلق هذا الاسم على الأخبار التافهة والبسيطة، وكذلك نرى وروده في غير هذا الموضع من القرآن الكريم :﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ عَنِ النَّبإِ العَظِيمِ الذى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[النبأ: ١-٣]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾[ص:٦٧-٦٨]، حاور سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه وفتح حواره بالسؤال ليستثيرهم به، ويجرهم إلى الحوار حتى يبين لهم الحق وهم منتبهون ولم يكن سؤاله إياهم طلبا للمعرفة أبدا، لأنه يعرف ما يعبدون ، إنما كان لاستثارتهم حتى يسمعوا كلامه:

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ .

قال لهم ما تعبدون ولم يقل من تعبدون، لأنه يعلم أن معبوداتهم لا تعي ولا تعقل، فهي لا تبلغ من القدر أن يستفهم عنها بحرف الاستفهام الذي هو للعقلاء فأجابوه قائلين:

﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ .

قالوا نعبد أصناما، والأصنام هي المنحوتة على شكل إنسان أو حيوان، والمصنوعة من المعادن على ذلك الشكل ،أما الأنصاب فهي كل ما نصب ليعبد ويذبح عنده، ولو لم يكن له شكل إنسان أو حيوان، وكان قوم إبراهيم ينحتون أصناما من أخشاب وأحجار يعبدونها من دون الله، يرجونها ويخافونها ولذا قالوا في تمرد وإصرار.

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ .

أي فنمكث عندها عاكفين طول النهار وفي الليل، وظلّ وإن كانت تدل على استمرار الحال في النهار، ولكن استعمالها هنا جاء ليدل على جميع الأوقات، كما يدل عليه سياق الكلام وجاءت هذه الكلمة في جوابهم زيادة على ما سألهم عنه لأنهم يعلمون أن سؤاله ليس المقصود منه طلب معرفة ما يعبدون وهم يعرفون أنه يعلم ذلك ولكنه يسألهم لينكر عليهم عبادتهم هذه ولذا أصروا على عبادتها والعكوف عندها ولها، وأنهم لا يبغون عنها حولا، ثم جاء السؤال الثاني من إبراهيم وهو المقصود من السؤال الأول.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الآية: ٧٢-٧٣].

هؤلاء الأصنام الذين تعكفون عليها تعبدونها من دون الله ترجونها وتخافونها، وتتقربون إليها بأنواع القرابين هل يسمعونكم حين تدعونهم هل يجلبون لكم نفعا أو يدفعون عنكم ضراً، لا شيء من ذلك يرجى منها بل هي لا تدفع عن نفسها فكيف تعبدون من هذه حالته ! . أين عقولكم ما لكم أنى تؤفكون.

﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الآية: ٧٤].

كان هذا جوابهم لإبراهيم، إنهم يقلدون آباءهم وأجدادهم، فهم إنما يعبدون الهوى والشيطان لأن الشيطان هو الذي زين لهم عبادتها وهواهم كان في تقليد أوائلهم، فهم لا يحاولون أن يتفكروا بعقولهم في الموضوع، بل يقولون لا دخل للعقل في موضوع العبادة، وكذلك يقول أهل الديانات الخرافية المنحرفة في كل زمان، دينهم التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم، ويغلقون أبواب الفهم والعقل في وجوه الدعاة

إلى دين التوحيد، وجواب هؤلاء القوم بِبَلْ التي هي للاضراب، يدل على أنهم أدركوا صواب ما قاله لهم نبيهم إبراهيم، ولكنهم عصوه إصرارا وعنادا وآثروا الباطل على الحق واشتروا الضلالة بالهداية فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين وليس في جوابهم بصيص من نور الحق ولا يقره عقل وهل يدفع الحق بالجمود على ما تركه الآباء ومتى كان تقليد الآباء دليلا على الصواب ومتى كان ميزان الحق التقليد الأعمى، إن الباطل لا ينقلب حقا بتقادم العهد، وإن الحق هو الحق ولو أعرض الناس عنه زمنا طويلا، فإذا جاء من يدلهم عليه فالرجوع إليه فريضة، والعقول السليمة تدرك نصاعة الحق، وتبصر نوره، ولا تنكره ولا تستكنف من قبوله ﴿أُوْلَئِكَ الذين هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[الزمر:١٨]، ولما بلغ قوم إبراهيم هذا الحد من الإصرار والعناد والصدوف عن الحق جابههم بجوابه الصريح الذي يعلن بعقيدته.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الاقدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَالذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالذى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ والذى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ واجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِينَ وَلاَ تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الآية:٧٥-٨٩].

أعلنها صريحة أن لا إله إلا الله، وكل معبود سواه باطل، قال افرأيتم الآلهة التي تعبدونها والتي كان آباؤكم الأقدمون يعبدونها، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، خالق السموات والارض وما بينهما مالك أمر الدنيا والآخرة، قال أنتم وآباؤكم الأقدمون ولم

يقل القدامى مبالغة في الأقدمية ليبين ما ذكرناه أن الباطل لا يرجع حقا بالأقدمية بل هو باطل وزور دائما، قال فإنهم عدو لي أي أعداء، وقد جاء هذا التعبير في اللغة العربية بصفة الفرد، فيراد به الجمع لاتحاد سبب العداوة، وستكون هذه الأصنام ضدا على عابديها يوم القيامة فأعلن خليل الرحمن عداوته لها منذ اليوم، لأنها لا تنفع ولا تضر بل ضرها أقرب من نفعها، وذلك لأن اتخاذها أولياء من دون الله ظلم وضلال مبين. فهي ضر بهذا الاعتبار ثم استثنى إبراهيم فقال :

﴿ إِلاَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والاستثناء هنا متصل لا منقطع ، لأن في أجدادهم من عبد الله ،ومنهم من يعبد ويشرك غيره بعبادته فاستثنى إبراهيم ،ومثله من يستثني في هذا المقام ولابد من الاستثناء حتى لا يتوهم أحد أنه تبرأ من جميع من يعبدون . قال إلا رب العلمين ، والله وحده هو رب العالمين، رب إبراهيم وقومه والناس أجمعين، كافرهم ومؤمنهم ثم قال :

﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ .

الذي خلقني ولم أكن شيئاً، فهو يهديني سبل السلام في أمر معاشي ومعادي. كما هدى جميع مخلوقاته ولم يضيع شيئاً منها، ثم هدى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم هداية إيصال وتوفيق، بعد أن هدى العقلاء جميعا هداية دلالة وإرشاد، ونعمة الهداية هي أعظم النعم على العقلاء ولذا بدأ إبراهيم بذكرها بعد نعمة الخلق، ولولاها لم يكن لوجودنا معنى في هذه الحياة الدنيا فبها تتم جميع النعم .

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ .

وهو الذي يطعمني ويسقين، لا أحد غير الله يطعمنا أو يسقينا فهو وحده الذي

أنزل من السماء ماء فأنبت به من الأرض نباتا وأنبع منها عيونا ، وأطعمنا من نبات الأرض من ثمارها وحبوبها وسقانا من مياهها ، ومن ألبان الأنعام التي ذرأها في الأرض وسخرها لنا ،ولو ذهبنا نعد نعم الله لا نحصيها ثم قال إبراهيم :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ .

ولم يقل والذي يمرضني ويشفين ، تأدبا مع الله ، ولأن المرض غالبا ما يكون سببه راجعا إلى تفريط المريض في وقاية نفسه ،أو إفراطه في الأكل والشرب وفي التعب ، أو الملذات فهو الذي يتسبب غالباً في المرض ، أما الشفاء فهو من الله ، وما هذه الأدوية التي نتعاطاها إلا أسباب قد تنفع ، وقد لا تنفع وهي لا تنفع إلا بإذن الله ،فهو الذي يشفينا وهو الذي يذهب الأسقام والعلل متى أراد ، وقد يجعلها أسباباً للموت عند حلول الأجل المكتوب وحينئذ يقف الأطباء كلهم عاجزون مكتوفي الأيدي إذا لم يأت الله بالشفاء فهو وحده الشافي الخلاق الهادي المحيي المميت .

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ .

والذي هو وحده يُميت الخلائق ولا يموت ، ثم يحييها بعد الموت كما خلقها أول مرة وهو بكل خلق عليم ،قال : يميتني ولم يقل يقتلني ، لأن القتل سبب من أسباب الموت قد ينسب إلى العباد ، لكن الإماتة ليست إلا لله وحده ، وهو توفِّي الأنفس ونقلها من دار الفناء إلى دار الجزاء والخلود ، فالله هو المحيي المميت الحي الدائم الذي لا يموت ، وليس نسبة الإماتة إلى الله نقصا أو ذما بل هي من صفات الكمال ، لأن الإماتة لأولياء الله إراحة لهم من عناء الدنيا ، وإيناس لهم بلقاء الله الذي أعد لهم حسن الجزاء ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ولا يموت المؤمن إلا وهو يحب لقاء الله لما يرى من البشارات ، نسأل الله حسن الخاتمة .

﴿ والذى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

ولمناسبة ذكر الموت والحياة بعد الموت، جاء ذكر يوم الدين وهو يوم الجزاء، وصف إبراهيم ربه بأنه الذي يطمع فيه أن يغفر له خطيئته يوم البعث والجزاء، ولا يؤاخذه بها، والغفر هو الستر وعدم المؤاخذة، والله غافر لمن استغفره، وعد عباده المستغفرين لذنوبهم أن يغفر لهم، ولذلك طمع إبراهيم أن يغفر له خطيئته يوم الدين، وما خطيئة إبراهيم ؟ .

قال بعض أهل التفسير هي قوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾[الانبياء : ٦٣] ، حين سألوه : ﴿ ءَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِئَالِهِتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾[الأنبياء : ٥٩] ، وهي كلمة تبدو كأنها كذبة وعلى كل فإن خطايا الأنبياء نوع من الغفلات يرونها تقصيراً وذنوباً في حق مولاهم الذي أنعم عليهم واجتباهم، فما من حقهم أن يقصروا في حقه ويغفلوا عن ذكره، فهم يستغفرون من ذلك، ومن كمالاتهم أن يعملوا على تلافي الغفلات وأن يستغفروا الله منها، ويقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ولم يعبر إبراهيم بالطمع إلا لأن ربه أطمعه في ذلك، والطمع هو الرجاء بعد الأخذ بالأسباب.

كل هذه الخصال التي كان يذكرها سيدنا إبراهيم وينسبها إلى ربه وهو ربهم جميعاً ولكن كانت هذه الإضافة وهذه النسبة تعريضا بأصنامهم التي يتعلقون بها ويرجونها، وهي لا تملك شيئاً من هذه الأمور، كل هذا لعلهم يرجعون إلى أنفسهم ويتذكرون، ولكن القوم مصرون على شركهم، قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه وفي آذانهم وقر، وبينهم وبين إبراهيم حجاب من كبريائهم وقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، يسمعون هذه الحقائق التي لا يستطيعون لها دفعا ،ولكنه التقليد واتباع الهوى وحب الشهوات ومن يضلل الله فلا هادي له، ويبحث أهل التفسير في ضمير

الفصل «هو» الذي استعمله إبراهيم في بعض الجمل ولم يستعمله في البعض الآخر ما السر في ذلك ؟.

الجواب.. في ذلك والله أعلم أن إبراهيم استعمل هذا الضمير في الخصال التي يبدو أن الناس يتصفون بها، كالهداية والإطعام والسقاية وغيرها، فقد يقال فلان هدى فلانا أي دله على طريق، ويقال أطعم فلان فلانا وسقى فلان فلان والحقيقة أن الهادي الحقيقي والمطعم الحقيقي والساقي الحقيقي هو الله تعالى ولولا أن الله أراد هدايتك ما سخر لك ذلك الشخص الذي يهديك فهو الذي هداه وأرسله إليك ليهديك، وكذلك الشأن في الإطعام والسقي فالمطعم والساقي هو الله وما المخلوق إلا واسطة مسخرة، أما الشفاء فلا تجوز نسبته إلى المخلوق أبدا ولو كان طبيبا حاذقا، لأن الطبيب لا يملك غير العلاج بأنواع الأدوية التي هي الأحرى من خلق الله، أما الشفاء فهو من الله وكثيرا ما يخطئ الناس فينسبون الشفاء إلى الطبيب تارة وإلى الدواء تارة أخرى ولا يجوز هذا وهو جهل وغفلة ولذلك أكد سيد الحنفاء إبراهيم عليه السلام بضمير الفصل ليدل على الحصر فلا شافي إلا الله هو وحده يشفي من أراد شفاءه، وكذلك الإماتة والإحياء قد يخطئ كثير من الناس فيزعمون أنهم يحُيون ويُميتون كما زعم النمروذ باطلا لعنه الله ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾[البقرة: ٢٥٨].

أي يأمر بقتل فلان واستحياء فلان، وليس أمر الإماتة والإحياء إليه ولو أمر بذلك. بل المحيي المميت هو الله، فالله هو الذي يهب الحياة للأحياء وينتزعها منهم متى أراد ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]، وفي كلام إبراهيم تقرير للحياة بعد الموت وهذا ما ينكره المشركون وهو الحق فسيدنا إبراهيم عليه السلام يثبت في محاورته هذه أمر الحياة بعد الموت ليوم

يكون فيه الحساب والجزاء ويقرر فيما بعد أنه :

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

إنه يوم عظيم لا ينفع فيه المال، ولا تقبل فيه فدية ولو كانت ملء الأرض ذهبا ومثله معه، ولا ينفع فيه البنون ولو كثروا، قال الله في وصف ذلك اليوم وحالة الإنسان الشقي فيه ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ كَلاَّ ﴾[المعارج: ١١-١٥]، إن شيئاً واحداً ينفع في ذلك اليوم الذي لا يشبه الأيام هو سلامة القلب، سلامة القلب من الشرك الأكبر والأصغر، ومن الإصرار ومن دباغ السوء ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام: ٨٢] .

تلك هي السلامة التي شهد الله بها لإبراهيم في سورة الصافات حيث يقول : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الصافات: ٨٣-٨٤] .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

دعوات يتوجه بها إبراهيم لربه بعد هذا الحوار الذي قرر فيه عقيدته الصحيحة بكل صراحة ووضوح أمام قومه ولم يخفهم ولم يداهنهم بل توكل على الله وتوجه إليه بكله وختم كلامه بالدعاء والرغبة إلى الله وحده حنيفا مسلما، مائلا إليه عن كل ما سواه، وهي كلها دعوات روحانية ليس فيها إلى حظوظ الدنيا رغبة ولا ميل، وهي تنبع عن قلب أفعمه الله إيمانا ويقينا، وأنار بصيرته بنوره، وأفاض عليه من رحمته فهو قلب

أجـرد أزهر يعلوه نور على نور قـد ذاق مـن حـلاوة مناجـاة ربه، وانـشـرح صـدره بـنور الاسلام، فهو يبتهل إلى الله يطلب المزيد.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ .

أي حكم هذا يطلبه إبراهيم من ربه أن يهبه له؟ هل هو الحكم بمعنى السلطان ؟ .

لا بل هو الحكم الذي هو العلم والحكمة وهو الحكم الذي ورد ذكره في غير موضع من كتاب الله في سورة مريم حيث قال في شأن سيدنا يحيي عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً وَحَنَاناً مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾[مريم:١٢-١٣]، وفي سورة القصص في شأن سيدنا موسى عليه السلام قال : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾[القصص:١٤]، وفي سورة يوسف قال الله تعالى في شأن سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾[يوسف:٢٢]، ذلك هو الحكم الذي سأل إبراهيم ربه أن يهبه له كما سأله أن يلحقه بالصالحين، وقد مضى قبل زمان إبراهيم ناس صالحون قد انتهجوا سبيل الصلاح ومضوا فيه فتولاهم إبراهيم وسأل ربه أن يلحقه بهم وأن يجعل مصيره مقترنا بمصيرهم .

﴿وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ .

سأل إبراهيم ربه أن يجعل له لسان صدق في الأمم التي تأتي من بعده أي ذكرا حسنا مقرونا بالصلاة والدعاء فاستجاب الله له وقال في شأنه في سورة الصافات : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[الصافات: ١٠٨-١١٠]، وهل كان إبراهيم بهذا الدعاء يسأل شيئاً من الدنيا وهو مجرد الشهرة والذكر الجميل ، لا أبداً بل كان يرغب في اتصال الأجر ببركة دعوات الصالحين

وصلواتهم، وكان يرغب في الهدي للآخرين بأن يكون قدوتهم الحسنة في الخير، وإمامهم في التقى ذلك أنه بعد ما رأى من قومه ومن غيرهم شدة إصرار الناس على الاقتداء بآبائهم حتى ولو كانوا على ضلالة وعلم أنه سيكون سلفا لذريته، فطلب من الله أن يجعله سلف خير يقتدي به من يأتي بعده فيهتدي بهداه، فينال أجره وأجر من اقتدى به حتى تقوم الساعة، وقد استجاب الله له فقال في حقه وحق الأنباء من ذريته مخاطبا لنبيه محمد -ﷺ- ولنا جميعا ﴿أُوْلَئِكَ الذين هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠]، وقال أيضا يخاطبنا في سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُواْ في اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عليْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وفي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[الحج: ٧٨]، ذلك هو الإمام والقدوة، جعل الله له لسان صدق في الآخرين ونحن الآخرون فصلاة الله وسلامه على إبراهيم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

دعاء إبراهيم ربه أن يجعله من ورثة جنة النعيم، أي جنة الخلد التي فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والتعبير بالإرث جاء في غير موضع من القرآن، قال تعالى في سورة «المؤمنون» ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ الذين يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[المؤمنون: ١٠-١١]، وقال في سورة «الزمر» ﴿الحَمْدُ لله الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلينَ﴾[الزمر: ٧٤]. وفي غيرها من المواضع، وما أحسن التعبير بالإرث لأنه خير كثير لا يستحقونه بأعمالهم، بل بفضل الله وبرحمته، ولأنه خير يبقى ولا ينفد، وفيه

التعريض بميراث متاع الدنيا الفاني، فذلك لا يكون شيئا إلى جانب ميراث منازل الفردوس في جنات النعيم، جعلنا الله من وارثيها آمين .

لقد علم إبراهيم أن نعيم الدنيا ينفد ولا يبقى فطلب من ربه نعيما يبقى لوارثيه ولا ينفد، وسأله أن يجعله منهم ،وهذا بعد قوله آنفاً وألحقني بالصالحين، والصالحون هم الوارثون لجنات النعيم ، قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[الأنبياء:١٠٥]، ثم إن إبراهيم طلب المغفرة لأبيه وفاء له بوعده حين قال له في حوار ذكره الله تعالى في سورة مريم ﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾[مريم:٤٧]، وهنا في هذه السورة يقول:

﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ .

يطلب إبراهيم لأبيه الضال عن سبيل الله بالشرك، وما في الشرك من جاهلية وهو يُلم أن الله لا يغفر أن يُشرك به، ولكن يريد بهذا الاستغفار طلب الهداية له حتى يستحق مغفرة الله بعد التوبة، وكان حينئذ يرجو له الهداية فلما تبين له أن عدو الله تبرأ منه .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة:١١٤]، لقد كان إبراهيم بدافع البر الشديد يتمنى لأبيه الهداية والمغفرة رغم ما صدر منه من جفاء في حقه، وهو يدعوه إلى الإسلام، وهذا من حلمه وسعة صدره ،وحسن أخلاقه عليه الصلاة والسلام، كل هذا مع وعده السابق له أن يستغفر له الله، وما كان لنبي إذا وعد أن يخلف وعده ، وقال بعض المفسرين إن أباه هو الذي وعده أن يسلم فطمع إبراهيم في إسلامه فاستغفر له، والذي يظهر من الآيات أن إبراهيم هو الذي وعد أباه أن يستغفر له والله أعلم .

﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

دعا إبراهيم ربه أن لا يخزيه يوم القيامة، والخزي هو الذل والمهانة ومنه قوله تعالى في خواتم آل عمران ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[آل عمران: ١٩٢]، فسيدنا إبراهيم عليه السلام بعد أن دعا ربه بتلك الدعوات زاد فدعا ربه أن لا يخزيه يوم القيامة برد دعائه وعدم استجابته له ، ذلك هو الخزي العظيم الذي يخشاه إبراهيم فسأل ربه أن يجنبه إياه يوم يُبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء ووصف ذلك اليوم بأنه يوم لا ينفع فيه المال والأبناء ويعتز الناس في هذه الحياة الدنيا بالمال والبنين، قال الله تعالى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[الكهف: ٤٦] .

ويومئذ يتجرد الإنسان من هذه الزينة ويحل الذل والخزي محل العز، إن لم يقدم الباقيات الصالحات ولم يلق ربه بقلب سليم والقلب السليم، هو الذي استنارت بصيرته وسلم من جميع الأمراض التي تنتاب القلوب وهي الشرك بأنواعه، وما دون الشرك من الكبر والعجب والحسد والحقد، وحب الشهوات وبغض المسلمين وحب أهل المعاصي وحب الدنيا وتعظيم ما حقر الله منها وتحقير ما عظم الله من أمر الآخرة والإصرار على الذنوب، وقد يزعم بعض السفهاء الذين أعمى الله بصائرهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، يزعم هؤلاء أن قلوبهم طيبة وأنهم خير ممن يعمرون المساجد، ويصلون ويتعظون وما أبعدهم في زعمهم هذا عن الصواب، وأي طيب في قلب لا يذكر الله ولا يصلي، ويحاد الله بالكفر والفسوق والعصيان ، أنى يطيب قلب من يزني ويسرق ويشرب الخمر ويترك فرائض الله ويضيعها، إنها قلوب مريضة

استحوذ عليهم الشيطان فسول لهم وأملى لهم وزين لهم سوء أعمالهم، وصدهم عن السبيل فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ربما يقوم أحدهم بعمل ظاهره خير، يتصدق على مسكين، أو يفرج على مكروب، أو يرحم مصابا فيذهب يتبجح بأن قلبه طيب وسليم وقد يكون ظالما مرتكسا في أنواع الظلم والكبائر، إن قلوب هؤلاء مريضة، وأعمالهم مردودة عليهم، يجعلها الله هباء منثوراً ما داموا متمادين على كبائرهم وظلمهم وغيهم، ومن مكر الله بهم أنهم يرون أنفسهم أكياسا وهم سفهاء، يتمنون على الله الأماني، وقد جاء في الحديث الشريف « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني». القلب السليم هو الذي يتطهر من الذنوب والآثام ويجتهد في أعمال البر، ويخاف ويرجو ولا يطمئن لحاله، ويخشى العواقب ويتقي الله قال الله تعالى في وصف قلوب أوليائه : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾[المؤمنون: ٦٠].

فمن سلامة القلوب أن تجتهد في الطاعات، وتوجل من موقفها بين يدي الله، وإذا سلمت القلوب استقامت الأحوال، وصلحت الأعمال، وفي الحديث الصحيح « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» فينبغي الاعتناء بهذا القلب والقيام عليه والحرص على سلامته وذلك باجتناب المعاصي والمبادرة إلى الطاعات والاستكثار منها وإدامة التوبة والإنابة إلى الله والإكثار من الاستغفار وشهود مواطن الخير، كعمارة المساجد ومجالس الذكر وتلاوة كتاب الله والتدبر في معانيه ففيه شفاء القلوب ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾[يونس: ٥٧]، وجاء في الحديث الشريف «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وإن جلاءها قراءة القرآن وذكر الموت» نسأل الله سلامة القلوب، ونعوذ

بالله من قساوة القلوب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي، تلك هي أدعية إبراهيم وابتهالاته ذكرها الله تعالى لنا في كتابه الكريم لنقتدي به وندعو الله بما دعاه به أبونا إبراهيم، وخير الأدعية ما ورد في القرآن الكريم، فهو إرشاد لنا من الله أن ندعوه بما يرضاه ونعبده بما شرع بقلوب مخلصة مسلمة لله رب العالمين، لا تريد علوا في الأرض ولا فساداً .

تلك هي الملة الحنيفية السمحة، ملة أبينا إبراهيم الذي وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما كان من المشركين، إلى هنا ينتهي قول إبراهيم ثم يأتي قول الله تبارك وتعالى :

۞ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ

وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا
الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

القرآن كتاب ذكر وموعظة، يذكرنا باليوم الذي نقف فيه بين يدي الله، ونجازى على أعمالنا بمختلف الأساليب فبينما يحكي لنا وصف إبراهيم ليوم القيامة أنه يوم لا تنفع فيه الأموال والذرية إلا من قابل ربه بقلب سليم يردفه الله بوصف آخر لهذا اليوم يتعرض فيه لمشهد عظيم من مشاهد ذلك اليوم الهائل فيه صيرورة أهل الجنة إلى جنتهم

راضية نفوسهم مرضية، وصيرورة أهل النار إلى النار، وتخاصمهم فيها وانقطاع وسائلهم، فلا ولي يرتجى ولا شفيع يطاع.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية: ٩٠].

أي وقربت الجنة لأهل التقوى لأولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، قربت لهم تقريبا فلا يتعبون في طريقهم إليها، ولا تطول بهم المسافة بل تقرب إليهم، فما هي إلا خطوات يخطونها ونورهم يسعى بين أيديهم وبإيمانهم، فإذا هم على الحوض واردون وقد فتحت لهم أبواب الجنة، وقيل لهم ادخلوها بسلام - آمنين.

واختار الله وصف التقوى لأهل الجنة لأنها الجامعة لكل خير، فالتقوى وإن كانت صفة تكون في القلب بمعنى الهيبة والمراقبة والخشية والحذر، ولكنها تكون أيضا في الجوارح بمعنى الاستقامة والسير في صراط الله المستقيم، أزلفت لهم وبشروا بها وشموا ريحها وألقي في روعهم أنهم من أهلها.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الآية: ٩١].

البروز هو الظهور والجحيم اسم من أسماء جهنم أعاذنا الله منها، وهي النار الكبرى التي تستعر ولا تخبو والغاوون هم الضالون المكذبون الذين هم عن الصراط المستقيم ناكبون أظهر الله لهم النار يرونها ويسمعون زفيرها وتغيظها وهي أشد ما تكون شوقا إليهم وهم يعلمون أنهم صائرون إليها ولا مفر لهم منها ينظرون إليها من طرف خفي وياله من مشهد ترتاع له القلوب وترتعد له الفرائص ثم إنهم في هذا الموقف المخزي يخاطبون ويبكتون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، فهم يعجلون بالعذاب ولا يُنظرون.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [الآية: ٩٢-٩٥].

قيل لهم تبكيتا لهم، أين ما كنتم تعبدون من دون الله، أين أصنامكم وأوثانكم وأنصابكم التي كنتم تعكفون لها وترجون نصرها ونفعها وتخافونها ادعوها واستنجدوا بها كما كنتم تدعونها من قبل في الدنيا وتزعمون أنها تنصركم أين هي اليوم، والقرآن يذكر جوابهم في غير هذا الموضع ﴿ قَالُوا ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيئًا ﴾[غافر: ٧٤]، ثم بعد هذا السؤال الأول يسألهم سؤالاً ثانياً فيه زيادة تبكيت وإذلال وخزي.

﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾.

وفي هذا الاستفهام ما فيه من إظهار موقفهم المخزي وإفلاسهم من الجواب، إنهم يعلمون اليوم أنهم لا ينتصرون لأنفسهم فضلاً عن أن ينصروهم فما أضعفهم وما أعجزهم ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ ﴾[الحج: ٧٣].

كذلك يوقف الذين كفروا مواقف الخزي، ولإقامة الحجة عليهم، وإظهار اعترافهم بذنوبهم بعد عجزهم عن الدفاع عن أنفسهم بجواب صحيح بل تنقطع حجتهم يومئذ وتتضاعف عليهم الحسرات ثم لا يمهلهم الله طويلاً بل يأمر الزبانية أن يلقوهم في النار ليلقوا جزاءهم داخرين.

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾.

الكبكبة هي المبالغة في الكب والمضاعفة منه فهي الكب مرات كثيرة إنهم يدفعون فيها ويدعُّون إليها دعا فتهاوون كالبنيان المتهدم أو كالصخور المدفوعة من أعلى إلى

أسفل، فهي تدحرج وتكبكب، وفي هذه العبارة تصوير بديع لسوء حالهم ودفع الزبانية لهم بشدة وعنف وسقوطهم في جهنم وبئس المصير .

كذلك يكبكب المشركون عُبّاد الأصنام في النار هم وأصنامهم والغاوون، وهم الضالون بأنواع الضلالات وجنود إبليس بعضهم من بعض لأن المشركين والغاوين هم أحزاب إبليس وجنوده وأتباعهم وكم لإبليس من جنود يسخرهم من الجن والإنس، يجندهم لإغواء الناس فكل من سعى في إضلال الناس وإغوائهم وصدهم عن سبيل الله فهو من جنود إبليس .

وقد سماهم الله تعالى شياطين حيث قال ﴿ شَياطِينَ الانسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾[الأنعام: ١١٢]، وأمرنا الله تعالى أن نستعيذ بالله منهم في سورة ﴿ الناس ﴾ ، أولئك جميعهم مصيرهم الكبكبة في طبقات الجحيم وبئس المصير .

وفي الناس في كل زمان غواة يتخذون سبيل الغي سبيلا، يركبون أهواءهم. ويتبعون شهواتهم، ثم لا يكتفون بهذا بل ينخرطون في حزب جنود إبليس. فيجتهدون في إضلال الناس لاسيما الشباب الأغرار فيزينون لهم أنواع الفواحش من الخمر والزنى والقمار والسرقة والظلم، ويجرونهم إليها بمختلف الوسائل إغراء لهم أول الأمر، ثم إذا تمكنت فيهم خصال الفواحش والفساد، تعدوهم إلى غيرهم ليجروهم إلى حزبهم بزخارف القول، وفي النساء الفواسق شيطانات ينصبن لبنات جنسهن حبائلهن ليجرونهن بها إلى فسقهن وعهرهن، ويغرين الرجال فيفتن ضعفاء الإيمان ويغوينهم فيقع هؤلاء وهؤلاء في حمأة الكفر والفواسق والعصيان فيصيرون

جميعا من حزب إبليس وجنوده، ويحذرنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة من إبليس وجنوده حتى نتجنب طريق الغاوين ونتقي مصيرهم ونتقي النار التي أعدت للكافرين.

ثم يعرض علينا مشهدهم وهم بين أطباق الجحيم يتخاصمون ويتلاعنون.

﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهَ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الآية: ٩٦-٩٩].

كذلك يختصم أهل النار ويتحاجون فيها ويظهرون الندم والحسرات، وتحاول كل طائفة منهم أن تلقي المسؤولية على الطائفة الأخرى، الأتباع والمتبوعون ولكن الله تعالى يقول لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٨]، وقوله الحق والعدل، لأن المتبوع يحمل إثمه وإثم من أضله، والتابع يعذب على إثمه وإجرامه. ويعذب على كفر نعمة العقل إذ لم يستعمله في معرفة الحق واتباعه بعدما تبين، بل آثر العمى على الإبصار، والضلالة على الهدى فاستحق العذاب ضعفين، ويومئذ يعترفون بضلالهم المبين، حيث أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا يقولون:

﴿تَاللَّهَ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يحلفون ويؤكدون حلفهم بالمؤكدات، ويوجهون الخطاب إلى أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لأنها كبكبت معهم في الجحيم، يحلفون بالله أنهم كانوا لفي ضلال مبين حيث كانوا يسوونهم برب العالمين، أي يجعلونهم أنداد لله الذي هو رب السموات والأرض وما بينهما، مالك الدنيا والآخرة تعالى عن الأنداد والأضداد والشركاء، إنهم حينئذ يعترفون بما كانوا ينكرونه في الدنيا، ويؤمنون بالله الواحد القهار يوم لا ينفع نفسا إيمانها، ثم يلقون تبعة ضلالهم على الغواة المجرمين الذين

أضلوهم وصدوهم عن سبيل الله بما كانوا يزينون لهم من أنواع الغواية والفسوق، ويكرهون إليهم الإيمان وأهل الإيمان، ودعوة الإيمان ويحصرون الإضلال في قرنائهم ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾[العنكبوت: ٢٥] .

ولا ينفعهم هذا من الله شيئا، بل يضاعف عليهم العذاب ثم لا ينصرون، وضلت عنهم يومئذ الشفاعات التي كانوا يعلقون عليها الأماني الفارغة، وتقطعت بهم الأسباب فهم ينادون بالويل والثبور ويقولون :

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾[الآية: ١٠٠-١٠٢] .

أيسوا من الشفعاء فقالوا فما لنا من شفيع، نفي قاطع مؤكد بحرف .

«من» الذي يؤذن بعموم النفي وقطعيته وليت الذين يتبعون أهواءهم، ويغترون بالشفعاء يعتبرون بهذا المصير المؤلم الذي هو كله يأس وقنوط، إن الشفاعة لأهل الاستقامة والتوبة لا لأهل الكبائر والإصرار ثم يتمنون على الله الأماني، إنهم حين ييأسون من الشفعاء يتمنون ليتهم يرجعون إلى الدنيا فيكونوا من المؤمنين، ويعملوا صالحا غير الذين كانوا من قبل .

﴿فَلَوَ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ .

«لو» هذه تفيد التمني المُلِحّ، أي ياليت لنا كرة أي رجوعاً إلى الحياة الدنيا، حياة العمل فنصلح من حالنا ونكون من المؤمنين، وأنى لهم ذلك! لا رجوع ولا فدية ولات حين مناص، وفي حالتهم هذه التعسة عبرة لأولى الألباب وذكرى .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الآية: ١٠٣-١٠٤] .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ .

أي فيما تقدم من خبر إبراهيم وقومه وابتهاله وتضرعه إلى الله وحده، وفي خبر يوم القيامة ومواقف المؤمنين فيه وفوزهم بجنات النعيم ومواقف المجرمين وخيبتهم، واختصامهم في الجحيم بعد أن كبكبوا فيها، وتمنيهم الرجوع ولات رجوع، في كل ذلك آية للمعتبرين بينة لقوم يؤمنون وما كان أكثرهم مؤمنين، أكثر الناس في هذه الدنيا يعرضون عن آيات الله ولا ينتفعون بها، ولا يرفعون بها رأسا، فهم لا يؤمنون أو يلبسون إيمانهم بظلم ﴿وَمَا يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦]، ولا شيء أفسد للأعمال من الشرك .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

يؤكد الله الخبر بثلاث مؤكدات حتى يقرر هذا المعنى الحق في القلوب وما يعقله إلا العالمون ، يؤكد الخبر بأن ولام الابتداء التي تدخل على اسم إن ، وتعريف الخبر بالألف واللام، لأن هذا الخبر الذي يأتي في هذه الخاتمة هو خلاصة المعنى وعين الفائدة، وإن ربك يا محمد الذي بعثك بالهدى ودين الحق لهو العزيز القوي، الذي يجير ولا يجار عليه، والذي لا يمتنع منه العتاة والجبابرة حين يأتي أجلهم، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ثم لا ينتصرون وإن الله العزيز لهو الرحيم الذي لا ييأس من رحمته المؤمنون التائبون المنيبون، فهو خير ملجأ وخير نصير لهم في الدنيا وخير راحم لهم في

الآخرة، اللهم ارحمنا رحمة تغنينا عن سواك يا رحيم يا أرحم الراحمين ﴿ كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)
قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي
وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)
ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

هذه هي القصة الثالثة في ترتيب السورة، قصة نوح عليه السلام مع قومه، ودعوته إياهم إلى التوحيد ثم إعراضهم وتكذيبهم يعرضها الله تبارك وتعالى عرضا مختصرا على النسق الخاص الذي تعرض به قصص بعض الأنبياء مع أممهم في هذه السورة ويطلق

المفسرون على سيدنا نوح شيخ المرسلين، ولسنا ندري إن كان قبله رسول لله أو لم يكن، ولكن الله لم يقص علينا في القرآن، قصة رسول قبله ولقد طال مكثه فيهم فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما كما جاء ذلك في القرآن ثم بعد أن أهلكهم الله عاش نوح بعدهم ما شاء الله أن يعيش، وفتحت القصة هنا بخبر تكذيب قوم نوح المرسلين.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ١٠٥] .

وكذلك القصص الأربع الآتية بعد هذه القصة تفتح بنفس الأسلوب ليقرر الله تعالى في أذهاننا وقلوبنا أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب بجميع المرسلين، لأنه كذب أن يبعث الله إلى البشر رسولاً منهم واستبعد هذا فقد كذب إذن بالمرسلين جميعهم وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي النفوسي - رحمه الله -

ومن ردَّ حرفا أو رسولاً فإنه   برد جميع المرسلين كفرعون

لقد كذبوا بالله ورسله حين كذبوا نوحا، وما نعلم رسولاً أرسل مع نوح إليهم، ولكنهم حين كذبوا نوحا فقد كذبوا المرسلين جميعا.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ١٠٥-١٠٩] .

كذبت قوم نوح رسل الله، وكذبوا بأصل الرسالة حين كذبوا نوحا لما بعثه الله إليهم رسولاً قال لهم ألا تتقون الله، ألا تتقون عواقب ما أنتم عليه من الكفر والإجرام،

وقد أرسل الله إليهم واحداً منهم يعرفونه، ويعرفون أصله ونسبه، ويعرفون عشيرته ولا ينكرونه، ولذا قال أخوهم، فليست الأخوة هنا أخوة الدين إنما هي أخوة الجنس والقبيلة، جريا على تعبير العرب حين يتكلمون عن أحد من قبيلة يقولون أخو بني فلان، وحين يدعونه كذلك يقولون : يا أخا العرب، يا أخا قريش يا أخا قيس، يا أخا هذيل، يا أخا تميم ، والقرآن نزل بلسان عربي مبين .

وإذا كان الرسول أخاهم من أوسطهم يعرفونه ولا ينكرونه، قامت عليه الحجة فلم يكن لهم أدنى عذر في تكذيبه وإنكار رسالته .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

دعاهم نوح إلى التقوى، وما من رسول بعث إلى قوم إلا دعاهم إلى تقوى الله وتوحيده بالعبادة أول ما يدعوهم، كما نرى ذلك في أخبار رسل الله في هذه السورة وغيرها من كتاب الله.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ .

قال لقومه إني رسول إليكم من الله، وإني أمين على وحيه ورسالته لا أكذب عليكم، ولا شك أنهم قد عرفوا أمانته وصدقه، وأن يكون قد لبث فيهم عمرا قبل أنه يوحى إليه كما هو شأن رسل الله جميعهم، يكونون على جانب عظيم من حسن الأخلاق، ونقاوة السيرة، وكمال المروءة.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

يطالبهم بكلمتين إحداهما لله خالصة ليس لغيره فيها حظ وهي كلمة التقوى، وهو توحيد الله، والإيمان به ،ومراقبته واتقاء سخطه، وطلب رضاه، والكلمة الثانية

هي الطاعة وتكون لله ورسله وما الرسل إلا مبلغون عن رب العالمين ومن يطيعهم فقد أطاع الله وطاعتهم واجبة وهي وسيلة النجاة والفوز والفلاح ما أطاعهم عبد إلا سعد ونجا وما عصاهم إلا ضل وشقي وغوي ولا تعرف عبادة الله إلا عن طريقهم ولا ينال ما عند الله إلا بطاعتهم، فهم أدلاء الخير وأعلام الهدى والرواد الصادقون، والرائد لا يكذب أهله ثم قال لهم :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ .

أي لا أسألكم عليه مالاً ولا رئاسة، ولا عرضا من أعراض الدنيا الدنيئة قال لهم ذلك حتى لا يتهموه بطلب هذه الأشياء، ويظنوه واحداً من هؤلاء الدجالين الذين يخترعون دعوات يطلبون بها الجاه والمال، وكم في الدنيا قديما وحديثا من هؤلاء المتاجرين بالدين، يبتغون به زهرة الحياة الدنيا ويطلبون السيادة على أقوامهم، وهذا ما ظنت قريش بالنبي محمد -ﷺ- حين أرسلوا إليه عمه أبا طالب يعرض عليه مساوماتهم يقولون له : « إن كنت تريد المال جمعنا لك المال حتى تكون أغنى رجل في قريش، وإن كنت تطلب ملكا سودناك حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت إنما أصابك مس من الجن طلبنا لك الدواء» فرد عليهم رسول الله -ﷺ- قائلا : «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يعلو أو أهلك دونه». وكذلك رسل الله لا يطلبون من العباد أجراً إنما يطلبون أجرهم من الله الذي أرسلهم .

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ .

ما أبتغي أجري إلا من رب العالمين الذي أرسلني بهذا الأمر إليكم، وهو مالك يوم

الدين، الذي يجازي عباده المحسنين ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الآية: ١١٠] .

فاتقوا ربكم وحده لا تشركوا به شيئاً، وأطيعون فيما أدعوكم إليه، يغفر لكم ذنوبكم ويمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى، ويجركم يوم القيامة من عذابه، واتقوا الله وأحذروه إن بطشه أليم شديد، هكذا يكرر لهم الأمر بتقوى الله وطاعة رسوله حتى يقيم عليهم الحجة وليبين لهم أهمية التقوى والطاعة، وأن لا ملجأ من الله إلا إليه فماذا كان جوابهم بعد كل هذا النصح وهذا الإلحاح في دعوتهم إلى طريق النجاة والفلاح ؟.

ليتهم استمعوا إليه وأطاعوه، ولكنهم استكبروا وجابهوا رسول الله بالتمرد والإباء والعصيان .

﴿قَالُوا أَنُومِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُومِنِينَ إِنَ اَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الآية: ١١١-١١٥] .

حكى الله هنا مقالتهم هذه على اختصار قصتهم، لأنها المقالة التي يقولها الكفار لرسلهم، وكذلك يقول سادات قريش لرسول الله -ﷺ- ما نرى حولك إلا الفقراء والضعفاء والعبيد، أطرد هؤلاء من حولك إن شئت أن نجلس إليك ونستمع لمقالتك، فحكى الله له هذه المقالة ليبين له أن هذا طبع المستكبرين منذ آلاف السنين، وليثبته على ما وصاه به من المحافظة على أصحابه الضعفاء والفقراء والعبيد ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنَ اغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[الكهف :٢٨] .

قال قوم نوح لنوح عليه السلام : أنؤمن لك أي أتطمع في إيماننا برسالتك وتصديقنا لك ،وما نراك اتبعك إلا أراذلنا الأدنيا المحتقرون ؛ وهم أتباع الرسل في كل زمان، لأنهم يفهمون الحق بفطرتهم السليمة فيتبعونه ويكونون مع أصحابه، أما سادة الناس وكبراؤهم وأغنياؤهم فتصدهم عنه كبرياء نفوسهم، فهم يأنفون أن يتنازلوا عن كبريائهم، ويتبعوا واحدا من الناس يستضعفونه ويرون لأنفسهم الفضل عليه ويرون حوله المحتقرين من الرعايا العبيد والفقراء.

ثم إنهم يعلمون أن هذه الدعوة الجديدة سوف تقلب الأوضاع فيرتفع الأدنى ويتضع الأعلى، ويتساوى الناس، ولا يعجبهم هذا التساوي، بل يحرصون على بقاء نظام الطبقات بمفهومهم هذا ويخافون على مراكزهم التي استولوا عليها بكبريائهم وجبروتهم وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأكثر هؤلاء المؤمنين إما عبيد ومستخدمون، وإما أصحاب حرف كحرف النجارة والحدادة وصنعة الخزف، وغير ذلك من الحرف التي يرونها دنيئة، ويحتقرون أصحابها، ويوهمون الناس أنهم هم العقلاء وأصحاب الفهم والتفكير الجيد وأن هذه الدعوة لو كانت رشيدة ما سبقهم إليها الضعفاء والعبيد، وهم سفهاء في نظرهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[الأحقاف : ١١] .

هذا طبع قديم تعرضت له هذه الآية ليثبت الله النبي والذين ءامنوا، وليسليهم وليربط على قلوبهم، وذكرت الآية جواب نوح لقومه :

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُومِنِينَ إِنَ اَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قال نوح عليه السلام لهؤلاء المستكبرين من قومه : ومع علمي بما يعمل هؤلاء

الذين تحتقرونهم وتريدون طردهم، لست أنا الوكيل عليهم ولا على حسابهم ما حسابهم إلا على الله ربي وربكم وربهم لو تشعرون ، لو كنتم تعقلون وهذا نظير قول الله تبارك وتعالى للنبي -ﷺ- وذلك في سورة الأنعام ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنعام: ٥٢] .

ما كان لنبي من أنبياء الله أن يطرد من حوله المستضعفين من المؤمنين طمعاً في إيمان المستكبرين ﴿ وَمَاعَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾[عبس: ٧]، كذلك قالها نوح صريحة لا هوادة فيها .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤمِنِينَ ﴾ .

أي لست أبداً بطاردهم وهم مؤمنون بربهم يدعونه بالغداة والعشي يريدون وجهه . لست عليهم حسيبا ، وما أنا إلا نذير مبين أبين للناس طريق الخير وطريق الشر ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويَحْيَا من حيي عن بينة ، تلك هي مهمتي وحسابهم على الله .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾[الآية : ١١٦] .

لكن قوم نوح لم يفهموا هذا المنطق بل لجوا في عتوهم وعنادهم، حتى بلغ بهم الأمر أن جابهوا نبي الله بالشر ، وهددوه بالرجم إن هو لم يكف عن دعوتهم إلى دين الله والرجم هو نهاية الأذى والإهانة لأن الرجم للكلاب وما هو دون الكلاب، وكذا في هذه السورة يختصر الله القصة ويأتي إلى نهايتها في موقف مؤثر بعد مضي ألف سنة إلا خمسين عاما أو تكاد من مصابرة نوح لهم، وبعد يأسه من إيمانهم يدعو نوح ربه أن ينتصر له منهم، فيستجيب الله دعاءه وينصره عليهم، وينتقم له منهم وكذلك يفعل الله بالظالمين .

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الآية: ١١٧-١٢٢] .

دعا نوح عليه السلام بعد صبر طويل قال يا رب إن قومي كذبوني، ولم يعد لي مطمع في إيمانهم فاحكم بيني وبينهم بحكمك يا أحكم الحاكمين ونجني والمؤمنين معي ذلك ، لأن نوحا يتوقع عذابا ينزله الله على قومه الكافرين المتمردين المكذبين لله ورسله ولذا طلب النجاة له ولمن معه من المؤمنين فاستجاب الله له وأمره بصنع السفينة ويطوي الله هنا من خبر صنع السفينة، وسخرية قوم نوح ما بسطه في موضع آخر وأمره الله أن يسلك فيها من كل زوجين اثنين من الحيوان حتى لا ينقطع نسلهم، فشحن بهم السفينة ولذا يقول هنا .

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ .

ولم يكن الفلك مشحونا ببني آدم لأنهم كانوا قليلين كما شهد القرآن بقلتهم بل كان مشحونا بأنواع الحيوانات ممن خلق الله وكتب نجاتهم وبقاء أنواعهم ثم يأمر الله السماء أن تفتح أبوابها والأرض أن تخرج مياهها متفجرة وأمر الله بين الكاف والنون، ويقضي الله ما يريد من إهلاك الكفار المكذبين .

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ .

يحكي الله لنا نهايتهم في كلمتين أو ثلاث وهي عليه هينة ويذكر الله فعل الإغراق متصلاً بنون العظمة، وأنى عظمة تداني عظمة الجبار الذي لا يقوم لجبروته شيء، وهو يجير ولا يجار عليه أغرق الله عليهم الأرض وما فيها بعد أن أنجى أولياءه القليلين، ولم

ينج من أعداء الله أحدا حتى ولو كان ابن نبي الله نوح لأنه لما كفر بالله وكان عمله غير صالح لم تشفع فيه قرابته من نوح بل أبعده الله وجرده من الأهلية ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّه لَيْسَ مِنَ اَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[هود: ٤٦] .

هكذا ميزان الله العادل يستوى عنده الناس، ويحظى المتقون وحدهم بمعية الله ونصره ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]، كذلك كانت نهاية الظالمين، وكذلك كانت عاقبة المحسنين .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

إن فيما تقدم مما حكاه الله تعالى علينا من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآية بنية للمعتبرين، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ، وليس كفرهم وعصيانهم بمنقص شيئاً من عزة الله ولا هم بمعجزين، بل للظالمين في كل زمان أجل معلوم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، وإن ربك يا محمد لهو العزيز الجبار المنتقم لايجار من عزته أحدا من الظالمين، وهو الرحيم لا ييأس من رحمته المؤمنون يدرك بعزته الجبارين ويرحم برحمته الضعفاء المستجيرين برحمته، فأعجب لهذين الوصفين من أوصاف الله تعالى، فيهما تهديد لأعداء الله المكذبين، وتسلية لعباد الله المؤمنين وتثبيت لقلوبهم حتى يصبروا ويصابروا، ولا يستكينوا ولا يضعفوا، إن العاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين والحمد لله رب العالمين . ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ
رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

هذه هي القصة الرابعة من قصص الأنبياء السبع في هذه السورة الكريمة، يعرضها الله تعالى علينا عرضاً موجزاً ذا إيقاع مؤثر في لون أخاذ، وهي قصة عاد قوم هود وعاد اسم للقبيلة ،وهي عاد إرم وقوم سيدنا هود عليه السلام أرسله الله إليهم لينذرهم فكذبوه وهم بتكذيبهم إياه مكذبون لجميع رسل الله، لأنهم أنكروا أن يبعث الله إلى الناس رسولاً منهم فهم بهذا مكذبون لأصل الرسالة .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الآية: ١٢٣-١٢٦] .

أرسل الله عبده هوداً رسولاً إلى قومه عاد فكذبوه حين قال لهم إني لكم رسول أمين تعرفون صدقي وأمانتي ولا تنكرون نسبي فأنا واحد منكم جئتكم لأنذركم وأدعوكم بدعاية الإسلام فاتقوا الله ربكم وأطيعون فيما أدعوكم إليه فأنا رسول الله إليكم، ألا تتقون الله ربكم ألا تخشون سخطه وعقابه، إني أدعوكم إليه وأرشدكم وأهديكم إلى طريق الفوز والفلاح ،ولا أسألكم على هذه الدعوة أجراً بل الله الذي أرسلني هو الذي أبتغي عنده الأجر ،وهو الغني الحميد، مالك الملك رب العالمين .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الآية: ١٢٧] .

هي الكلمات التي قالها نوح لقومه وتقدم تفسيرها هناك، ولا لازوم إلى إعادتها هنا .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الآية: ١٢٨-١٣١] .

يخاطب سيدنا هود عليه السلام قومه في الذي بلغوا إليه من الترف، والإقبال على الدنيا والفرح بها، والإعراض عن الدار الآخرة، وترك الاستعداد للموت وما بعد الموت. وهذه حالة أهل الكفر والضلال فهو ينكر عليهم عمارة الدنيا وتخريب الآخرة وكانوا يسرفون في رفع المباني وتضخيمها كأنهم لها يخلدون يوجه إليهم الاستفهام في صيغة الإنكار .

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ .

أتسرفون في البناء وتتخذون الأبراج في كل ريع أي في كل قمة من المرتفعات ، وكانوا يضعون ذلك لأغراض منها التباهي في البنيان حتى يهابهم الناس ويعظموهم وكان كل برج من هذه الأبراج آية في الإتقان وعظمة البنيان وكانوا يعبثون بها في إسراف ومباهاة معجبين بما أوتوا من مال وقوة، غير شاكرين نعم الله عليهم، وكانوا يتخذون مصانع أي قصورا يشيدونها ويرفعونها، وينحتون لها الصخور كأنهم يخلدون فيها ، هذا قول جمهور المفسرين أن المصانع هي القصور ولا مانع أن تكون هذه المصانع بالمعنى المفهوم عندنا أي ديارا لصناعة الأثاث والأدوات والنحت، لأنهم كانوا أهل حضارة ولابد لكل حضارة من صناعات ثم قال :

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ .

إنهم كانوا أهل بطش وقوة وجبروت، غلاظ الأكباد قساة القلوب، هذا ما توحي به هذه العبارة، يقول لهم وإذا بطشتم وغضبتم للانتقام من أعدائكم بطشتم جبارين أقوياء أشداء فلا تنسوا أن الله هو الذي قواكم وأعطاكم ما تتمتعون به من النعم فما بالكم تنسون الخالق الرازق ولا تشكرونه .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

اتقوا الله ربكم يزدكم قوة إلى قوتكم، وأطيعون فيما آمركم وأنهاكم يمتعكم ربكم متاعا حسنا، ويجركم من عذاب أليم، ويؤت كل ذي فضل فضله .

﴿ وَاتَّقُواْ الذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الآية: ١٣٢-١٣٥] .

يذكرهم بنعم الله الوافرة عليهم، فقد متعهم الله بمرافق الحضارة ومرافق البداوة. فهم أصحاب قصور ومصانع وجنات وعيون جارية، وهم أيضاً أصحاب أنعام ومواش. ومتعهم ببنين يرعون هذه الأنعام ويزرعون الجنات ويستثمرونها، ويستغلون الأرض ويحرثونها وهم في هذه النعم الوافرة مترفون منعمون أقوياء مسلطون لا يخافون سطوة عدو، ولا غارة مغير، بل يخاف الناس بطشهم وجبروتهم فذكرهم نبيئهم هود بهذه النعم التي حباهم الله إياها، وفضلهم على الناس بقوة أبدانهم فقد زادهم فيها بسطة. وقد تكون أعمارهم كذلك طويلة، فذكرهم نبي الله هود عليه السلام بهذه النعم قال .

﴿ وَاتَّقُواْ الذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

اتقوا الله الذي متعكم بهذه النعم وأمدكم بما تعلمون، فهم يعلمونها ولا ينكرونها، ويعلمون أنها من الله خالق السموات والأرض، واهب النعم فما لهم لا يعبدونه وما لهم لا يشكرونه، ويبدو أن القوم لم يكن لهم دين يدينون به بل كانوا يعبدون أهواءهم ويتبعون شهواتهم، وكان همهم جمع الأموال وبناء القصور وغرس الجنات واستثمارها فحذرهم رسولهم عليه السلام عاقبة الطغيان، ومغبة التمرد والعصيان قال لهم :

﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

هذه كلمة ناصح محب مشفق قد أطلعه الله على عواقب العصيان التي هم عنها غافلون، وأمره أن يقيم عليهم بهذا الإنذار المبين حجة الله عليهم، وما كان الله ليعذب

القرى وأهلها غافلون، قال لهم يا قوم إني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة يوم تُجزى كل نفس بما كسبت وهو يوم عظيم لا تقبل فيه فدية من الذين كفروا وعصوا رسل الله ولو افتدى أحدهم بملء الأرض ذهبا، في يوم يجعل الولدان شيباً يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا . ذلك اليوم الحق الذي خوف به هود قومه، وهو يعظهم ويذكرهم ،وليت القوم تذكروا واتعظوا ولكنهم ازدادوا طغيانا .

﴿قَالُواْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الوَاعِظِينَ إِن هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الآية: ١٣٦-١٣٨] .

أجابوه بكل غلظة وفظاظة جوابا ينبئ بقساوة قلوبهم، وكبرياء نفوسهم، ولوثتها بما كانوا يكسبون من المعاصي، قالوا سواء علينا وعظك وعدمه لسنا مستمعين لك ولا مؤمنين لك، ولا تاركين دين آبائنا وأجدادنا وأخلاقهم وليس لهم دين إلا دين الشيطان الذي سول لهم وأملى لهم وزين لهم سوء أعمالهم فهم لا يهتدون ولا يسمعون ولا يذكرون بل هم صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، كانوا ينكرون النشور والبعث بعد الموت، كانوا يقولون كما حكى الله عنهم في القرآن ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾[الجاثية: ٢٤]، وفي الدنيا طوائف كثيرة تنكر البعث في كل زمان، تقول : الأرحام تدفع والأرض تبلع، لابعث ولا حشر ولا جنة ولا نار، وقال الله جوابا لهؤلاء ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾[الجاثية: ٢٤] .

وكذلك يفند الله قول هؤلاء الأفاكين الذي منشؤه الظنون والجهل المطلق، فلاحظ له من علم ولا ذرة فيه من الحق، إنما هي فلسفات باطلة استمسكوا بها ليرسلوا أنفسهم في شهواتها وأهوائها وفجورها فلا رقيب ولا حسيب، مذاهب شيطانية اعتنقوها وتوارثوها خلفا عن سلف وذلك قولهم :

﴿ إن هَذَا إلاَّ خُلُقُ الاَوَّلِينَ ﴾ .

وأنكروا الجزاء الذي هو الثواب والعقاب فقالوا : وما نحن بمعذبين ومن أنكر العذاب فعل ما يريد من الآثام والفجور فلا زاجر ولا رادع قال الله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَا هُمُ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّومِنِينَ وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الآية: ١٣٩-١٤٠] .

طوى الله نبأ تكذيبهم وهلاكهم في كلمتين، وأوجز هنا ما بسطه في موضع آخر من كتابه الكريم، فقد ذكر في سورة الاحقاف نبأهم مفصلا وفي سورة هود وغيرها ولكل مقامه ومناسبته وتأثيره إنما يريد الله بهذه القصص تثبيت قلب النبي - ﷺ - والمؤمنين المستضعفين معه وتخويف الكافرين عواقب كفرهم وتكذيبهم ويحذرهم أن تصيبهم صاعقة مثل صاعقة «عاد وثمود» لعلهم يذكرون ويرتدعون عن غيهم وتكذيبهم وظلمهم فقد جعل الهلاك نتيجة للتكذيب وهلاكهم كان بالريح العقيم الصرصر العاتية التي أرسلها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام أحسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فأبادهم الله فلم يترك منهم باقية، وتحولت بلادهم إلى خراب بعد العمارة والنعيم فلا تزال إلى اليوم خاوية بما ظلموا.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ .

أي في هلاكم عبرة للمعتبرين ، وأخبارهم معروفة عند العرب وديارهم غير بعيدة ، هي في جزيرة العرب تحيط بها ديارهم .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

ما كان أكثر الناس مؤمنين بآيات الله بل أكثرهم كافرون وهم عنها معرضون ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم عذاب الله ويومئذ لا ينفعهم إيمانهم ولا هم يُنظرون .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

إن ربك لهو العزيز القوي المنتقم إذ اراد قوما بالهلاك فما لهم من دونه من واق ، وما لهم من ملجأ ولا مجير وهو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شئ ويكتبها للمتقين الذين يؤمنون برسل الله ويتبعونهم تكون عواقبهم حسنة وينفعهم إيمانهم فيجيرهم ربهم من عذاب الدنيا وينجيهم من عذاب يوم القيامة نسأل الله العظيم الذي يجير ولا يجار عليه أن يتغمدنا برحمته في الدنيا وفي الآخرة آمين والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ

مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾
وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ
لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

هذه القصة الخامسة من القصص السبع في هذه السورة، يقص الله تعالى علينا بإيجاز بديع قصة نبي الله صالح عليه السلام، وقومه ثمود الذين كذبوه، فعاقبهم الله وأهلكهم ثم صاروا إلى عذاب الله الأليم ،وكذلك عاقبة الضالين المكذبين يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الآية: ١٤١].

كذب قوم صالح المرسلين حين كذبوا صالحا، لأن تكذيبهم لنبي الله صالح تكذيب لأصل الرسالة، كل ذلك لأنهم أنكروا أن يبعث الله بشرا رسولاً ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾[القمر: ٢٤]، هذا قولهم يحكيه الله تعالى في

سورة القمر، فقد كذبوا بذلك رسل الله كلهم، وثمود اسم لجدهم سميت به القبيلة وصالح منهم، ولذا قال الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الآية : ١٤٢] .

فهو أخوهم بهذا الاعتبار، قال لهم ألا تتقون الله الذي خلقكم ومتعكم بهذه النعم العظيمة، ألا تشكرونه وتعبدونه .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الآية : ١٤٣-١٤٤] .

أكد لهم المطالبة بتقوى الله في صيغة الأمر بعد أن أكد لهم أنه رسول إليهم من عند الله، ليعبدوه ويوحدوه ووصف نفسه بالأمانة، ولا شك أنهم يعرفون صدقه وأمانته، لأنه أخوهم ونشأ فيهم، وكذلك رسل الله لا يكونون إلا أمناء صادقين مؤدبين من قبل الله، قال لهم وأطيعون فيما أدعوكم إليه، فإني أدعوكم إلى النجاة والفوز والفلاح، وأبلغكم ما أرسلت به إليكم فطاعتي واجبة عليكم، وهي من طاعة الله ربي وربكم ولا أبتغي على دعوتي هذه مكافأة ولا أجراً .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول لهم هذا لئلا يتهموه بطلب رئاسة أو مال، لأن همهم الدنيا فهم يتهمون الناس بما يشغل قلوبهم من أمر الدنيا، فقال لهم ما أسألكم على هذا الأمر من أجر مطلقا بل أجري على رب العالمين، الذي أرسلني إليكم وكلفني بهدايتكم وإرشادكم فهو الذي يأجرني، وهو الذي له خزائن السموات والأرض، وبيده ملكوت الدنيا والآخرة، تبارك الله ربي وربكم ورب العالمين ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا واشكروه ولا تكفروه .

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَرِهِينَ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الآية: ١٤٦-١٥٠] .

ألقى عليهم صالح عليه السلام استفهام إنكار مستنكرا فيه حالتهم التي هم عليها من الطغيان والغفلة، وهم غارقون في الترف منعمون يتمتعون بنعم الله الوافرة ولا يؤدون شكرها لواهبها ، قال : أتظنون أنكم تتركون في هذه القصور والجنات آمنين، ولا تعاقبون على طغيانكم وكفركم، ألا تشكرون المنعم الذي متعكم بهذه الجنات والعيون والزروع والنخيل ذات الطلع الهضيم والهضيم هو الليّن اللطيف، ومنه الخصر الهضيم وهذا إشارة إلى جودة ثمارها وليونة رطبها وخصص النخل بالذكر وهي داخلة في الجنات لأهمية النخلة وغناء ثمرها بالغذاء الكافي، فهي أفضل أنواع الثمار تمونُ الانسان، وكثيراً من أنواع مخلوقات الله بالمقدار الكافي من الغذاء الوافر ، وأرانا نزهد فيها ونميل إلى أنواع أخرى أقل قيمة منها، وهذا خطأ كبير، وقد كان اعتماد المعيشة في هذه البلاد على التمر ولا أجود ولا أحلى منه ولا أحسن تقويماً لأجسامنا من التمر فهو هبة الله لهذه البلاد وما أغلاها هبة وما أعظمها نعمة، وجاء ذكر النخل في القرآن كثيرا وجاء ذكره في أشجار الجنة في سورة الرحمن، فإني أدعوكم إلى المحافظة على هذه الشجرة المباركة والمحافظة على غلتها، وأحذركم من تضييعها فستكون الندامة عاقبة من يضيعها، ولنرجع إلى قول سيدنا صالح على نبينا وعليه السلام . قال لقومه :

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَرِهِينَ﴾ .

قال لهم ذلك لأنهم كانوا ينحتون الصخور من الجبال، يتخذون فيها مساكن، ويبنون في جناتهم قصورا فكانوا يترددون بين هذه وتلك في رغد عيش ونعيم، وقد اتخذوا من الجبال بيوتا ليتقوا بها غائلة الريح التي أصابت عادا قبلهم، وقد علموا ما

حل بعاد، فهم يحادون سخط الله بهذه البيوت لأن الريح لا تقتلع الجبال وما علموا أن لله أنواعاً كثيرة من العذاب، وما يعلم جنود ربك إلا هو، فإذا نزل قضاء الله فلا يرده بر ولا بحر ، ذكرهم نبي الله بنعم الله عليهم ،منها قوة أبدانهم التي استطاعوا بها أن ينحتوا بيوتهم في الجبال قال :

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَرِهِينَ﴾ .

أي أقوياء ناشطين متمكنين من أغراضكم .

﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

كرر لهم الأمر بالتقوى بعد التذكير بنعم الله ليشكروه ولا يكفروه وليطيعوه ولا يعصوه، وطاعة الأنبياء من طاعة الله لأنهم مبلغون عن الله فتجب طاعتهم واتباعهم ففي ذلك صلاح أمر الدنيا والآخرة ومعصيتهم هلاك وفساد في الأرض.

﴿وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المُسْرِفِينَ الذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾[الآية: ١٥١-١٥٢] .

نهاهم نبيهم عن طاعة المسرفين لأن المسرفين، على أنفسهم بالمعاصي وهم المترفون أعداء للرسل ودعاة الهدى في كل زمان فهم حريصون على ترفهم ودنياهم وشهواتهم يصدون الناس عن سبيل الله ويغرّونهم بربهم ويوهمونهم أن دعاة الإصلاح مفسدون، وأنهم سفهاء وهم هم السفهاء المفسدون فحذر صالح قومه من فتنتهم وبيّن لهم أنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون فجاء بنفي الصلاح بعد إثبات الإفساد لهم تأكيدا لإثبات المعنى ودفعا لشبهاتهم التي يفتنون بها الضعفاء من الناس فلابد من بيان حالهم ليتقيهم الناس وما أضل الناس إلا المسرفون المترفون الذين رانت على قلوبهم الشهوات،

وأعماهم عن الحق حب السلطة والزعامة، وقرن الله في القرآن حب السلطة وحب الفساد في الأرض .

فقال : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلذينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣]، فمدار الصلاح على تقوى الله، ومدار الفساد على حب العلو والقهر والسيطرة ،وهذه الطباع تكون عادة في المترفين المنعمين المسرفين على أنفسهم وقل ما ينصاع هؤلاء إلى الحق أو يقبلونه .

﴿قَالُواْ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَاتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الآية: ١٥٣-١٥٤] .

كان جواب قومه جواب غلظة وفظاظة كالذين من قبلهم عاد، كأنهم متواصون، قالوا إنما أنت مسحر تمكن فيك السحر، فجئتنا بهذه المقالة العجيبة، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم يوحى إليه ، قالوا ما أنت إلا بشر مثلنا فما الذي فضلك علينا ونسوا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالاته ،وليس من العجب في شيء أن يوحي الله إلى واحد من القوم لينذرهم ويعلمهم مما علمه الله، وهذا من رحمة الله بعباده ومن لطفه بهم أن يبعث إليهم واحدا منهم يعرفون نسبه وصدقه وأمانته .ثم قالوا له على هيئة التعنت والتعجيز .

﴿فَاتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

فأتنا بآية إن كنت صادقا في دعواك وانتسابك للصادقين ، جئنا بأمر معجز خارق للعادة حتى نعلم أنك رسول الله حقا يوحى إليك .

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الآية: ١٥٥-١٥٦] .

قيل إنهم هم الذين سألوا أن يخرج لهم من الصخرة ناقة فاستجاب الله، فأوحى الله إليه أن صل ركعتين وادع الله، وقيل إنهم سألوه أن يخرج لهم ناقة عشراء وأن تلد فصيلاً ولا يستبعد ذلك منهم لأن عادة المكذبين كما هي معروفة يشتطون في السؤال، فدعا الله وتضرع إليه فاستجاب الله له فانشقت الصخرة فخرجت منها ناقة وهم ينظرون، ورجعت الصخرة كما كانت كأنها لم تنشق ولم تتمخض وجعل الله عليهم هذه الناقة فتنة فقد أمرهم سيدنا صالح أن يقتسموا الماء معها نصفين كما جاء ذلك في القرآن .

﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ .

يوم لورد إبلهم وأغنامهم ويوم لها وحدها تضع فمها في مائهم فتمتص البئر كله، ويحلبونها وينالون كفايتهم من لبنها، وكانت مواشيهم تخافها في المراعي، فإذا كانت في أرض ذهبت إلى غيرها، وهي تختار أحسن المراعي وقد قال لهم صالح ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأعراف:٧٣]، ناقة الله ترعى في أرض الله وكل النياق لله، وإنما نسبت هذه ناقة الله لأنها معجزة الله خلقت من غير ناقة ولا بعير، وقد آمن بصالح من آمن بعد ظهور الناقة وقبلها وهم قليلون وكان بين المؤمنين والكافرين تلاح وخصام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[النمل:٤٥]، آمن به المستضعفون وكذبه المستكبرون، كما أخبر الله تعالى بذلك في القرآن في سورة الأعراف ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا

إنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤمِنُون قَالَ الذين اسْتَكْبَرُواْ إنَّا بالذى ءامنتم به كافرُون ﴾[الأعراف: ٧٥-٧٦]، جعل الله ظهور الناقة آية للمؤمنين وفتنة للكافرين فتضايقوا منها ولم يصبروا فتآمروا على قتل صالح وعقر الناقة .

وعصم الله نبيه منهم فلم ينالوا قصدهم منه، ولكن الناقة عقروها ليحل بهم ما قضاه الله من العذاب الذي فيه نهايتهم ليصيروا بعده إلى العذاب الأليم .

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الآية: ١٥٧-١٥٩] .

تآمروا على قتل الناقة لسبب أو لآخر ذلك لأن الله جعلها لهم فتنة فتضايقوا منها فتآمروا عليها، رماها أحدهم بسهم في رجلها فانبعث أشقاهم فعقرها ثم نحرها، وقيل إنهم ندموا بعد عقرها ونحرها فذهبوا إلى سيدنا صالح عليه السلام فقال لهم أدركوا فصيلها فإن أدركتموه فسيرتفع عنكم العذاب، فتبعوه فرغا ثلاث مرات ولم يدركوه إذ انشق الجبل الذي خرج منه فرجع فيه وانغلق عليه، فقال لهم صالح إن العذاب آتيكم لا محالة، ورغاء الفصيل إشارة إلى أجل العذاب أنه آتيكم بعد ثلاثة أيام ﴿ فقال تمتعوا في داركُمْ ثلاثة أيَامٍ ذلك وَعْدٌ غيرُ مَكْذُوبٍ ﴾[هود: ٦٥]، قيل إنه قال لهم : في اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة، واليوم الثاني تصبح وجوهكم محمرة ،واليوم الثالث تسود فيه وجوهكم، ثم يصبحكم العذاب في اليوم الرابع، فكان الأمر كذلك فلما رأوا بعض هذه الآيات ندموا على ما صنعوا وأيقنوا بالهلاك ولاينفعهم الندم يومئذ بعد ما رأوا الآيات وأيقنوا بالهلاك ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ ياتى بَعْضُ آيات ربِّك لا ينْفعُ نفسا ايمانُها لمْ تكُن آمنتْ من قَبلُ أوْ كسبتْ في إيمانها خيراً ﴾[الأنعام: ١٥٨]، كذلك ينتصر الله لأوليائه وينتقم من أعدائه الضالين المكذبين ، لما حان موعدهم أخذتهم

الصيحة وأخذتهم الرجفة ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾[الشمس : ١٤] ، وهنا يقول تعالى :

﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ .

أي العذاب العظيم الذي أنذرهم بيوم وقوعه نبيهم صالح عليه السلام .

كان رجفة عظيمة تصحبها صيحة انفكت لها أوصالهم ، وزهقت أرواحهم ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، وكذلك عاقبة القوم الظالمين .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

إن في ذلك العذاب الذي حل بالقوم الظالمين لآية بينة من آيات الله للمعتبرين ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ، يمنعهم من الإيمان حب العلو وحب الشهوات ، فهو في أذانهم وقر وهو عليهم عمى وما أضل الناس مثل حب الدنيا ، فهو الباب الذي يدخل إليهم منه الشيطان فيستحوذ على قلوبهم ، فهم لا يسمعون ولا يعقلون .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وإن ربك يا محمد لهو العزيز الجبار المنتقم ، لا يفلت من عذابه أعداؤه ، الرحيم لا ييأس من رحمته أولياؤه ، تدركهم رحمته ، وتحف بهم ألطافه ، كما يدرك الظالمين عذابه وما هم بمعجزين ، وفي كلا الأمرين آيات للمعتبرين وتثبيت لأفئدة أولياء الله المستضعفين ، وإنذر للمكذبين .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا

تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ
نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا
عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

هذه القصة السادسة من القصص السبع في هذه السورة من قصص الأنبياء مع أممهم ،وهي لوط عليه السلام، يأمرهم بتقوى الله ويدعوهم إلى طاعته، وينكر عليهم ما يأتون من الخبائث وهو إتيانهم الذكور شهوة من دون النساء ،وأن هذا عدوان يستهدف عقوبة الله وحين كذبوه وعصوه أعلن براءته منهم ومن أعمالهم وطلب من الله النجاة من أعمالهم له ولأهله فاستجاب الله له فنجاه وأهله المؤمنين، وأمطر على الباقين مطر السوء فساء مطر المنذرين وفي ذلك آية للمؤمنين وعبرة للمعتبرين.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الآية: ١٦٠-١٦٤] .

كذبت قوم لوط المرسلين حين كذبوا لوطا ، لأن تكذيبهم إياه تكذيب لجميع رسل الله ، فهو إنكار لأصل الرسالة كما تقدم هذا المعنى فيما سبق .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

حين قال لهم ألا تتقون الله ألا تخافون عذابه لكم عقاباً لكم ، على ما أنتم فاعلون من الخبائث .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ .

أني لكم رسول من الله أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، وأنتم تعرفون صدقي وأمانتي ، وإني لا أبتغي بهذا الأمر أجرا من عرض قريب في هذه الدنيا الفانية ، إنما أطلب أجري عند الله رب العالمين مالك الدنيا والآخرة ، رب السموات والأرض وما بينهما ربي وربكم فاتقوه وأطيعون تنجوا وتسعدوا ولا تشركوا به شيئاً ، بلّغهم رسالة ربه وأنكر عليهم فعل الخبائث :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الآية: ١٦٥-١٦٦] .

أنكر عليهم فاحشة الشذوذ الجنسي ، وهو اللواط في رجالهم ، وقيل والسحاق في نسائهم ، فأكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، وهذا من أقبح ما يبتلى به قوم والعياذ بالله ، وكانوا يأتون الذكران منهم ومن الناس الوافدين عليهم ، وروي أن سبب

انتشار هذه الفاحشة فيهم ولم تكن معروفة قبلهم، أن الشيطان اقترحها عليهم وزينها لهم، وذلك أنهم كانوا في أرض طيبة ذات خصوبة ومياه وثمرات ورخاء فكان ذلك مجلبة للناس فأملى لهم الشيطان أن يصنعوا هذا الصنيع الخبيث بالوافدين إليهم، ليرجعوا عن بلادهم هاربين، ولا يبعد هذا الخبر لاسيما والآية تشير إلى هذا في قول نبيهم :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد يكونون بدأوا بالناس الوافدين ثم انتشرت هذه الخبيثة بينهم واستمرءوها، وتواطئوا عليها، وأخرجوا من بلادهم من استنكرها وأباها طبعه، ولذلك قالوا لنبيهم .

﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ .

هددوه بالإخراج من بلادهم كما أخرجوا من قبله .

في هذه السورة يقول لهم لوط :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وفي مواضع أخرى يقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾[الأعراف : ٨٠]، ويقول : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[النمل : ٥٥]، ويقول : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[الأعراف : ٨١]، وهذا من بلاغة القرآن وإعجازه أن يذكر في آية ما لم يذكره في أخرى حتى تكتمل صورة القصة وتكتمل المعاني المقصودة، نعم إنهم قوم مسرفون وأي إسراف أعظم من هذه الفاحشة التي لم يأتها أحد من العالمين قبلهم وهم قوم يجهلون وهم قوم فاسقون وقد انتشر اليوم هذا الفسق الذي هو الشذوذ الجنسي بصفة علنية في بعض بلاد الدنيا فلينتظروا سخط الله وعذابه وما هو من

الظالمين ببعيد، والله يمهل ولا يهمل ولكل أجل كتاب، ولكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قال سيدنا لوط عليه السلام لقومه:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ .

القرآن يكني ولا يصرح، فتعبير سيدنا لوط عليه السلام هنا بإتيان الذكور يريد به إتيان الشهوة كما جاء في موضع آخر من القرآن والمراد به فاحشة اللواط ثم قال وتذرون أي وتتركون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم أي مباشرة نسائكم في فروجهن قال بل أنتم قوم عادون أي معتدون قال تعالى : ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[المؤمنون:٧- المعارج:٣١]، من ابتغى اللذة الجنسية في غير زوجه أو ما ملكت يمينه من الإماء والسراري فأولئك هم العادون لحدود الله، الظالمون الفاسقون المسرفون الذين يستحقون عقاب الله، لقد نصح لوط قومه فلم ينتصحوا، ونهاهم فلم ينتهوا وما زادهم دعاءه إلا عتوا وفساداً وإمعاناً في فعل الخبائث، فما كان جوابهم له إلا أن قالوا :

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الآية: ١٦٧] .

قال له قومه لئن لم تنته عن هذا الكلام الذي أزعجنا لنخرجنك من أرضنا فتلحق بالذين أخرجناهم قبلك من المتطهرين، لقد زاغت بصائرهم وطمست ضمائرهم، حتى أصبحوا يرون التطهر من الخبث سبة وعاراً يُطرد به أهله من أرضهم، وهكذا تصنع الذنوب إذا رانت على القلوب، وحينئذ صارحهم بالعداء وأعلن البراءة مما يعملون .

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾[الآية: ١٦٨-١٦٩]

قال إني لعملكم الخبيث من القالين المبغضين، إني بريء مما تعلمون أمقت فعلكم هذا، وأبرأ إلى الله منه وأسأل الله أن ينجيني منه ومن عواقبه الوخيمة، ومن سوء المصير الذي ينتظر فاعليه .

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .

تركهم وتوجه إلى ربه يتضرع إليه ويدعوه مخلصا أن ينجيه من شر عواقبه السيئة، كذلك يعلن نبي الله لوط عليه السلام موقفه من القوم المفسدين، ولا يجد منهم ملجأ إلا الله، يدعوه أن ينجيه من عملهم ومن العذاب الذي يحل بهم فاستجاب الله دعاءه . قال تعالى :

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الآية: ١٧٠-١٧٣] .

فنجاه الله وأهل بيته إلا امرأته لأنها كانت كافرة، وكانت راضية بما يصنعون مشاققة لزوجها فحكم الله عليهم بالهلاك، وأن هذه المرأة العجوز تبقى معهم لينزل عليها من العذاب ما ينزل عليهم، ولم يؤمن له إلا أهل بيته باستثناء امرأته، لأن تمكن هذه الفاحشة من نفوسهم حجبت قلوبهم من نور الإيمان، ولما أراد الله إهلاكهم أرسل وفدا من ملائكته المكرمين إلى لوط في صورة شباب مرد فتنةً لقومه ،وحين وفدوا عليه ورأتهم امرأته أرسلت إلى قومها تخبرهم، وما إن بلغهم الخبر حتى جاؤوا يهرعون كالكلاب المسعورة وقد هاجت فيهم طبيعتهم ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُون السَّيِّئَاتِ﴾[هود:٧٨]، فوقف لهم نبي الله لوط بالباب يدافع عن ضيوفه، وما كان

يعـرف أنهم مـلائكة ﴿قَـالَ إِنَّ هَؤُلاَءِ ضَـيْـفي فَـلاَ تَفْـضَـحُـونِ وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَلاَ تخْزُونِ ﴾[الحجر:٦٨-٦٩] .

وقال لهم أيضا : ﴿هَؤُلاَءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[هود:٧٨]، وما كان يقصد بنات صلبه ،وما كان له إلا ابنتان إنما كان يقصد أن يلفتهم إلى زوجاتهم، وقال ذلك تحننا وتلطفا وهو أبوهم جميعا لشيخوخته ورسالته، فأجابوه مصممين مصرين على الفحش ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[هود:٧٩]، قالوا له ما لنا في بناتك من مطلب وإنك لتعلم ما نريد من هؤلاء الشباب، وقولهم هذا يدل على ما بلغوا إليه من الخبث والوقاحة، وهنا ضج نبي الله لوط وقال :﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[هود: ٨٠]، تمنى لو كانت له قوة أن يحاربهم، وهنا في هذه الحالة العصيبة أخبره ضيوفه أنهم رسل الله وملائكته الكرام لن يصلوا إليه فضلا عن أن يطمعوا في الوصول إليهم، فخرج إليهم جبريل عليه السلام فأشار إليهم بيده، فطمس الله أعينهم فعميت فولوا إلى قومهم عميا يدعون بالويل والثبور، ثم أخبر الملائكة لوطا أن موعد هلاكهم الصبح ،وكأنه استبطأ العذاب ،وتمنى لو يهلكون في الحين فقالوا له ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[هود:٨١] .

وأوحى الله إليه أن أسر بأهلك في جوف الليل وكن وراءهم، ولا يلتفت منكم أحد حتى لا يشهدوا شيئاً من عذاب الله، ففعل ما أمره الله به وذهب وتركهم وترك امرأته معهم، ومضى حيث أمره الله حتى إذا حان موعدهم أخذهم الله بنوعين من العذاب، أمطر الله مطرا من حجارة من سجيل مسومة عنده بأسمائهم لا يفلت منهم أحد وجعل عليهم عالي الأرض سافلها، لقد جاءهم العذاب من السماء والأرض فلم يبق لهم أثر، وموضع بلادهم اليوم معروف وهو البحر الميت، ذلك هو عذاب الدنيا ولعذاب الآخرة

أشد وأبقى نسأل الله السلامة والعافية ونعوذ بالله من مصير الظالمين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الآية: ١٧٤-١٧٥] .

إن في تدميرهم وإهلاكهم آية عظيمة من آيات الله وعبرة للمعتبرين، وليت الناس يعتبرون ولكن أكثرهم لا يؤمنون ، وإن ربك يا محمد لهو العزيز الذي لا يغالب ، فتوكل عليه وثق بنصره لك وللمؤمنين ، وهو الرحيم فلا تيأسوا من رحمته إن رحمة الله قريب من المحسنين والحمد لله رب العالمين . ﴿ كَذَّبَ

أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ
مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ

ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ
عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

هذه القصة السابعة والأخيرة من هذه السورة الكريمة، قصة سيدنا شعيب عليه السلام وقومه أهل مدين ،وهم أصحاب الأيكة، ومدين قيل اسم للقبيلة، وقيل اسم للمدينة ،ولا مانع أن يكون اسما لهما معا، وقد تسمى بعض البلدان باسم القبيلة التي تسكنها وتعمرها وليكة اسم لغابة ملتفة الأشجار وهي ضواحي مدينتهم التي تقع على ساحل خليج العقبة قرب رأس الخليج .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الآية: ١٧٦] .

ترد هذه العبارة في القصص التي قبل هذه القصة لأنه كما تقدم لنا في التفسير أن من كذب رسولا واحدا فقد كذب بجميع المرسلين، لأنهم أنكروا أن يبعث الله بشراً رسولاً .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ أَجْرٍ إِنَ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الآية: ١٧٧-١٨٠] .

أي كذبوه حين قال لهم إني رسول صادق تعرفون صدقي وأمانتي وإني رسول من الله إليكم لأنذركم وأعظكم، ألا تتقون الله أن يعاقبكم على كفركم وأكلكم أموال

الناس بالباطل ، فاتقوا الله ربكم ووحدوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً ، وأطيعون فيما آمركم به ، وأدعوكم إليه من الرشاد وأنهاكم عنه من الفساد ، ولا تعصون وما أسألكم على هذا الأمر من أجر من عرض الدنيا الفانية ، بل أجري على الله الذي أرسلني إليكم وكلفني بهدايتكم ، وهو ربي وربكم ورب العلمين ، هو الغني الكريم له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه يرجع الأمر كله ، فاتقوه وخافوه ولا تعصوا رسله ، ولا تعثوا في أرضه فساداً ، ووعظهم في قصة طويلة ولكن قصص الأنبياء تختصر في هذه السورة ، يذكر الله فيها مبدأ الرسالة وأصل الدعوة ، وتكذيب الأقوام وإعراضهم ، ونزول العقوبة بهم ، وفي ذلك تثبيت لفؤاد نبي الله وأفئدة المؤمنين المستضعفين ، ووعيد للكافرين والمكذبين وتخويف لهم ، وفي هذه اللمحات القصيرة في جو هذه السورة الناطق بالعبر موعظة للمتقين وذكرى للذاكرين ، وبعد دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى عبادة الله وطاعته يعظهم فيما هم منهمكون فيه ، وهو حب الدنيا الذي جعلهم مطففين للمكاييل والموازين قال لهم :

﴿أَوْفُواْ الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الآية: ١٨١-١٨٣] .

أوفو الكيل إذا كلتم وأوفوا الميزان وزنوا بالقسطاس المستقيم ، والقسطاس هو الميزان الدقيق العادل ، ذلك لأن سرقة الكيل والوزن كانت طبيعة منتشرة فيهم ، وهي ظلم وأكل لأموال الناس بالباطل ، والقليل من أموال الناس يورث النار ، فليحذر تجارنا الذين لا يخشون ربهم في الكيل والوزن ، ويعبثون بالموازين ويحتالون لخيانتها من حيث لا يشعر الزبائن ﴿أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[المطففين: ٥-٦] ، ألا فليحذر الخائنون من عذاب يوم عظيم .

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

قال لهم شعيب ولا تبخسوا الناس، أي لا تغبنوهم ولا تغشوهم ولا تخونوهم في المعاملات فذلك ظلم حرام ولكنهم لم يقبلوا قوله وردوا عليه في تمرد وكبرياء وسخرية وذكر الله ردهم في سورة هود ﴿ قَالُواْ يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَامُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوَ اَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ اِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[هود:٨٧]، نهاهم عن الإشرك بالله، ونهاهم عن خيانة الكيل والوزن، وعن أكل أموال الناس بالباطل، وعن الإفساد في الأرض، فلم ينتهوا وما زداهم نهيه إلا إمعانا في الظلم والفساد، ذلك لأنهم كذبوا رسالته وأنكروا الوحي واتهموه بأنه مسحور تمكن فيه السحر، فهو يتكلم بما لا يعرفون ،وتحدوه إن كان رسولاً حقاً أن ينزل عليهم عذابا من السماء، قال لهم واعظا ومنذرا .

﴿ وَاتَّقُوا الذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ [الآية: ١٨٤] .

واتقوا الله الذي خلقكم وخلق من كان قبلكم من الآباء والأجداد وأمهاتهم، وجعلكم خلفاء من بعده فاتقوه وخافوه واحذروه فما نفعهم هذا الانذار.

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ اِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[الآية: ١٨٥-١٨٧] .

أنكروا أن يبعث الله بشراً رسولاً وقالوا مسحور بل أكدوا قولهم وقالوا إنما أنت مسحر لا تدري ما تقول ما أنت إلا بشر مثلنا فكيف تدعي أن الله يوحي إليك لو كان فاعلا ذلك لبعث إلينا ملكا رسولاً .

وتلك شبهة جميع الكفار الذين كذبوا الرسل، وليس على الله بعزيز أن يختار

أحدا من الناس ممن يعرفون صدقه وأمانته ونزاهته، فيوحي إليه لينذرهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ولكنها الأهواء والشهوات تصد النفوس وتعمي القلوب، وحب التسلط والكبرياء يمنعان السادات والكبراء من الإيمان، والناس لهم تبع يقلدونهم ويعبدونهم من دون الله، وقد استعبدوهم حتى في ضمائرهم وأفكارهم، ويوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، بعد فوات الأوان يوم لا ينفعهم إيمانهم، ويوحي الله تعالى بهذه الأنباء لرسوله الخاتم - ﷺ - حتى يطمئن ويصبر إذا علم أن هذه طبيعة الكفار منذ القدم وهذا جوابهم لأنبيائهم قبله فلا يحزنه إعراضهم وتكذيبهم إياه، فقد كذبوا قبله رسل الله وآذوهم وتحدوهم بإنزال العذاب من السماء، لقد قالوا لسيدنا شعيب عليه السلام بعد إنكارهم نبوءته واتهامه بالسحر . قالوا له :

﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

اتهموه أيضا بالكذب وأكدوا ظنهم بمؤكدين لأنهم يريدون الجزم بهذا الظن وهم هم الكاذبون المكذبون الضالون لعبت بهم الأهواء وغرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور، هكذا كذبوه وسألوه أن يسقط عليهم من السماء كسفا إن كان حقا صادقا في رسالته وهذا أقصى ما يبلغ المكر والتكذيب، وتبلغه قساوة القلوب فما كان جواب رسولهم إلا أن قال لهم إن هذا الأمر ليس بيدي بل هو بيد الله الذي يعلم سركم ونجواكم، وما أنا إلا نذير مبين، أبلغكم ما أرسلت به إليكم.

﴿ قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الآية : ١٨٨] .

قال لهم ربي الذي أرسلني إليكم أعلم بما تعملون من ارتكاب ما أنهاكم عنه، وهو

محاسبكم ومجازيكم على أعمالكم ومعاقبكم متى شاء، وهو الذي يمسك السموات والأرض هو مالكها ومالك كل شيء وهو على كل شيء قدير، وهذا الكلام من نبي الله شعيب دليل على التفويض التام والتوكل التام على الحي الذي لا يموت، وعليه يتوكل المتوكلون .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الآية: ١٨٩]

قال الله تعالى : فكذب قوم شعيب شعيبا وعصوه، وبلغوا من الكفر حيث يستحقون الدمار والهلاك، ولكل أمة أجل، فعاقبهم ربهم في يوم عظيم بثلاثة أنواع من العذاب ، عذاب الظلة المذكور هنا، وعذاب الرجفة والصيحة المذكورين في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، إن الله جعل هلاكم بالظلة التي أظلتهم وأمطرت عليهم صواعق من نار، وارتجفت الأرض وأخذتهم صيحة كصيحة ثمود، وقد أنذرهم قبل ذلك شعيب أمثال أيام الأمم التي أهلكها الله من قبلهم، ذكر الله ذلك في سورة هود حيث قال جل من قائل على لسان شعيب ﴿ وياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[هود: ٨٩] .

لقد كان قوم لوط قريبي المنازل قريبي العهد من قوم شعيب، فبلاد مدين قريبة من قرية سدوم حيث البحر الميت ولذا قال :﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[هود: ٨٩] ولم ينفع هذا الإنذار فلما جاء أجلهم أصابهم الله بحر شديد تكاد أنفاسهم تختنق مدة سبع ليال بأيامها ثم إن الله أرسل ظلة، سحابة أظلتهم فيها برد ونسيم، فهرعوا جميعا إلى ظلها يتنسمون هواءها البارد بعد الحر اللافح الخانق، ولما احتشدوا كلهم في ظل السحابة أمطرتهم بصواعق من نار وارتجفت بهم الأرض في رجفة عظيمة تصحبها صيحة لا يعلم نكارتها إلا الله، فأصبحوا في ديارهم جاثمين لم ينج منهم أحد

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[هود: ١٠٢]، ونعوذ بالله ربنا من مصير الظالمين .

﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[الآية: ١٩٠-١٩١] .

إن في ذلك أي فيما تقدم من أنباء الرسل ونصر الله إياهم وإهلاك الظالمين لآية بينة لقوم يتذكرون فيعتبرون، وما كان أكثر الناس مؤمنين برسل الله وآياته البينات، وإن ربك لهو العزيز القوي القاهر إذا أخذ الظالمين أخذهم أخذ عزيز مقتدر يدمدم عليهم ولا يخاف عقباها ، وهو الرحيم الذي تنال رحمته المؤمنين فينجيهم من الهلاك الذي يصيب الكافرين، وينجيهم يوم القيامة من العذاب الأليم، ويكتب لهم الفوز والفلاح ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾

فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

وإنه لتنزيل رب العالمين ، إن هذا القرآن تنزيل من لدن رب العالمين، تأكيدات لغوية وتحقيقات برهانية أن هذا الذي يتلوه محمد -ﷺ- على قومه إنه كلام رب العالمين، فمن كذبه فقد كذب المرسلين ورد كلام الله ، وهنا عود على بدء فقد جاء في ختام هذه السورة الكريمة ما جاء في بدايتها ولنذكر بدايتها ﴿ طَسِّمٓ تِلْكَ ايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين لعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُومنِينَ ﴾[الشعراء : ١-٣] ، ذلك أن النبي -ﷺ- أخذه الحزن والغم أن لا يؤمن به قومه فطمأنه الله ، وأكد له أن الذي ينزل عليه كتاب الله المبين منزل من عند رب العالمين بالآيات البينات حتى يخفف عن قلبه الغم والحزن إن لم يؤمن به الكفار من الناس، وقص عليه في أثناء السورة سبع قصص موجزة من قصص أنبياء ثمانية أرسلوا إلى أقوامهم بما أرسل به، وكذبوهم وآذوهم كما كذبه قومه وآذوه فنصرهم الله وأهلك الأقوام المكذبين، فليتأس بهم وليصبر إن العاقبة للمتقين.

وأخيرا بعد سرد قصص الأنبياء بأسلوب متشابه موجز له وقع في النفوس وتأثير بليغ، رجع فأكد له الخبر أن هذا الكلام الذي ينزل عليه هو كلام الله رب العالمين، واختار لفظ الرب وأضافه للعالمين ليذكرنا أن الله الذي خلق العالمين ورباهم بنعمه وغذى أجسامهم ونماهم، حري أن يربي نفوسهم وأرواحهم بالهدى والحكمة ويربي

قلوبهم بنور القرآن ثم إن الله تعالى بين أن هذا الذكر الحكيم المنزل نزل به الروح الأمين على قلب النبي -ﷺ- والروح الامين هو جبريل عليه السلام أمين الله على وحيه ونزوله على قلب محمد -ﷺ- زيادة بيان وتأكيد، وإذا كان النزول على القلب مباشرة كان أرسخ وأثبت وأكمل حفظا ورعاية، لأنه لو نزل كلا ما على السمع لقال قائل: إن السمع قد تخفى عنه بعض الحروف وتفوته فلا يسمعها، أما إذا كان النزول على القلب مباشرة، والنازل جبريل، والموحي رب العالمين، فكيف يتطرق الوهم والشك إلى الأفكار في صحة هذا الكلام وكماله وصدقه، فانظروا كيف أحاط الله تعالى هذا الوحي المنزل بسياج من حفظه ورعايته حتى يضمن وصوله إلينا سالما من كل تبديل أو تغيير أو زيادة أو نقصان .

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الآية: ١٩٢-١٩٥] .

إن هذا الكلام وحي منزل من رب العالمين، نزل به الروح الأمين جبريل على قلبك يا محمد لتكون من المنذرين، ولم يقل لتكون منذرا، بل يريد الله أن يسلكه في صفوف المنذرين فليصبر كما صبروا إن أوذي كما أوذوا فإن العاقبة للمتقين، ونصر الله لجنوده العاملين المخلصين، ولا عدوان إلا على الظالمين . واختار الله لكتابه الذي هو القرآن اللغة العربية فقال :

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ .

وهو أقوم للحجة على قومه العرب، وليتعلم غيرهم لغتهم حتى يفهموا كلام الله وكلام رسوله وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ولابد أن يكون من قومه العرب دعاة مبلغون إلى الأمم غيرهم، يحملون مشعل الهداية في يد والسيف في يد آخر حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . ثم قال تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ [الآية: ١٩٦] .

وإنه أي القرآن ونزوله عليك ورسالتك لفي الكتب الأولى التى نزلت على الأنبياء والرسل من قبلك ، لقد بشرت بك الرسل أقوامها، وفي غير موضع من القرآن ذكر هذا المعنى، ففي سورة الأعراف ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[الأعراف: ١٥٧].

وبشر التوراة والانجيل بمحمد -ﷺ- وصحابته ومن بعدهم الذين يؤمنون به، وفي سورة الفتح جاء ذكر ذلك ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾[الفتح: ٢٩]، ورسالة محمد -ﷺ- دعا بها أبونا إبراهيم عليه السلام ذكر الله ذلك في سورة البقرة ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٩]، فهم إذن يعرفونه ولا ينكرونه، وما منعهم من الإيمان به إلا الكبرياء والحسد . قال الله تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الآية: ١٩٧] .

أغفل كفار قومك وعموا عن آيات الله البينات التي تثبت نبؤتك ورسالتك، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل، لقد شهد العلماء الصالحون من بني إسرائيل أن محمدا هو نبي آخر الزمان ورسول الله إلى الناس كافة، فآمنوا به وأسلموا بل حتى الكفار منهم كانوا يذكرون وصول زمان بعثته وكانوا يستفتحون على الذين كفروا من الأميين به ، ذكر الله ذلك في سورة البقرة في الحديث عن بني اسرائيل قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: ٨٩] .

كان اليهود في المدينة يستفتحون على الأوس والخزرج يقولون لهم : قد أظل زمان نبي يبعث وسنقاتلكم به فنقتلكم قتل عاد وإرم ولكن لما بعث من العرب أنكروه حسدا من عند أنفسهم فلم يؤمن به إلا قليل منهم ونعوذ بالله من الخذلان .

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[الآية: ١٩٨-١٩٩].

قال الله تعالى ولو نزلنا هذا القرآن على بعض الأعجمين فقرأه عليهم بلسان عربي مبين ما ءامنوا به رغم أن المعجزة تكون حينئذ مزدوجة : كون القرآن معجزا في ذاته، ونطق الأعجمي به بلسان عربي فصيح والأعجم من لا يعرف العربية ولا يحسن النطق بها ويدخل في هذه اللفظة حتى البهائم، روي عن ابن مسعود أن أحدا سأله عن معنى الأعجمين وكان راكبا على جمل فقال هذا الأعجم إشارة إلى جمله، يقول الله تعالى : إن هؤلاء القوم مصرون على تكذيبهم بهذا القرآن حتى ولو نطق به أعجم ما كانوا

يؤمنون به وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً في قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[الأنعام : ٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[الحجر : ١٤-١٥] ، وهذا من الله تعالى تسلية وتطمين لقلب نبيه محمد - ﷺ - حتى لا يظن أن عدم إيمانهم به لتقصير منه في الدعوة والتبليغ ، يقول الله له إن هؤلاء قد أصروا على كفرهم ولم يعولوا على فهم ما جئتهم به من الحجج والبراهين ، فهم لا يسمعون ولا يعقلون ولو سمعوا بآذانهم ما استجابت قلوبهم لأنها قلوب مطموسة بالشهوات والآثام . يقول الله تعالى : .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾[الآية : ٢٠٠-٢٠٣] .

يقول الله تعالى كذلك سلكنا القرآن في قلوبهم هذا المسلك إنهم إن سمعوه يسمعونه بهذه الطريقة وهم مصممون على إنكاره ورده وهذا لإجرامهم وقد اختار الله هنا كلمة المجرمين وجعلها إظهاراً مكان الإضمار ، وكان يمكن أن يقول : في قلوبهم ولكن قال في قلوب المجرمين لنفهم علة هذا الطبع والختم ، ويقول أهل اللغة والمعاني : إن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق ، إن الله لم يكن ليفعل بهم هذا لولا إمعانهم في الإجرام ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[يونس : ٤٤] ، فقلوب هؤلاء قد أظلمت وران عليها إجرامهم ، فهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم ، علم الله منهم ذلك فلن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم في ساعة لا ينفع فيها الإيمان حين يوفيهم الله حسابهم والله سريع الحساب ،

وحينئذ يندمون ولات مندم ولات مناص، ويأخذهم العذاب على غرة وهم لا يشعرون بنزوله قبل أن ينزل .

﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ .

وهذه المقالة منهم تدل على حد ما يصلون من الندم المر والحسرات، فهم يطلبون الإنظار حتى يتوبوا ويصلحوا ما أفسدوا ولكن هيهات، وقولهم :

﴿ هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ .

استفهام يراد به التمني والطلب الملح في وقت عصيب وهم يرون العذاب الأليم المباغت، وهم يتحرقون أسفا على تفريطهم وإعراضهم وكفرهم ، هكذا يعرض الله تبارك وتعالى مشهدهم هذا المؤثر ليتعظ من يريد به الخير منهم ويتذكر قبل فوات الفرصة ثم يقول الله تعالى :

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾[الآية: ٢٠٤-٢٠٧] .

أمستخف قومك هؤلاء بعذاب الله فهم يستعجلون به ويقولون متى هو ؟ ﴿ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴾[الإسراء: ٥١] ، إن استعجالهم لن يقدم ولن يؤخر من قضاء الله شيئًا ، إنهم يوم يأتيهم العذاب لن يستطيعوا له دفعا ، إنهم مغترون بعافية الله وهي لن تغنيهم من الله شيئاً يوم يجيئهم العذاب ولو طالت .

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

أفرأيت يا محمد إن متعناهم بمتاع الدنيا سنين طويلة وطال أمد النعيم عليهم، ثم

جاءهم أمرنا بعذابنا الذي كانوا يوعدون، فهل يغني عنهم ما كانوا يمتعون به من الأموال والبنين والأنصار وغير ذلك من متاع الدنيا إنه لن يغني عنهم شيء من ذلك يوم يجيئهم عذابنا في موعده المحدد، إنهم مغترون بطول أمد العافية، فهم يتحدونك باستعجال وعد الله، وليس ذلك بيدك ولا بيدهم ولكن يوم يأتيهم لا يستطيعون له دفعا ، وهذه الآية العظيمة لها وقعها الكبير في القلوب الشاعرة، وهي تسلية من الله لنبيه وأصحابه المستضعفين الذين ربما يقلقون ويضجرون بما يعانون من هؤلاء الكفرة من الأذى، وهم في عافية وإقبال من الدنيا قد طال نعيمهم وازدادوا بذلك طغيانا، يقول الله لهم لا تقلقوا ولا تضجروا فما هي إلا أيام زائلة وأمر الله آت لا ريب فيه ، ويوم يأتيهم العذاب فكأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، رُويَ أن أحدهم إذا غمس في العذاب غمسة يُسأل : هل رأيت نعيما في الدنيا أو خيرا؟ فيقول: ما رأيت خير قط، غمسةٌ واحدة في العذاب تنسيه عمراً طويلاً في نعيم الدنيا ومتاعها وما متاع الدنيا في الآخرة إلا قليل، ونعوذ بالله من الاغترار بنعيم الدنيا ومتاعها، ونعوذ بالله من مصير الظالمين .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[الآية: ٢٠٨-٢٠٩]

آخر الأمر بعد عرض هذه القصص، وبعد الكلام عن كفار هذه الأمة يحكم الله حكمه الذي يبين فيه سنته المبنية على العدل، وإنه لا يهلك أمة إلا بعد الإنذار وبعد قيام حجة الله عليهم، يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ .

وما أهلكنا قرية من القرى بعذاب نأخذهم به في موعد محدد إلا وقد أرسلنا إليهم قبل ذلك منذرين يعظونهم ويخوفونهم عذاب الله، ويذكرونهم وما كنا ظالمين ، ينفي الله

عن نفسه الظلم وأفعاله في خلقه كلها عدل وحكمة وهو الخالق المالك، ولكنه حرم على نفسه الظلم وحرمه على الناس، وقال وما كنا ظالمين ونفي الكون أبلغ من نفي الفعل، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠]، وكذلك يقيم الله بهذه الرسالة العامة الباقية حتى تقوم الساعة يقيم بها الحجة على الناس كافة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة ولا أحد أحب إليه العذر من الله . ثم إن الله تبارك وتعالى ينزه كتابه وغيبه عن أن تناله الشياطين أو تتنزل به فيقول: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ .

بعد التأكيد بإثبات الحق أن هذا القرآن تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على محمد الأمين -ﷺ- وعلى جبريل وسلم ،يأتي التأكيد بالنفي لزيادة إبعاد الشبه والظنون عن كلام رب العالمين، ينفي عنه ما يحاول الأفاكون إلصاقه بالرسالة والوحي، فهم تارة يقولون سحر، وتارة يقولون كهانة، وتارة يرمون صاحب الرسالة بالكذب والافتراء وتارة يرمونه بالجنون وتارة يقولون شاعر ويقولون له شيطان رءي من الجن يلقي عليه الكلام فأراد الله تبارك وتعالى نفي هذه التهم وإبعادها عن كلامه الحق ورسوله الصادق الأمين فقال :

﴿ وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الآية: ٢١٠-٢١٢]

إن هذا الكلام وحي من عند رب العالمين تنزل به جبريل وما تنزلت به الشياطين

ومـا ينبـغي لهـم ذلك ، وليـسـوا له بأهل ، لأن كـلام الله عـال وطيب ومكنون ومحفوظ ، فمن أين تناله الشياطين وهم أنجاس خبثاء ،والطيب المكنون لا يناله الخبيث الملعون فأنى تؤفكون ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة : ٧٧ - ٧٩] ، أنى يبلغ الشياطين هذه المرتبة العالية ، بل حتى الاستماع لا يُمَكَّنُونَ منه فإنهم عنه لمعزلون ، وقد كانت لهم مقاعد للسمع قبل مولد النبي -ﷺ- فعزلوا عنها وطردوا بالشهب الثواقب منذ ليلة ميلاده ، فهم لا يستطيعون الاستماع إلى الملائكة ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾[الحجر :١٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[الصافات : ١٠] ، يسترقون الكلمة فيلقونها إلى قرنائهم من الإنس وهم الكهان ، فيخلطون بها مائة كذبة ، ويتمتمون ويغمغمون وكلام الله أقدس وأعلى من أن تناله الشياطين أو تتنزل به أو تأتي بمثله فهم لا يستطيعون وما ينبغي لهم وأنى لهم ذلك ، ودون ذلك شهب ثاقبة وعذاب واصب ، إنه كلام رب العلمين يتنزل به الروح الأمين على قلب رسول الله الطاهر الطيب الزكي -ﷺ- ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ
إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩ وَمَا
تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١
إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤
وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ
فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ
ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ
وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤
أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا
ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧

يخاطب الله تعالى نبيه بهذا الخطاب الذي يختم به السورة الكريمة، بعد ما بين له ولنا جميعاً في أثناء السورة عاقبة أهل الشرك والضلال الذين كذبوا المرسلين وعصوهم فأخذهم الله بذنوبهم، وعاقبهم على شركهم وعصيانهم عقابا أليما، وجعل من أنبائهم عبرة للمعتبرين، وذكرى للذاكرين، ولكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، وما كان الله ليهلك قرية حتى يبعث فيها نذيرا يتلو عليهم آيات الله وما كان الله ليظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون، بعد هذا العرض الموجز لنبإ موسى ونوح وإبراهيم ومن بعدهم، يخاطب الله نبيه بالنهي عن عبادة غير الله ويتوعده إن هو فعل ذلك إن يكون من المعذبين .

﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً اخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الآية: ٢١٣]

يقول الله تعالى لنبيه مخاطبا إياه وخطابه ونهيه له خطاب ونهي لأمته من بعده : يقول فلا تدع مع الله إلها – آخر، ذلك لأن الدعاء عبادة، فمن دعا غير الله فقد عبد غير الله، إن الله لا يغفر أن يشرك به غيره في العبادة ولا في الخوف ولا في الرجاء ولا في التوكل، ولا في الحلف، ولا في النذر، ولا في سائر التوسلات والتقربا ، يحذر الله نبيه كل أنواع الشرك ويتوعده بالعذاب إن فعل ذلك وما كان لنبي من أنبياء الله أن يشرك بالله ولكن أمر الشرك أمر عظيم، فاقتضى أن يحذر الله منه أنبياءه ويتوعدهم بالعذاب وما هم إلا عباده غير أنه اصطفاهم واجتباهم لعبادته وتبليغ رسالاته، وليس بين الله وبين خلقه نسب ولا صلة إلا صلة التقوى، وفي نهي الله أنبياءه عما نهاهم عنه وتخويفه إياهم بالعذاب تخويف لنا فإذا كان رسول لا ينجو من عذاب الله إن عصاه فكيف يطمع غيره في النجاة وهو يكفر به أو يعصيه، وفيما أنزل على

رسول الله -ﷺ- قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[الأنعام:١٥ ؛الزمر:١٣] .

هكذا العبودية المحضة يحققها أنبياء الله بتواضعهم وإخلاصهم في عبادة ربهم، وإخباتهم لربهم العظيم ،ووصف الله نبيه بالعبودية وصف تشريف فقال : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾[النجم:١٠]، وقال جل من قائل ﴿ سُبْحَانَ الذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾[الإسراء:١] ، فهم عباد الله قبل أن يكونوا أنبياءه ورسله، يخافون ربهم ويبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وهم أعلى مثال لنا في الخضوع لله والعبودية له وإتيان أوامره، واجتناب نواهييه، وهم أسوة لنا عليهم السلام .

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الآية: ٢١٤]

بعد أن أنذر الله نبيه ورسوله عليه السلام ،أمره أن ينذر عشيرته الأقربين حتى لا يطمع أحد من الناس أن تشفع له قرابته من رسول أو ولي ، فجمع النبي -ﷺ- بني عبد مناف فأنذرهم وقال لهم : ألا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، إني لا أغني عنكم من الله شيئاً إنه من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وجمع أقرباءه الخاصين وقال لهم مناديا لهم بأسمائهم :يا عباس عم النبي، يا فاطمة بنت رسول الله ،يا صفية عمة رسول الله، يا عاتكة عمة رسول الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً وأنذرهم وخوفهم كما أمره الله، فلا يطمع بعد هذا أحد في نسب فإن الأنساب لا تغني شيئا إنما الشأن هو التقوى والعمل الصالح، فكيف يزعم كثير من الناس أن أنسابهم تنفعهم وتنقذهم من النار، إنهم يزعمون باطلاً ويقولون إفكا «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الآية: ٢١٥]

يأمر الله نبيه -ﷺ- أن يتواضع لمن اتبعه من أصحابه المؤمنين، وخفض الجناح كناية عن التذلل والتواضع، وذلك لأن الطائر عند نزوله إلى الأرض يخفض جناحه وعند طيرانه يبسطهما ويحركهما ووردت هذه العبارة أيضا في حق الوالدين حيث قال تعالى في سورة الإسراء ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾[الإسراء: ٢٤]، وصى الله نبيه بذلك ووصيته له وصية لنا جميعا والتواضع من أحسن صفات عباد الرحمن الذين يحبهم الله ويكرمهم وقد أدب الله رسوله أحسن تأديب، ونشأ على خصلة التواضع وغيرها من جميل الخصال، ولكن يريد هنا أن يؤكد له الأمر بالقول حتى يكون عظة وتأديبا لأمته من بعده، وفي القرآن عبارات تؤكد مثل هذا المعنى منها في سورة الكهف ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاوةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف: ٢٨]، الآية، فهو تبارك وتعالى يوصيه ويؤكد الوصية بأصحابه المؤمنين الضعفاء فأكثرهم يومئذ شباب فقراء ومنهم عبيد وأحلاف غرباء كبلال وصهيب وابن أم مكتوم وآل ياسر وخباب وأمثالهم رضي الله عنهم فوصاه الله بهم جبرا لخواطرهم وتكريما لهم لسبقهم إلى الإسلام، فهم السابقون الأولون وغيرهم لهم تابعون رضي الله عن الجميع وجعلنا لهم متبعين.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[الآية: ٢١٦]

فإن عصاك هؤلاء الكفار المتكبرون من قومك ومن غيرهم فقل إني برئ مما تعملون، تبرأ إلى الله من عصيانهم فإن عصيانهم حينئذ لا يضرك بل يضرهم وحدهم وهذا أصل البراءة من أفعال العاصين في كل زمان ومكان وهذا أمر لنا جميعا أن نتبرأ ونعلن البراءة

ما أمكن من العصاة ومعاصيهم وهذا في حال الضعف كحال النبي -ﷺ- قبل الهجرة أما إذا كانت القوة والغلبة للمسلمين فلا يكفي هذا بل لابد من تغيير المنكر بالفعل ، ولابد من الأخذ بأيدي الفجرة الظالمين أهل المنكر ، وهذا واجب أئمة المسلمين وأمرائهم ومن بيده القوة لورود الحديث «من رأى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» فلابد باستحضار الظرف الذي نزلت فيه هذه الآية على النبي -ﷺ- حتى لا نخطئ بوضع الأشياء في غير مواضعها .

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ الذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[الآية : ٢١٧-٢١٩]

أمر الله نبيه وكل تال للقرآن بالتوكل على الله العزيز الرحيم ، واختار الله هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله تعالى هنا وفي ختام كل قصة من قصص أنبيائه الكرام في هذه السورة الكريمة وذلك لما يوحي به هذان الوصفان من المعنى المناسب للموضوع ، ومن أحق بالتوكل عليه من العزيز القوي الذي ذلت لعزته جميع خلقه فمن ينصره منهم فلا غالب له ومن يخذله فمن ذا الذي ينصره من بعده ، ومن أحق بالتوكل عليه من الرب الرحيم الذي يرحم أولياءه ويرأف بهم ويتولاهم بحفظه ويستجيب دعواتهم وينشر عليهم رحمته وهو الولي الحميد وقد رأينا فيما سبق من قصص هذه السورة كيف نجى الله أولياءه برحمة منه فلم يصبهم ما أصاب أقوامهم الكفار من العذاب وكذلك يرحمهم يوم القيامة فلا يحزنهم الفزع الأكبر ويرحمهم فيدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار يجزيهم فيها الجزاء الأوفى ، ويرضى عنهم ويرضيهم بما كانوا عليه من الإيمان والإحسان وحسن الصبر والتوكل .

﴿ الذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ .

توكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم في الصلاة وفي صفوف المصلين، ويرى تقلبك في الساجدين حين تخفض وترفع رأسك راكعا وساجدا، وحين تقلب وجهك في السماء داعياً خائفاً وراجياً أإنه لا يخفي عليه شيء من عبادتك وابتهالك ولا يخفي عليه ما في قلبك من إخلاص وخوف ورجاء .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

إنه هو السميع لأصوات الداعين المتضرعين المستجيب لهم العليم بما في قلوبهم وبما قدموا من الأعمال ، إنه يعلم أعمالكم في العلن والسر ، لا تخفى عنه خافية ، وما أنسب هذين الاسمين في هذا المقام فهو تذييل له مناسبته ووقعه في النفوس ، وله تأثيره على القلوب حتى تخلص عملها لله وحده وتتوكل عليه ولا يكون فيها حظ لمن سواه في عبادتها ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَداً ﴾[الكهف : ١١٠] .

﴿ هَلْ انَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ اَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ وَالشُّعَرَاءُ يَتْبَعُهُمُ الغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ إِلاَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً وانتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُواْ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الآية: ٢٢١-٢٢٧]

السورة من أولها تؤكد صدق الوحي ، وأن هذا القرآن نازل من عند الله الحق نزل به الروح الأمين على قلب محمد -ﷺ- ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما

يستطيعون، والشيطان لا ينزل إلا على شيطان مثله ولا ينزل على قلوب الأطهار الأبرار. قال الله تعالى :

﴿هَلْ أنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ .

جاء هذا الخبر مصدر باستفهام أريد به التخصيص والتنبيه ليكون وقعه أبلغ في النفوس ، وأشد تأثيراً على القلوب، هل أدلكم على من تنزل الشياطين إنها لا تتنزل إلا على الأفاكين الكذابين الآثمين أهل السحر والكهانة الذين أكثرهم كاذبون يلقون إليهم الكلمة يسترقونها من الملأ الأعلى فيخلطونها بمائة كذبة ويتمتمون بكلمات مسجوعة غامضة المعاني، لا يدري وجهها من قفاها أولائك الأفاكون المدعون علم الغيب من صدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد -ﷺ- إن الشياطين تتنزل على هؤلاء الكذابين لا على أهل الطهر والعفاف والصدق والبر . ثم قال تعالى :

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ .

جاءت هذه الآية الكريمة التي ختمت السورة الكريمة بأوصاف أكثر الشعراء، لأن أعداء الله يصفون رسول الله بأوصاف الإفك زورا وبهتانا ، يقولون ساحر، ويقولون كاهن ويقولون شاعر يقولون مفتر وما أبعده عن تلك الأوصاف وما علمه الله الشعر وما ينبغي له وما كذب على الناس فكيف يكذب على الله فبين الله في هذه الآية أوصاف أهل الشعر ليتميز الحق من الباطل فقال :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ .

والغاوون هم الضالون المتبعون لأهوائهم وشهواتهم فهؤلاء أتباع الشعراء، أما أتباع الأنبياء والرسل فهم المهتدون الصادقون الأبرار، وأغلب الشعر من وحي الشياطين يوحون إليهم زخرف القول في أوصاف النساء والخمر ومجالسها، وفي الغارات والظلم والقتل والنهب، وفي الفخر بالآباء والأجداد والقبائل وفي التعصب والحمية الجاهلية ويبالغون ويكذبون. قال الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

أي لقد علمتم أن الشعراء يهيمون في كل واد أي يخوضون ويمشون على غير هدى، ويقولون بغير علم في مختلف أغراضهم وأكثرها الإثم والكذب فكيف يقارن بكلامهم كلام الله الحق، الذي يدعو إلى البر ومكارم الأخلاق، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظ الناس لعلهم يتذكرون، وينيبون إلى ربهم ويستعدون للقائه. فكيف يوصف هذا الكلام الحكيم بالشعر أو بالسحر والكهانة، وقال تعالى في الشعراء .

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

أي إن هؤلاء الشعراء يدعون أشياء يذكرونها في أشعارهم وهم لا يفعلونها، فتجد أحدهم مثلاً يدعي الشجاعة ويفتخر بأوصاف أهل البطولة والإقدام وهو من أجبن خلق الله، أو يدعي الكرم وهو من أبخل الناس، أو يدعي الوفاء وهو خائن فهم يقولون ما لا يفعلون .

﴿ إِلاَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً وانتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ .

استثنى الله تبارك وتعالى من بين هؤلاء الغاوين طائفة هم شعراء ولكنهم ليسوا بغاوين بل هم مهتدون، يدعون إلى الهدى ويدافعون عن الحق ويصوبون سهام شعرهم إلى أهل الإفك والضلال يدافعون عن الإسلام، وهؤلاء هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وءامنوا بالرسول، واتبعوه وآزروه ونصروه ونصروا دينه، فهم يناضلون عنه بشعرهم وهم مع إيمانهم يعملون الصالحات ويجتنبون الإثم ولا يرتكبونه، فهم أطهار أبرار ذووا صدق ونزاهة وعفاف قد اتخذوا ذكر الله شعارهم، فهم يذكرونه كثيراً ولا ينسونه، ويشكرونه ولا يكفرونه، أولئك جند من جنود الله ينتصرون لدين الله وحزب الله بعد ما ذاقوا أنواع الظلم من أعداء الله الظالمين الباغين، أذن الله لهذا الصنف من الشعراء أن يقولوا الشعر يدافعون به عن رسول الله ومن معه من المؤمنين ويناضلون عن دين الله، وهذا الاستثناء من الله عدل ونجده كثيراً في القرآن لأن الله حرم على نفسه الظلم وحرمه علينا فهو يعلّمنا كيف نحكم إذا حكمنا، ونستثني ولا نعمم حتى لا نصيب بأحكامنا من هو بريئ من أوصاف أهل الظلم والفسق والهوى ولو كانوا قليلين فنظلمهم بتعميم الحكم.

وقريبا تقدم لنا قوله تعالى : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾[الشعراء: ٢٢٣]، قال أكثرهم ولم يقل كلهم وهذا من الله عدل وإنصاف ليعلمنا ويربينا على الصدق والنزاهة والعدل فلنتخلق بأخلاق الله، ولنأخذ من القرآن العبرة ولنرجع إلى موازين القسط من كتاب الله ففيه النور والهدى .

﴿ وَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُواْ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

يختم الله السورة الكريمة بهذه الآية الحكيمة ذات الموعظة البليغة وكفى بها رادعا وزاجرا عن الظلم .

﴿ وَسَيَعْلَمُ ﴾ والسين للتنفيس ، وهي هنا للتهديد بالعذاب القريب الذي إذا أخذهم لم يفلتهم ، سيعلمون أي منقلب ينقلبون ، إنه منقلب فظيع لا يأتي عليه وصف فإبهامه لتفخيمه وتعظيمه ، فتذهب النفوس كل مذهب في تخيل فظاعته وسوء عواقب الظالمين يوم يأتيهم العذاب ، وقد يعجل الله عليهم نقمته في الدنيا بالقتل والتدمير والخوف والجوع ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى وكفى بجهنم سعيرا .

وهذه الآية زيادة على أنها تهديد للكافرين الظالمين وتخويف لهم ، هي تسلية للنبي ومن معه من المؤمنين وقد سلاه في أول السورة بقوله : ﴿ لعلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ألاَّ يَكُونُوا مُؤمنين ﴾[الشعراء :٣] ، وسلاه هنا بهذه الآية التي ختمت بها السورة فكأنها عود على بدء ، ولله أسلوب القرآن ما أبدعه ، وما أروعه والآية خلاصة لما جاء في أثناء السورة من بيان عواقب الظالمين ،وسيعلم المتأخرون منهم أي منقلب ينقلبون وليتهم اعتبروا بمنقلب الأولين ،ونسأل الله الرحيم أن يقينا مصارع الظالمين ، ويجنبنا منقلب الطاغين ، وقد أتينا على تمام السورة والحمد لله رب العالمين .

سورة النمل

تفسير سورة النمل وهي مكية وآياتها (٩٥)

وصلي الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

سورة النمل هكذا سميت بهذا الاسم منذ الصدر الأول، وأسماء السورة توقيفية وتسمى أيضاً سورة سليمان لما ذكر فيها من خبر سليمان وملكه وجنوده، وخبره مع بلقيس ملكة سبأ، وآيات هذه الصورة بضع وتسعون آية ، وما قلناه في الحروف المقطعة التي فتحت بها سورة الشعراء نقوله في هذه السورة، وحقيقة العلم بمعانيها عند الله.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَس تِلْكَ ءَايَاتُ القُرْءَان وَكِتَاب مُبِينٍ هُدَى وَبُشرَى لِلْمُومِنِينَ ﴾ .

بعد البسملة وبعد الحرفين : الطاء والسين تأتي الإشارة بتلك التي هي إشارة البعيد إلى آيات القرءان للتنبيه بشرف وعلو هذه الآيات المنزلة من عند الله، وأضيفت الآيات

إلى القرآن وعطف عليه الكتاب وهو القرآن نفسه، ووصف بأنه مبين لأنه يبين الحق من الأحكام والحلال والحرام والأمثال والعبر ومحاسن الأخلاق ويبين طريق الجنة من طريق النار ويبين للناس ما يأتون وما يتقون فهو كتاب مبين وكل كتب الله المنزل على رسل الله كذلك تبين للناس دين الله وشرائعه التي يتبعونها وتهديهم إلى طريق مستقيم، قال الله في الكتاب المبين «هُدى» ولم يقل يهدي بل وصفه بالمصدر، وهو أبلغ في الوصف فهو عين الهدى من تمسك به وأتبعه هداه إلى صراط مستقيم.

﴿ وَبُشْرَى لِلْمُومِنِينِ ﴾ .

هذا الكتاب زيادة على كونه هدى هو بشرى للمؤمنين الذين ءامنوا به وعملوا بما فيه، فهو يسعدهم في الدنيا وفي الآخرة، ويبشرهم بما أعد الله لهم من رضوان ونعيم مقيم خالدين فيه أبدا وليست سعادة الدنيا كثرة متاعها أو طول العمر فيها بل السعادة فيها طمأنينة في القلب، وسكينة في النفس، وحسن الظن بالله وحسن الرجاء فيما عند الله فترى المؤمن في خير وأمره كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن ينعم الله عليه فيشكر ويؤجر على ذلك ويبتليه فيصبر ويؤجر على ذلك وفي كلتا الحالتين حالة السّراء والضراء نفسه طيبة مطمئنة ترجو ما عند الله وينسيها حسن الرجاء ما هي فيه من البلاء، تلك هي السعادة ، سعادة القلب الراضي المطمئن الراجي رحمة الله ،ولا تكون إلا للمحافظين على صلواتهم المداومين عليها المؤدين زكاة أموالهم ، قال الله تعالى:

﴿ الذينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُوتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[الآية:٣].

وصفهم الله تعالى بثلاثة أوصاف حميدة : إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والإيقان بالبعث والحساب والثواب والعقاب فهم يقيمون الصلاة أي يأتون بها على الوجه

المطلوب في أوقاتها المحددة، بشروطها وأركانها ووظائفها وسننها في خشوع وإخبات، والصلاة عمود الدين كما جاء في الحديث الشريف فمن أقامها فقد أقام دينه ومن ضيعها ضيع دينه، ومن أوصاف المؤمنين.

﴿وَيُوتُونَ الزَّكَاةَ﴾ .

أي يزكون أموالهم يخرجون منها حق الله فيها طيبة بها أنفسهم، والآية كما نعلم مكية، وفُصِّلت مقادير الزكاة في المدينة بعد الهجرة بعامين وذكرت الزكاة في هذه السورة المكية مقرونة بالصلاة، وكثيرا ما ترد مقرونة بها لأن الصلاة والزكاة والصوم فرضت في جميع الشرائع التي سبقتنا كما ذكر ذلك في القرآن، والمقصود بالزكاة هنا إخراج حق الله في الأموال والغلال للفقراء والمساكين بالحفنة والحفنتين، كما فرضت الصلاة أول مرة ركعتين في أول النهار وركعتين في آخره، ثم فرضت ليلة الإسراء والمعراج خمس صلوات بين اليوم والليلة ، ثم قال تعالى :

﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ .

واختار هنا «يوقنون» لأن اليقين درجة فوق الإيمان، فهو عقيدة راسخة في النفس لا يعتريها الشك ولا يوسوس صاحبها الشيطان في حال من الأحوال، وإذا بلغ المؤمن درجة اليقين فقد بلغ من المعرفة منزلة لا يخشى عليها انتكاس، وجاء ضمير الفصل في هذه الجملة الاسمية لتأكيد معنى اليقين في نفوس الموقنين والإيقان بالآخرة خير زاجر لهم عن اقتراف الإثم ، وخير آمر باكتساب أنواع البر ، وخير واعظ في نفس الموقن، وجاء في الحديث الشريف : «ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ» نسأل الله إيمانا راسخا يبلغ درجة اليقين.

﴿ إنَّ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ زيَّنَا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾[الآية : ٤] .

بعد أن وصف الله حال الذين يوقنون بالآخرة وبين أعمالهم الصالحة التي استحقوا بها البشرى في آيات الله البينات ثنى بذكر أضدادهم وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة . وبين قبح أعمالهم وسوء عواقبهم في الآخرة ليتعظ الناس ويتجنبوا مصيرهم المشئوم، وليختاروا سلوك سبيل النجاة مع الأخيار ذوي الإيمان واليقين بالآخرة .

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ إنَّ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ زيَّنَا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

إن الذين يكفرون بالله ويجحدون البعث والحساب والجزاء ﴿ وَقَالُواْ مَا هي إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ ﴾ أولئك يسلط الله عليهم شياطينهم تزين لهم سوء أعمالهم ،وإذا لم يكن إيمان بالبعث والجزاء فأي شيء يردع النفس عن غيها ، وأي زاجر ينهاها عن هواها ! إنها حينئذ تطغى وتمرح في المعاصي كما تحب وتشتهي، وقد شاع هذا الكفر في هذا العصر في شباب العرب المنتسبين للاسلام، وطالعتنا الصحف بالعجائب والغرائب حتى أن أحدهم ليكتب في مجلة سورية يقول فيها : «على الإنسان العربي الإشتراكي أن يؤمن بأن الله والإقطاع والاستعمار وكذا وكذا دمى محنطة هي خرافات لا وجود لها ، ثم يسترسل في كفره حتى يقول : يجب على الإنسان العربي الإشتراكي أن يعتقد أنه ليس له حياة أخرى غير هذه فلا نعيم ولا جحيم ، وإنما نهايته الموت وليس غير الموت ويكون بعد ذلك ذرة تدور مع الأرض» . ومن يدري لعل هناك كتابات مثل هذه نشرت في مجلات وجرائد أخرى، ينشرها أمثال هؤلاء الشباب الكافر ،وما أكثرهم في هذا العصر وفي البلاد العربية الإسلامية .

ما أعظم مصائبنا في أمثال هؤلاء الشباب، وما أدهى المصيبة أن يكون هؤلاء أساتذة في جامعات وثانويات وفي مراكز التوجيه، إنها لمصيبة عظمى يبتلى بها المسلمون في هذا الجيل، ونسأل الله أن يكفينا فتنتهم وشرهم، وأن يقيض من أبناء المسلمين من يرد عليهم ضلالاتهم حتى لا يتسع خطرهم .

وأدهى الدواهى أن تتزلزل عقيدة الإيمان باليوم الآخر من القلوب، وحينئذ لا ينفع وعظ ولا إنذار ، وفي قوله تعالى :

﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ .

دليل على الانتكاس الذي ينتهي إليه الذين يكفرون بالآخرة فيرون المنكر معروفا ويأمرون به ويرون المعروف منكراً وينهون عنه ويكونون حربا على الواعظين الناصحين.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

والعمه هو المشي في الظلام وعلى غير هدى، فهو كالعمى وعمه البصائر كعمى الأبصار، وصفهم الله تعالى بالعمه لأنهم في حالة من الضلال تُعيي الناصحين، فهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون وبأي أسلوب يخاطب الوعاظ من لا يؤمن بالآخرة ولا يرجو لقاء الله، وقد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوها حسنة، إنهم يرونها رقيا وتقدما وعلما وحضارة ويرون المؤمنين جامدين رجعيين متحجرين تخلفوا عن ركب الحضارة والعلم . قال الله تعالى يبين عواقب هؤلاء الكفار .

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ [الآية: ٥].

أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم سوء العذاب وكفى بالعذاب، فكيف به إذا كان

سوء العذاب، إنها عبارة توحي بفظاعة مصيرهم ومضاعفة أنواع العذاب عليهم في جهنم وبئس المصير.

﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾.

إنهم ليسوا خاسرين فحسب بل هم الأخسرون في الآخرة، وقد أكد الله الخبر بضمير الفصل وتعريف الخبر بالألف واللام وأخبر عنهم باسم التفضيل من الخسارة حتى نتصور عظم خسارتهم وقبح مصيرهم في سوء العذاب، وذلك ليحذر المؤمنون عاقبة الكفر وليزدجر من أراد الله هدايته من الناس بهذا القول البليغ، وكفى بالقرآن واعظا وكفى به نذيراً.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [الآية: ٦].

خطاب من الله تعالى لنبيه - ﷺ - فيه تثبيت لقلبه، وفيه تأكيد أن هذا الذي يلقاه من الوحي هو الفرقان من لدن رب حكيم فينزله بالحق فيه الهدى والحكمة، وفيه العلم الغزير ولا شك أن الكلام المنزل من الحكيم العليم يهدي إلى السبيل القويم ويحمل العلم والحكمة وما أشبه هذه الآية بما جاء في السورة السابقة في هذا الكتاب ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وهذا ما يجعل سور القرآن سلاسل ذهبية متماسكة متناسقة والحكمة وضع الشيء في مواضعه وعلم الله تعالى محيط بكل شيء فهو عالم الغيب والشهادة عالم بما يصلح النفس البشرية ويصلح المجتمع الإنساني وما علم الأولين والآخرين في علم الله إلا قطرة من بحر.

واختار الله هذين الوصفين هنا وقدّم الحكمة على العلم حتى نعلم أن تنزيل القرآن على قلب محمد - ﷺ - بحسب الحكمة، فما ينزل إلا ما تقتضي الحكمة نزوله لأن

الله عليم بأحوال الناس، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وفي هذين الوصفين تمهيد لما سيذكر الله لنا من قصص أنبيائه ورسله قصصا تحمل الهدى والحكمة، وهو القصص الحق من لدن حكيم عليم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، أحاط علمه بما كان وما يكون وما هو كائن، يقص على نبيه بالحق ما يثبت فؤاده وأفئدة المؤمنين ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

ذكر الله تعالى في هذه السورة فصلاً من حياة موسى، ولم يبسط من أمر موسى وقومه ما بسطه في السورة التي تلي هذه السورة، وإنما ذكر الله هنا ما فيه تثبيت لقلب النبي -ﷺ- بما كان من إرسال موسى وذهابه إلى فرعون وقومه وتكذيبهم إياه فليتأس نبينا ومن معه بمن كان قبلهم، فقد كُذبوا وأذوا حتى أتاهم نصر الله ولا مبدل لكلمات الله، فليكن في نبأ المرسلين من قبله تسلية له وتثبيت لفؤاده . قال تعالى :

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوَ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [الآية:٧].

أذكر يا محمد خبر موسى حين ضل الطريق فهداه الله، أذكر حين سار بأهله من مدين إلى مصر وفي أثناء الطريق أدركته ليلة مظلمة باردة ضل فيها عن طريقه، فقال لأهله أمكثوا هنا وانتظروا فإني آنست، أي رأيت من بعيد نارا سأذهب إليها لعلي أجد عند صاحبها خبرا يدلني على الطريق أو اقتبس لكم من نارهم جذوة تصطلون بها أي تدّفئون، لقد طمع موسى أن يجد عند صاحب النار خبراً يهديه إلى طريقه الذي ضل فيه، وما درى أنه يجد عند من في النار هدى يهديه إلى صراط الله المستقيم الذي من سلكه لا يضل ولا يخزى ، الصراط المستقيم الذي فيه سعادة الأبد ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾[يوسف:١٠٠]، وقد اقتضت حكمته أن يفتح بهذه النار طريق الهداية والرشد لموسى وبني إسرائيل ،والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الآية:٨-٩].

فلما قصد موسى شطر النار وجاءها نودي من قبل الحضرة القدسية نداء يسمعه ولا يرى النادي ،ناداه المولى جل جلاله أن بورك من في النار ومن حولها، أي حلت بركة الله

في النار ومن حولها، ولم تكن ناراً تلتهم الشجرة بل كانت نوراً تضئ ولا تحرق، وما كان لنار أن تحرق إلا بإذن الله فهذه نار مباركة جاءت بأمر الله وعمت بركتها وخيرها من حولها، وسبحان الله رب العالمين تنزيها لله وتقديسا وتمجيداً وتعظيما ، كان موسى يسمع هذا الكلام وأي روح كانت تغمره، وأي سكينة كانت تعمر قلبه، وهو يشاهد النور ويسمع النداء الرباني، وكم كان الأنس يخالط بشاشة قلبه حين سمع النداء يخاطبه بإسمه.

﴿ يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

فالنداء إذن من الله حقا، إن الله يخاطبه ويعرفه بنفسه مسندا الجملة الاسمية إلى ضمير الشأن ليكون أوقع في النفس، وأبعد من الوساوس والأوهام، أعلم يا موسى أن الحقيقة والشأن أني أنا الله لا إله غيري، العزيز القوي القاهر الذي لا يغالب، الحكيم ذو الحكمة البالغة، أوتي الحكمة من أشاء من خلقي فاستمع لما يوحى واعبدني ولا تشرك بي شيئا، وأقم الصلاة لذكري .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاك ﴾ .

أوحى الله إلى موسى كلمات طويت هنا وبسطت في مواضع أخرى من القرآن، وأمره أن يلقي عصاه ليريه من آياته الكبرى . استمع موسى نداء الله وبادر لامتثال أمره فألقى عصاه .

﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[الآية: ١٠-١١].

وما أن ألقى موسى عصاه حتى تحولت ثعبانا له حركة واضطراب، والجان نوع من

الثعابين شديد الحركة سريعها ، وعندما رآها كذلك ولى مدبرا فرارا منها خائفا لا يتلفت وراءه، فناداه الحق جل جلاله باسمه يا موسى لا تخف ، طمأنه الله وهدأ من روعه وقال له : إني لا يخاف لدي المرسلين إنه لا يخاف عندي الذين أجتبيهم لرسالتي إلا من ظلم ، قال المفسرون : الاستثناء هنا منقطع معناه لكن من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ، وقال آخرون إن هذا الاستثناء فيه إشارة لطيفة إلى قتل موسى للقبطي فقد اعترف موسى بعده أنه ظلم نفسه وتاب واستغفر منه، وبدل حسنا بعد سوء، وذلك لما سقى غنم ابنتي شعيب بدون عوض، وقال آخرون إن أداة الاستثناء هنا بمعنى الواو وذلك على غرار قول الشاعر :

وكل أخ يفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

أي والفرقدان ،وكذلك في هذه الآية أ ي ومن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء ... الآية، فذكر الله موسى بمنته عليه حين غفر له ظلمه ورحمه وبشره أنه من الآمنين في الدنيا والآخرة ﴿ ولاَ تَخَفْ إنَّك منَ الآمنينَ ﴾[القصص : ٣١] ، وتكلم المفسرون قالوا كيف عرف موسى أن الخطاب من الله حقا ،وأقول إن الله قادر أن يلقي في روع موسى أن الكلام هو كلام الله حقا لا شك في ذلك، وقيل كان موسى يسمعه من كل جهة وبكل جوارحه، وأضف إلى ذلك معجزة النار التي تملأ الشجرة ولا تحرقها بل ازدادت اخضراراً حتى أن أوراقها تكاد تقطر ماء من شدة بريقها واخضرارها ، وفي الآية بشارة لنا جميعا أن من ظلم نفسه ثم تاب واستغفر الله وأتبع سيئته بالحسنة فإن ربنا غفور رحيم .

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾[الآية : ١٢] .

ثم بعد أن أخذ عصاه ورجعت إلى سيرتها الأولى بأمر الله ، زاد فأمره أن يدخل يده

في جيبه والجيب فتحة القميص التي تدخل منها رأس اللابس، وأخبره أنها ستخرج بيضاء من غير سوء بياض نور وإشعاع لا بياض برص أو بهق أو نحو ذلك، فذانك برهانان من الله يؤيدان نبي الله موسى في دعوته ورسالته إلى فرعون وملائه وإلى بني إسرائيل ، أخرج موسى يده بعد أن أدخلها في جيبه أخرجها بيضاء تلألأ نوراً ثم أدخلها مرة أخرى فرجعت كما كانت، ويؤيد الله رسله بالمعجزات وأخبرنا الله أنه أيده بتسع آيات بينات .

﴿فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ .

أيد الله نبيه موسى وهرون وأرسلهم إلى فرعون وقومه باليد والعصا، والطوفان والجراد، والقمل والضفادع والدم، وأخذهم بالسنين، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون، ولكنهم ازدادوا طغيانا وكفرا ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَاتِينَا بِهِ مِن ايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ﴾[الأعراف :١٣٣]، ذلك لأنهم كانوا قوما فاسقين أي خارجين عن طاعة الله، ضالين عن سبيل الله صادين عنه، معرضين عن النذر، متعصبين لما وجدوا عليه آباءهم من الفسق والضلال، لا يسمعون الحق ولا يعقلون قد تربب عليهم فرعون وقال أنا ربكم الأعلى واستخفهم فأطاعوه، إنهم كانو قوماً فاسقين، أذلهم الله بفسقهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الآية :١٣-١٤].

قال الله تبارك وتعالى : فلما جاءتهم آياتنا مبصرة أي بينة تفتح البصائر وتنير

الطريق ،فكانت لضيائها كأنها مبصرة بنفسها ، لما جاءتهم آيات الله البينات الهاديات قالوا هذا سحر مبين ، أي بين ولقد علموا ما هي بسحر ولكنهم جحدوا بها وأنكروها ظلماً وحسداً وعلوا ، لقد تكبروا وتجبروا واستنكفوا عن عبادة الله واتباع رسله ، ومنعهم الكبر عن قبول الحق بعد أن استيقنته أنفسهم وعرفوه. قال الله تعالى :

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

يلفتنا ربنا عز وجل بهذه الآية إلى عاقبة أهل الفساد الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وكان بغيهم وفسادهم طريقا مؤديا إلى سوء العواقب ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين وكفى بها زاجرا عن الظلم والكبر والفساد في الأرض وقد بين الله عواقبهم في مواضع أخرى من القرآن الكريم .

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ
دَاوُودَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ
شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ
مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ
وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ
لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ

ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

يذكر الله تعالى خبر داود وسليمان وهما من أنبياء الله ورسله ومن بعث بالدعوة والسيف لحماية الدعوة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، ويبسط الله هنا من خبر سليمان ما لم يبسطه في موضع آخر، ويريد الله أن يرسم لنا مشهدا للملك الصالح النبي الرسول، وجهاده في دعوة الناس إلى الله، وتبليغهم ما أنزل الله من الدين ونصر الله إياه وهداية الناس على يده، وذلك هو الفضل المبين . قال الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الحَمْدُ لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُومِنِينَ ﴾ [الآية: ١٥].

يخبرنا ربنا تعالى ويؤكد الخبر أنه آتى داود وسليمان علما والعلم أفضل ما يؤتاه العبد لا سيما إذا قرنت به الحكمة، ونكّر العلم هنا ولم يعرفه ليعم علم الدنيا والآخرة، علم التوراة والزبور، وعلم القضاء والسياسة والحروب والصناعات، حتى إلانة الحديد التي اختص بها داود ليصنع الدورع والسلاح، كما اختص سليمان بمزيد من الفهم في الحكم وفي القضاء وفصل الخصومات، وآتاهما الحكمة وفصل الخطاب، فهي علوم غزيرة أفاضها الله على عبديه داود وسليمان ووفقهما لشكر نعم الله العظيمة واستعمالها في طاعة الله ونشر الإسلام وحسن السيرة في الرعايا والتواضع الكامل لله وعدم الاغترار بعظمة الملك.

﴿وَقالاَ الحَمْدُ للَّهِ الذِي فَضَّلنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُومِنِينَ﴾ .

لهجت ألسنتهما بالشكر للمنعم تعبيراً عما في قلبيهما من الإيمان به والاعتراف بإنعامه، وخير ما ينطق به الشاكر لله أن يقول الحمد لله، لأن الحمد معناه إسناد أوصاف الكمالات كلها لله جلا جلاله، الفضائل منها والفواضل، فهو المتصف بأوصاف الكمال والعظمة، المنزه عن أوصاف النقص، المتفضل على عباده بالنعم التي لا تحصى الحفي بأوليائه، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم . قال داود وسليمان.

﴿الحَمْدُ للَّهِ الذِي فَضَّلنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُومِنِينَ﴾ .

اعترفا بفضل الله ،وحمدا ربهما على تفضيله إياهما على كثير من عباده المؤمنين ،ولم يذكرا الكافرين لأن حال الكافرين في خسار وهلاك، بل ذكرا المؤمنين والمؤمنون هم موضع فضل الله وهم فيه درجات، وأنبياء الله ورسله في أعلى الدرجات، ويفضل الله بعضهم على بعض والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وكذلك حيث يجعل فضله ويقول الله لنبيه محمد -ﷺ- ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[النساء:١١٣]، ويقول : ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُومِنِينَ﴾[آل عمران : ١٥٢]، ونحن معشر المؤمنين نتأسى بأنبياء الله في حمد الله والشكر له على فضله، فنقول : «الحمد الله على نعمة الإسلام ،ونقول : الحمد لله الذي فضلنا على كثير ممن خلقه تفضيلاً لاسيما فضل الهداية والإيمان .

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾[الآية:١٦].

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أن سليمان ورث داود أباه دون

إخوته، ويروى أن داود ترك تسعة عشر ولدا ولكن وارثه كان سليمان وليس ميراث الأنبياء هو المال فهم لا يورثون في المال بل ميراثهم الهدى والعلم والحكمة لمن بعدهم، وسليمان ورث أباه في العلم والنبوءة والملك الذين هو التمكين في الأرض لتبليغ رسالة الله إلى الناس ، هذا هو ميراث سليمان من أبيه داود كما ورث يحيى أباه زكريا الذي دعا ربه فقال : ﴿ فَهَبْ لي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنَ الِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[مريم :٥-٦] ، ويزعم اليهود اليوم أنهم وراث ملك سليمان وكذبوا لأنهم خالفوا دينه، لأنهم لو اتبعوه لآمنوا بمحمد -ﷺ- وفي التوراة والإنجيل البشارة بمحمد -ﷺ- وأمرهم بالإيمان به، وأولى الناس بميراث سليمان عليه السلام هو نبي الله محمد -ﷺ- وأمته المتبعون لسنته، قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلذين اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالذين ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُومِنِين ﴾[آل عمران : ٦٨] ، كذلك ورث سليمان داود في النبوءة والرسالة والعلم والحكمة والملك .

﴿ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ .

قال نبي الله سليمان يخاطب قومه معترفا بنعمة ربه لا فخرا ولا رياء ولا بطرا، قال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين، علمنا الله فهم منطق الطيور ذلك لأن الطيور من جنوده، فعلمه الله منطق الطير ليتم له استخدامهم والانتفاع بخدمتهم، وليروضهم على الأعمال، ويأمرهم وينهاهم ويسألهم ويجيبون فيفهمهم، وقال وأوتينا من كل شيء لامن كل شيء على الإطلاق، وإنما من كل شيء يصلح به الملك ويقوم به أمره ، ويستعمل الناس هذه الكلمة ولا يقصدون بها الاطلاق، وإنما يقصدون بها ما يدخل في حدود المستطاع والمعقول .

إن هذا لهو الفضل المبين، يقول سليمان عليه السلام إن هذا الذي آتانا الله من الملك وما يقوم به من الجنود والذخيرة والعتاد لفضل من الله بل هو الفضل المبين، وتعريف الخبر بالألف واللام والإتيان بضمير الفصل يدل على التوكيد والحصر والمبالغة، ومبالغة أنبياء الله حق منهم لا ينطقون عن الهوى فلقد كان فضل الله على سليمان عظيما بتوفير الله له أسباب الملك، وتعليمه منطق الطير وتسخيره جنود الجن والإنس والطير له يسيرون طوع إرادته ورهن إشارته، ووفق الله سليمان أن يسخر ملكه في نفع العباد ودعوتهم إلى دين الله الإسلام، وهذا هو الملك النافع والعلم النافع، لا ما يدعيه الناس اليوم وقد بلغوا من علوم الحياة الدنيا مبلغاً عظيماً، ولكنهم يسخرونها لظلم العباد وتدمير البلاد، وعلم يضر الناس ويفسد في الأرض خير منه الجهل ونعوذ بالله من علم لا ينفع وكل علم مجرد عن الدين فهو على أصحابه نقمة ووبال إذ لم يهدهم إلى الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، والعلم يكون نعمة إذا كان معه دين أو هدى صاحبه إلى الإيمان بما يجب الإيمان به والعلم الصحيح يدعو إلى الإيمان .

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[الآية:١٧-١٩].

الحشر هو الجمع كما تقدم لنا معناه قريبا في سورة الشعراء عند قوله تعالى : ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾[الشعراء:٣٦]، جمعت جنود سليمان من الجن والإنس والطير وهذا من عظمة ملك سليمان أن تكون له كل هذه الأصناف من الجنود ،ولا شك

أن هنا غزوا يقصده سليمان، ولو تعلق الغرض بذكر الجهة والقوم المغزوين لذكره القرآن إنما الغرض فيما يبدو ذكر شأن من شئون هذا النبي الصالح الذي هيأ الله له من الأسباب ما لم يهيئ لغيره، فهذه جنود مجندة من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، أي يدفعون ويجمعون ويسيرون بمسيرة منظمة، ولا شك أنهم فرق وألوية وكتائب، لكل فرقة قائد وكل ذلك مفهوم من قوله تعالى فهم يوزعون، ولله إعجاز القرآن وإيجازه .

سارت هذه الجنود كلها بأمر القائد الأعلى سليمان، ولما أتوا على وادي النمل وهو واد في الشام معروف بهذا الاسم كثير النمل فيه قرى للنمل، ولما أتوا عليه أي أشرفوا عليه قامت نملة من النمل فرفعت صوتها تنذر قومها بالخطر الداهم، ليدخلوا مخابئهم الآمنة قبل أن تحطمهم الجنود.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ .

ذلك لأن مملكة النمل مملكة منظمة، ولا ندري هذه النملة المنذرة قومها هل هي أميرة أو مسئولة عن الحراسة والإنذار، المهم أن نعلم أن الله لم يخلق مخلوقا يضيعه، فهذه الحيوانات الدقيقة والجليلة وهذه الوحوش الأوابد وهذه الطيور المتنوعة أمم مثلنا لها تعاون فيما بينها وتكافل، ونظام تسير عليه في مساكنها وعملها وجمعها الأقوات. وتربية أولادها ودفاعها عن قراها وأعشاشها، ومنها أمم رحّل لها نظام في رحلاتها ونزولها، ولها لغات تتفاهم بها، كما قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنعام:٣٨]، لقد سمع نبي الله سليمان عليه السلام صوت هذه النملة وفهم منطقها، وهي تنذر قومها وتعذر سليمان وجنوده إذ تقول : وهم لا

يشعرون ، فهم جنود الرحمة والعدالة لا ظلم عندهم ولا بغي لا يحطمون النمل قصدا أو بغيا بل يحطمونه وهم لا يشعرون ،وكم لهذه الكلمة من معان لطيفة لها وقعها في النفس، وللفقهاء استنباط دقيق من الآية وذلك أن من كان في الطريق فعليه أن يتنحى عنه، فإن لم يفعل وأضربه المار وهو لا يشعر فهو الذي جلب البلاء لنفسه وليس على المار منه شيء والله أعلم .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ .

تبسم سليمان عليه السلام ضاحكا من موقف النملة هذا ضحك تعجب وإعجاب من ذكاء هذه النملة ،ودقة إحساسها وشعورها، والتعبير هنا بالتبسم ينبئنا أن أنبياء الله عليهم السلام ضحكهم التبسم تأدبا مع الله، فهم لا يستغرقون في الضحك بأصوات عالية بل ذلك فعل المترفين وأهل الغفلة فما أعلى تأديب القرآن، وما أحسن تأديب الله تعالى لأنبيائه ورسله .

تبسم سليمان ضاحكا من قول النملة ودقة إحساسها وانتباهها كيف عرفت أن هؤلاء الناس هم سليمان وجنوده، وكيف أسرعت في إنذار قومها وكيف التمست العذر لسليمان وجنوده حيث قالت : وهم لا يشعرون، وكيف عرفت أن حق الطريق للمارين، وأن على المنتشرين فيه أن يتنحوا عنه ويخلوا الطريق للذين لهم حق المرور فيه، كل هذا فهمته النملة وعرفته، وهذا الموقف يفتح لنا نافذة على عالم الحيوان فنعرف أن لهم فهما وإدراكاً ولغة يتخاطبون بها، وترابطا وثيقا بين أفراد كل أمة من أممهم، وصدق الله العظيم ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[الأنعام:٣٨] .

وقال الله تعالى : ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه : ٥٠] ، وفي هذه الحالة المؤثرة انطلق لسان سليمان بالتضرع إلى ربه والدعاء .

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ .

رب أوزعني أي أدفعني دفعا لطيفا بإلهامك وتوفيقك وعونك أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ بهذا الملك الذي مكنتني منه ، وهذا العلم الذي ألهمتنيه وشكرك واجب عليّ أعنّي على أدائه ، وقال وعلى والدّي لأنه ورث النبوءة والحكمة من أبيه ، وإنها لنعمة عظمى أن يحظى أحد بنعمة تحدرت له من آبائه وأجداده ، فهي المجد التليد والشرف العريق ، كل هذا من الله إنعام على عبده سليمان يوجب الشكر والعمل الصالح ، وكذلك الصالحون من عباد الله يزدادون تواضعا لله وتذللا ، وخفض جناح للمؤمنين حين ينعم الله عليهم بنعمة فيها رفع لمقامهم وإعلاء لشأنهم بينما المتكبرون المتجبرون يزدادون ترفعا وكبرياء وطغيانا وينسون ربهم ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[الحشر : ١٩] ، وصدق الله العظيم : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾[الليل : ٤] ، وما أعظم تربية القرآن ، يجب علينا أن نعتبر بمثل هذه المواقف ونتأدب بآداب عباد الله الصالحين ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام : ٩٠] ، ولا تزال الآية مستمرة في توجيهها الحكيم ، قال سليمان .

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ .

أي رب أوزعني أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه وترضى به عليّ ، سأل ربه أن يلهمه ويوفقه للعمل الصالح الذي يحبه الله ويرضاه ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مما شرعه الله لأن الأعمال ولو كانت صالحة لا تقبل إلا إذا كانت موافقة لشريعة الله ، قال رسول

الله -ﷺ- : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» وهذا الحديث يرد البدع من الأعمال ولو كانت في ظاهرها صالحة وأن الأعمال الصالحة لا تقبل إلا إذا كانت في الأوقات المأوذن فيها تلك الأعمال، ألا ترى أن أحداً لو صام يوم العيد أو يوم الشك أو أيام التشريق فإنه يكون آثما وكذلك لو صلى في الأوقات التي نهينا عن الصلاة فيها فإنه يكون آثما بذلك ولا يقبل عمله روي أن أحد الصحابة أو أحد التابعين رأى رجلا يصلي بعد صلاة العصر فنهاه فرد عليه الرجل قائلا : «أيعذبنا الله على الطاعة أو قال على الصلاة؟ فأجابه الذي نهاه إنما يعاقبنا على مخالفة السنة .

أنظر إلى جوابه السديد ، ونحن كثيراً ما نخترع ونبتكر كيفيات من الأعمال تظهر أنها أعمال خير أو زيادة خير وهي ليست خير لأنها على خلاف السنة ،وسأعود مرة أخرى إلى الحديث في هذا الموضوع لأتكلم على بدع أسترسلنا فيها وطمعنا فيها رضى الله ، ورضى الله إنما يكون في اتباع السنن وموافقتها، لا في اختراع البدع وتقليد الناس فيها والعمل الصالح الذي يرضاه الله أن يكون موافقا للسنة وأن يبتغى به وجه الله خالصا . ثم قال عبد الله سليمان :

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

لا نزال نغرف من أحكام الآية الكريمة وآدابها، وهنا يختم سليمان بدعائه ربه المنعم عليه أن يدخله برحمته في عباده الصالحين، وانظروا إلى قيمة إقحام هذه الكلمة هنا .

﴿ بِرَحْمَتِكَ ﴾ .

ذلك لأن مجرد العمل الصالح لن يدخل أحد الجنة ولو كان من أنبياء الله، جاء في الحديث الصحيح عن النبي -ﷺ- قال : «لن يدخل أحدكم الجنة عمله ، قالوا: ولا أنت

يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» فرحمة الله إذن هي التي تلحقنا بعباد الله الصالحين في الجنة، هذا ما تفيده الآية فلنتأدب بآداب أنبياء الله ورسله. وفي دعاء سورة الفاتحة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ ولا يزال المؤمن تواقا إلى عباد الله الصالحين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

نسأل الله أن يلحقنا بهم برحمته، ويحشرنا، معهم ويجمع بيننا وبينهم في دار كرامته، جنة النعيم آمين. فلنقتد بنبي الله سليمان، ولندع بهذا الدعاء كلما متعنا الله بنعمة من نعمه، ولعل أحدا يقول في نفسه: وما نبلغ نحن مما بلغ إليه سليمان؟ فهذا غلط فادح وخطير، نريد أن ننبه له حتى لا يقع أحد في كفران نعم الله، واستصغارُ نعم الله وتحقيرها نوع من الكفران يستوجب عقوبة الله، فلنحذر الكفر في جميع ضروبه، ولننظر إلى من دوننا في الدنيا لا إلى من متعه الله بزهرتها حتى لا نحتقر نعم الله علينا، وإننا والحمد لله لفي نعم عظيمة لا تعد ولا تحصى، لا نستطيع شكرها وإنّ شكرنا لله عليها يستبقيها لنا ويستوجب المزيد، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم: ٧]، فلنحذر الكفر ولنتعلم من أنبياء الله شكر نعم الله، عسى الله أن يلحقنا بعباده الصالحين والحمد لله رب العالمين: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٖ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ اِ۬لسَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ اِ۬لذِے يُخْرِجُ اُ۬لْخَبْءَ فِے اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ
وَالَارْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اَ۬للَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ اُ۬لْعَرْشِ اِ۬لْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ اَ۬لْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
اِ۪ذْهَب بِّكِتَٰبِے هَٰذَا فَأَلْقِهِۦ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لْمَلَؤُاْ إِنِّيَ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾
إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾
أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِے مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لْمَلَؤُاْ أَفْتُونِے
فِے أَمْرِے مَا كُنتُ قَاطِعَةً اَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ
أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأْسٖ شَدِيدٖ وَالَامْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِے مَاذَا
تَامُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتِ إِنَّ اَ۬لْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً اَفْسَدُوهَا

وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي
مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ .

كان نبي الله سليمان عليه السلام يتفقد جنوده فرقة فرقة، أي يراقبهم في مواقعهم ويفتشهم ،ويتأكد من مراكزهم كما يفعل القائد الأعلى الحازم، وهو ما يقتضيه الجد والصرامة والحزم فهو لا يتكل على القواد تحته، بل يتفقد الأحوال بنفسه ليتأكد من سلامتها، ويطمئن على قيام كل بواجبه وهكذا الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾[النساء:١٠٢]، ويقول عز وجل : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾[الأنفال:٦٠]، ويقول : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩].

وكان النبي -ﷺ- وهو سيد المتوكلين يتفقد أحوال ومواقع جيوشه، ويسأل عن أعداد وعتاد جيوش أعدائه - كذلك تفقد نبي الله سليمان جنوده، ومن جملتها الطير، وعندما تفقد الطير قال: ما لي لا أرى الهدهد، وهو نوع معروف من الطيور، ولا ندري كيفية تفقده للطيور، وللمفسرين أقوال في هذا التفقد قالوا : كانت الطيور تظلله فبقي موضع الهدهد فبرزت منه الشمس، ويبدو أن الأمر ليس بهذه البساطة، وهو لا يدل

على التفقد، ولا نصدق بكثير من الإسرائيليات التي تأتي بالخرافات ، إنما الذي نفهمه من التفقد المنظم، أن القواد المحنكين في الحروب يوظفون تحتهم مسئولين درجات بعضها فوق بعض، وبهذه الطريقة يسهل التفقد والتفتيش، ويسهل إصدار الأوامر والتعليمات، فتصل إلى أدنى الجند بسهولة، ولابد أن يكون سليمان معلما من قبل الله، ملهما بما يصلح تسيير الملك، وتعبئة الجيوش، وبالتالي تفقدهم، والذي نفهمه أن هذا الهدهد له مركز معين في الطيور، ولذا سأل عنه نبي الله سليمان سؤالاً خاصاً وأعتنى به ووقف عنده هذه الوقفة، وقد يكون عينا من عيونه على الأعداء الذين يريد غزوهم .

وحين لم يجده قال : مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأنه قد يكون موجوداً ولم يره، وفي هذا تأديب لنا لنتحرى الصدق فيما نقوله، وهذا شأن العقلاء من الناس المتمسكين بالصدق ثم إن سليمان بعد أن تحقق غياب الهدهد حكم عليه غيابيا بأحد الأحكام الثلاثة إما التعذيب الشديد، وإما الذبح، وإما أن يأتيه بسلطان مبين .

أما التعذيب فقيل :بنتف ريشه كله، وأما السلطان المبين علم جديد يأتيه به يفيده في مهمته التي هو متوجه إليها، فجاءه بسلطان مبين فنجا من التعذيب والذبح ،بعد التأكد من صدقه فيما أخبره به .

﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾[الآية : ٢٢] .

أنظروا كيف أدلى الهدهد بسلطان العلم معتزه به، وكذلك يرفع العلم أهله، فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبأ يقين أي خبر صادق لا شك جئتك به من أهل اليمن وهم سبأ وهنا يتجلى تعبير القرآن ببديع الجناس بين سبإٍ ونبأ ، فالكلام كما قيل فيه عليه طلاوة وفيه حلاوة، وهو إلى ذلك معذق مثمر مفعم بالفوائد لا ينقضي منه

العجب، ولا يشبع منه العلماء، ولنستمع إلى الهدهد يحكي الخبر اليقين على نبي الله سليمان يقول:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ أَلاَّ يَسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[الآية:٢٣-٢٦].

أعجبوا لذكاء هذا الهدهد، وفطنته ومعرفته ،وصدقه وإيمانه، فسبحان الذي ألهمه وعلمه وهداه، وسخره لنبيه سليمان، لقد أحاط الهدهد حقا بما لم يحط به سليمان وهو أنه اطلع على أهل اليمن فعلم أن ملكتهم امرأة، وأنها أوتيت من كل شيء مما يؤتاد الملوك المتسلطون، فلها عرش عظيم، ولها جنود أقوياء لهم عتاد وسلاح، واطلعت على نوع عبادتهم، فأخبرت عنهم أنهم يعبدون الشمس من دون الله، وعلمت أن الشيطان الرجيم زين لهم عبادتهم تلك وأعمالهم الفاسدة وصدهم عن سبيل الله القويم، فهم ضالون لا يهتدون إلى عبادة الله ربهم وحده والسجود له .

صدهم الشيطان ألاّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض، الله الذي يخرج المخبئات والكنوز التي في الأرض، ويخرج المخبئات في السموات بوحي منه إلى أنبيائه، وبإلهام الناس، وتيسير أسباب العلم والبحث في البر والبحر والفضاء فيطلعون على الأسرار والمخبئات مما يأذن الله أن يصل الناس إليه، وفي هذه الآية إرشاد إلى الأخذ بأسباب العلم وفتحٌ لأبواب الفضاء، وأن معلومات الناس لا تقتصر على

الأرض وحدها، فكتاب الله في السماوات و الأرض مفتوح ، وطريق العلم ميسر لاستخراج الأسرار والخبئات ، وعلم الله محيط بكل شيء لا تخفى عنه خافيه، وهو يعلم ما يسر عباده وما يعلنون، وسيجازيهم على ذلك ويحاسبهم فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله على كل شيء قدير .

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ .

جاءت هذه الآية لمناسبة ذكر عرش بلقيس الذي وصف بالعظيم، والعظمة لعرش الله فهو العرش العظيم حقا، لأنه مظهر عظمة الله ومصدر أوامر الله، وهو الله لا اله إلا هو المعبود بحق وكل معبود سواه باطل .

وقد يكون هذا الكلام كلام الهدهد، و قد يكون من قول الله تبارك وتعالى والكل كلام الله تبارك وتعالى وكان جواب سليمان لكلام الهدهد جواب العاقل المتثبت قبل أن يصدر حكمه فقد تمهل ولم يصدر عقوبته للهدهد، وأمكنه من الاعتذار أولاً لا كما يعجل الطغاة وانتظر وتمهل عن إصدار الحكم عن القوم ثانياً حين أجاب الهدهد .

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [الآية: ٢٧] .

وكذلك أمرنا بالتثبت في الأخبار كلها حتى لا نعجل بإصدار الأحكام والقرآن كتاب تعليم وتذكير والله يأمر بالعدل والانصاف .

﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[الآية: ٢٨] .

كتب له كتابا ومكنه إياه، وأمره بتبليغه إليهم على وجه السرعة، وأمره أن يلقيه

إليهم ثم يتنحى جانبا وينظر ماذا يرجعون، أي ماذا يكون رجع القول بينهم حين يقرؤون الكتاب، ولابد سيكون لهذا الكتاب المهم صدى بين الملكة بلقيس ومجلس الشورى الذي سينعقد حولها، من رجال الدولة وقواد الأجناد، فذهب الهدهد بكتاب سليمان وألقاه إلى الملكة فأخذته وقرأته، وجمعت مجلس الدولة لتداول الرأي في القضية، والقضية هامة تستدعي ذلك .

﴿قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ واتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[الآية: ٢٩-٣١].

قالت المرأة المالكة لقومها إني ألقى إليّ كتاب كريم، ووصف الكتاب بالكرم، يدل على عقلها وكياستها وسلامة فطرتها فقد أدركت من عباراته أنه كريم من كريم، وصرحت لقومها بذلك، ولم تذكر كيفية إلقائه ولا من الملقي به إليها، وقد تكون شهدت الهدهد وهو يلقي الكتاب، لكن لا داعي إلى ذكر التفاصيل، ثم إنها قرأت عليهم نص الكتاب .

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ واتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ .

كان هذا نص الكتاب الكريم الموجز، الدال دلالة كافية على المقصود المفتتح ﴿ببسم الله الرحمن الرحيم﴾ بعد ذكر اسم المرسل، وهو نموذج لما ينبغي أن تكون عليه رسائلنا .

إنه كتاب موجز حقا، وكذلك تكون كتب الملوك والرؤساء، وكذلك كانت كتب رسول الله -ﷺ- إلى الملوك وإذا دعت الحاجة في بعض الأحيان إلى البسط والإطناب

فيحسن ذلك، والبلاغة هي الاتيان بالكلام المناسب للشخص وللمقام، وخير الكلام ما دل على المقصود وفي الكتاب.

﴿ ألاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ واتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ .

المطلوب منكم ألا تترفعوا عليّ بل تواضعوا، وافهموا الحق الذي أدعوكم إليه وأتوني مسلمين ، فإني أدعوكم بدعاية الإسلام فأسلموا وأقبلوا عليَ مسلمين.

﴿قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَؤُا افْتُونِى في أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾[الآية: ٣٢].

ألتفت إلى الملأ حولها بعد قراءة الكتاب، وقالت لهم : يا أيها الملأ أفتوني، أشيروا عليَّ فقد تعلمون أني ما كنت أقطع أمراً من أمور المملكة حتى أشرككم وتحضرون وأستشيركم فقد دلت هذه العباة على حسن سياسة هذه المرأة أنها لا تقطع أمراً من أمور السياسة والملك حتى تجمع الملأ من قومها وتستشيرهم، وهي الطريقة الرشيدة في تدبير الملك وسياسة الرعية ، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على عراقة هذه المرأة في الملك وجودة عقلها وحسن تربيتها ويدل على حصافتها ودقة إدراكها لأمور الملك، فإنها لم تغتر بمكلها الموروث ولا بعرشها العظيم فتستبد بالأمر كما يفعل كثير من الملوك الجبارين وقد أدرك منها قومها كياستها وسياستها الرشيدة، فردوا الأمر إليها وفوضوها وهم واثقون بصواب ما ترى، وتقرر وتحسم .

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وأُولُوا بَأسٍ شَدِيدٍ والأَمْرُ إليْكِ فَانُظِري مَاذَا تامُرِينَ﴾[الآية: ٣٣].

قال الملأ من قوم بلقيس وهم الوزراء وقواد الجيوش والأمراء : نحن أولوا قوة وأولوا

بأس شديد أي أصحاب الشوكة والرجال والعتاد ،والأمر إليك أي والقرار الحاسم بيدك تأمرين وننفذ فانظري ماذا ترين وماذا تأمرين، فإنا لأمرك مطيعون، وهذا الجواب من القوم يدل على مبلغ ثقتهم بملكتهم، وسداد رأيها ومعرفتها بمصادر الأمور ومواردها ويدل أيضا على ما بلغوا إليه من القوة والعتاد فهم على استعداد لأي هجوم أو دفاع، أو غزو تأمرهم به ملكتهم وسيأتي جواب هذه الملكة المحنكة التي ورثت من ابائها الملوك العبقرية والاطلاع الواسع ما يجعلها حرية بهذا المنصب .

﴿قَالَتِ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[الآية: ٣٤-٣٥].

أجابت المرأة بجواب ينبئ عن خبرتها الواسعة بسيرة الملوك والمغازي، وصوب الله جوابها بقوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

فقد قال جمهور أهل التفسير أن هذا من قول الله عز وجل، فكرت بلقيس في القضية تفكيراً جيداً فاهتدت إلى حل سلمي فيها فقالت: وأكدت قولها لعلمها بتاريخ الملوك ومغازيهم قالت إن الملوك المهاجمين إذا دخلوا قرية أي مدينة ودخلوها أفسدوها أي سلطوا عليها من يفسد فيها وجعلوا أعزة أهلها أذلة بما يسلطون عليهم من أنواع الإهانة والعذاب، والتشريد والقتل، ويفعلون ذلك قصداً حتى لا يرفعوا رأسهم ولا يعودوا يفكرون في الانتصار لملكهم وتجديده ، قال الله تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

أو تلك عادتهم وذلك دأبهم في البلاد المفتوحة، يذلون أعزتها ويفسدون فيها

بأنواع الفساد، هذا إذا كانوا ملوك تسلط وتوسع، طلاب دنيا وعلو فيها أما إذا كانوا هداة مرشدين ذوي رسالات دينية فيكون أمرهم صلاحا ورحمة وعفواً وحسن سيرة في الرعايا، قالت: وإني مرسلة إلى سليمان ومن معه بهدية أختبرهم بها وأنظر ماذا يرجعون ، حينئذ يتبين لنا أمرهم وقصدهم إن كانو طلاب دنيا أو حاملي رسالة سماوية وأصابت في هذا النظر كما أصابت في حكمها الأول فاستمع الملأ إلى قولها وصوبوا نظرها، ووافقوا على إرسال الهدية، ولا شك أن تكون سنية كشأن هدايا الملوك والرووساء .

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيمانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَنِيَ اللَّهُ خَيرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُم بَلَ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعِ إلَيْهِمْ فَلَنَاتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[الآية: ٣٦-٣٧].

لما جاء رسول بلقيس سليمان بالهدية وقدمها، له أبى أن يقبلها لأنه ما كان يطلب الهدايا إنما يطلب هدايتهم إلى دين الله الإسلام، ولأن الله أغناه عن هديتهم فهي شيء قليل إلى ما أتاه الله من النبوءة والملك والواسع والغنى ، قال نبي الله سليمان عليه السلام للرسول الذي جاءه بهدية بلقيس :

أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَنِيَ اللَّهُ خَيرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُم بَلَ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

أأطلب منكم الإسلام وتمدونني بمال ! أتظنون أني أحتاج إلى مالكم، كلا فما آتاني الله من الملك والغنى والكنوز خير مما آتاكم، فأنا لا أفرح بهديتكم، ولست طالب دنيا بل أنتم الذين تفرحون بهداياكم ، جاء بعبارة تدل على حصر الفرح فيهم بما يهدى إليهم ،وأضاف الهدية إليهم لتجرده من طلب الدنيا وزهده فيها ، فهي ليست منه وهو

ليس منها إلا كمستظل بظل شجرة ثم يذهب ويتركها، إنما همه فيها دعوة الناس إلى دين الله لإسعادهم بهدايته ورحمته، وإبعادهم عن سخطه وعذابه ، كان هذا همه الوحيد في هذه الدنيا وما الملك العريض الذي طلبه إلا وسيلة إلى نصرة دين الله، ونشره في الأرض وكان جهاده الناس حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

لقد كانت لهجته في الرد عليهم صارمة تدل على غضبه عليهم، حين عرضوا عليه متاع الدنيا، وهو يطلب هدايتهم فوبخهم على ذلك توبيخا وهددهم بإرسال جنوده إليهم لتأديبهم وإذلالهم إن هم امتنعوا عن الدخول في الإسلام، وهددهم بكثرة جنوده وقوة عدتهم وعتادهم وتهديده لهم نوع من إظهار القوة لعلهم يرجعون ،فيهتدون بهداية الله وتحقن دماؤهم، وما كان نبي الله يرغب في سفك دماء الناس، إنما كان رسول رحمة يرغب في هدايتهم إلى صراط الله المستقيم، قال سليمان للرسول : إرجع إليهم ورد عليهم هديتهم، وأنذرهم أنا قادمون عليهم بجنود لا قبل لهم بها، أي لا يقوون على مدافعتها، فلخير لهم أن يسلموا قبل أن نطأ بلادهم، فإنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، وقد صاغ سليمان الكلام أول مرة في صيغة المخاطبة للرسل وقومهم قوم بلقيس، حتى يكون ذلك أبلغ في التذكير لهم، ثم أمرهم بالرجوع إليهم مهددا لهم بهجوم مكثف لا طاقة لهم برده، فلم يبق لهم طريق للنجاة إلا الدخول في دينه والاسلام لرب العالمين .

فلما انقلب رسولها إليها بجواب سليمان، قالت : لقد علمت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، فجمعت أعيان قومها قيل: وكانوا اثني عشر ألف قائد وأرسلت إليه أني قادمة إليك لأنظر أمرك، واستعد سليمان لمقابلتهم وهيأ لذلك ما يليق بعظمة ملكه، وجمع جنوده من الجن والإنس والطير، وخصص مقاعد خاصة لأعيان بني إسرائيل،

ويحدثنا القرآن ببعض ذلك في مظهر يدل على عظمة ملك سليمان ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ
مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ
أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ
رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ
تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ
قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾
وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً
وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ
رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

لقد علم سليمان عليه السلام بمقدم بلقيس ومعها أعيان قومها الأقيال والعباهلة،

وعلم باقترابها من بيت المقدس، فأحب أن يفجاءهم بمشهد يدل على عظمة الملك الذي وهبه الله له، حتى يكون ذلك أدعى إلى سرعة إيمانهم بالله وإسلامهم له، فقال لمن حوله من أعيان المملكة من الجن والانس .

﴿قَالَ يَأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَاتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَاتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[الآية:٣٨].

خاطبهم باسم الملأ تعظيما وتوقيرا لهم، وهم أهل لذلك قال لهم: أيكم يأتيني بعرش هذه الملكة القادمة قبل أن تأتيني هي وقومها مسلمين، وقد أخبره الله أنهم يأتونه مسلمين، قال عفريت من عفاريت الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وهي سرعة عظيمة يطوي به مسيرة شهرين في سويعات قلائل .

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[الآية:٣٩].

وعفاريت الجن أقوياؤهم، قال أحدهم لسليمان أنا آتيك بالعرش قبل أن تقوم من مقامك، وإني على نقله قوي، وعلى حفظه لأمين، والقوة والأمانة هما الصفتان المطلوبتان في مثل هذا المقام، وخير الأجراء الأقوياء ذووا الأمانة، ويبدو أن سليمان سكت ولم يقتنع، وخاف أن يصل وفد الملكة قبل وصول العرش، ورغب في أسرع من ذلك .

﴿قَالَ الذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[الآية:٤٠].

قال الذي عنده علم من الكتاب، وأي كتاب هذا ؟ أهو اللوح المحفوظ أم كتاب آخر؟ الله أعلم وللمفسرين كلام في الشخص الذي عنده علم من الكتاب، قال بعض هو جني

وقال بعض هو سليمان نفسه وجزم آخرون أنه أنسي وغير سليمان، وهو الذي نميل إليه وقيل: إنه اصف بن برخيا وهذا العلم هو معرفة اسم الله الأعظم يدعوه به ويستجيب، فينقل الله العرش في طرفة عين، وهو على كل شيء قدير، ولله في خلقه أسرار وله عند بعض أوليائه علم لدني، وفوق كل ذي علم عليم، وفي الآية إشارة إلى أن الله سيمكن الإنس من العلم كما مكن أسلافهم ما يفوق ما عند عفاريت الجن من القوة والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[الآية: ٤٠].

لما رأى سليمان عليه السلام عرش بلقيس ماثلاً بين يديه، في الموضع الذي يريده، وافرا غير منقوص، وبالسرعة التي وافق عليها قيل أن يرتد إليه طرفه أي قبل أن يتحرك جفناه وهو عرش عظيم كما قال الهدهد قيل كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين في مثلها من العلو وقيل ثمانين في ثمانين ولا عجب في ذلك فقد كان الملوك يرفعون الأمراء والوفود على العروش ولا يستقيم له هذا إلا إذا كانت عظيمة واسعة، وكان عرش بلقيس مرصّعاً بالزخرف والجواهر الكريمة، لما رأى سليمان هذا العرش ماثلاً أمامه انطلق لسانه بالشكر من أعماق قلبه لربه الذي سخر له هذا الملك، قال هذا من فضل ربي عليَّ ليبلوني أأشكر أم أكفر، وكذلك يبتلي الله عباده بالخير والشر ليظهر منهم الشاكر والكافر والله عليم بما يفعلون وكذلك يفعل العارفون بربهم، يشكرون عند النعماء ويصبرون عند الضراء، ويريد الله تعالى أن يرسم لعباده المثل العليا من أنبيائه وأوليائه الصالحين المهتدين والقرآن كتاب موعظة وذكرى، وفي قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠]، والصالحون من عباد الله كلما زادهم الله تمكينا وعزا ازدادوا له تواضعا وشكراً ولأخوتهم المؤمنين تذللاً وخفض

جناح، وهم ينظرون إلى المنعم نظر المعترف المتذلل الشاكر الذاكر، وما توفيقهم إلا بالله قال سليمان:

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

ومن شكر ربه على نعمة من نعمه التي لا تحصى فإنما يشكر لنفسه، لأن أجر ذلك الشكر يكتب له ويزيده الله من نعمه، ومن كفر فإنه لا يضر الله شيئاً ولا ينقص من ملكه، بل يضر نفسه لأنه يعرض نعمته للزوال في الدنيا، ويعرض نفسه لعذاب الله في الآخرة، ولا يضر الله شيئاً بكفره وليس بناقص شيئاً من ملك الله، وليس الله محتاجاً إلى شكر عبيده فإن الله غني كريم، وقد يوالي عليهم النعم على ظلمهم وشكرهم، وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر:٧]، وسيجزي الله الشاكرين جزاء حسنا في الدنيا و الآخرة.

ثم إن نبي الله سليمان أراد أن يختبر ذكاء هذه الملكة وعقلها بتنكير عرشها، وإلقاء السؤال عليها فينظر أتعرفه أم تنكره وتستبعد إتيانه من بلادها البعيدة ولتشهد آية لعظمة ملك نبي الله سليمان، فيكون ذلك داعيا إلى إسلامها وإسلام قومها معها.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[الآية:٤١-٤٢].

قال المفسرون: إن سليمان أمر الجن أن يغيروا بعض معالم العرش امتحانا و اختبارا لعقل هذه المرأة ففعلوا وبدلوا بعض الأشياء من مواضعها، وغيروا بعضا منها، فلما

جاءت واستقبلت هي ووفدها بما يليق بمقامها، قيل أهكذا عرشك فاهتدت إلى جواب لطيف قالت كأنه هو، لم تقل هو خوف الكذب، ولم تقل ليس هو خوف التكذيب، وقد ترجح في ظنها بنسبة غالبة أنه هو غير أنها لم تقطع، وتعجبت كيف ينقل عرشها العظيم في مسافات شاسعة، وقد غلقت دونه الأبواب المتينة، وأقامت عليه الحراس الأشداء .

فكيف ينقل هذا العرش في هذه السرعة العجيبة، وكيف يوصل إليه قبل ذلك، وغفلت عن قدرة الله الذي يقول للشئ كن فيكون، وصدها عن إدراك هذه الحقيقة كفرها وعبادتها للشمس من دون الله والشرك حجاب على القلب يحجب عنه نور العلم، ويصده عن مشاهدة الحقائق الملكوتية ،ولذا قال سليمان :

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ .

قال المفسرون : هذا من قول سليمان تحدث بنعمة ربه فقال: وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين بالله رب العالمين، عالمين أن الله على كل شيء قدير، مفوضين أمورنا إليه متوكلين عليه وأقول: ولا مانع أن يكون هذا الكلام من قول بلقيس كما هو ظاهر السياق، فهي تقول: وأوتينا العلم بصدق رسالة سليمان من قبل هذه المعجزة، وكنا مسلمين لله رب العالمين، وقد جاءت لتعلن إسلامها وإسلام قومها وهذا عندي أظهر وقوله تعالى :

﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾[الآية:٤٣].

أي وصدها عن التصريح بإسلامها ما كانت عليه من الشرك على طريقة آبائها

وأمهاتها، إنها كانت من قوم كافرين، عباد الشمس، ولا بد أن يتغلب التقليد على قلبها ولو إلى حين، فقد يدرك العقل نور الحق، ولكن القلب يكون في كن من ظلمات التقليد، بينه وبين الحق حجاب، ولكل أجل كتاب، فإذا أراد الله هداية من يريد هدايته هيأ له الأسباب .

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الآية: ٤٤].

أعد سليمان عليه السلام صرحاً خاصاً لاستقبال ضيفته الكريمة، ومن معها من الأقيال والعباهلة ،والصرح هو القصر، وكانت الملوك منذ القديم ولا تزال، تعد لوفودها قصورا لاستقبالهم، وكذلك صنع سليمان فأمر الجن أن يبنوا له صرحاً من زجاج ممردة أرضه بالزجاج أي مملسة قيل وأمر الجن أن يصنعوا في وسط الأرضية الزجاجية حيتانا حتى إذا رأتها بلقيس لم تشك أنها لجة من الماء، فلما قال لها سليمان: أدخلي الصرح، كشفت عن ساقيها لتعُوم ظنا منها وهي الذكية الفطنة أنها لجة وحينئذ قال لها سليمان إنها ليست لجة، أنما هي أرضية ممردة من قوارير متقنة الصنع .

لقد شهدت وشهد قومها عظمة ملك سليمان المؤيد بالمعجزات الباهرات فآن الآوان لتعلن إسلامها، فأعلنت توبتها من الشرك، وصرحت بإسلامها لله رب العالمين .

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قالت يا رب إني ظلمت نفسي بالشرك، وما في الشرك من آثام ،وتبت إليك، وأسلمت مع نبيك سليمان لك يا رب العالمين.

قال المفسرون ما أعقل هذه المرأة في شركها وإسلامها ، أما عقلها في شركها فقد تقدم في جوابها لكتاب سليمان واختبارها إياه بالهدايا وحكمها على الملوك ، وأما عقلها في إسلامها ففي دقة فهمها للإسلام ، حين قالت : وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ، ولم تقل أسلمت لسليمان ولله ، لأنها علمت أن الإسلام هو التحول من عبادة العباد ، إلى رب العباد فهي وسليمان عبدان من عباد رب العالمين ، ولم تغفل ذكر سليمان حال إسلامها لله ، لأنه إمامها وهاديها وقدوتها في إسلامها ، فلولاه ما عرفت الإسلام ، ولذا ألهمها الله أن قالت :

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ .

فأعجبوا لذكاء هذه المرأة وتمام عقلها وليت كفار قريش نظروا إليها وقالوا : أسلمنا مع محمد لله رب العالمين ، ولكن كبرياءهم أبت عليهم الإسلام الذي يسويهم بمحمد وأصحاب محمد ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ هذه كانت قصة بلقيس مع سليمان ، ذكر الله منها موضع الاعتبار والذكرى ولم يذكر بعد ذلك مآلها وقومها ، وقيل إن سليمان عليه السلام تزوجها وردها إلى مقر ملكها مكرمة ، وكان يركب بساطه السريع ويزورها مرة كل شهر ، يمكث عندها ثلاثة أيام .

وقد اشتهر أمر زواجها بسليمان عليه السلام عند الناس ، وروي خبر قديم منذ عهد التابعين أن قصراً من قصور اليمن سقط ، ووجد الناس في أنقاضه قبراً ، وأن القبر انكشف عن امرأة جميلة الصورة ، وصفوها بأوصاف عجيبة ، ووجدوا عندها عمامة من حرير مكتوب فيها : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾ أنا ملكة بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود عليهما السلام ، ملكت من الدنيا مؤمنة وكافرة ما لم يملكه أحد قبلي ، ولا يملكه أحد بعدي ، فهذا مصيري إلى الموت ، فيا طالبي الدنيا أقصروا » أيها الناس

الذين ملك نفوسهم حب الدنيا أقصروا واتعظوا فهذه نهاية الدنيا .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾
قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ
لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ
وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا
ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ .

يذكر الله تعالى هنا قصة صالح مع قومه، ويختصرها بعد أن بسطها نوعا ما في سورة الشعراء ويرد ذكر أنبياء الله وأقوامهم في مواضع عديدة من كتاب الله، بأساليب مختلفة كلها مؤثر بما يعرض من مشاهد الاعتبار فيها التسلية لقلب النبي وأصحابه المؤمنين المستضعفين يبين الله فيها أن العاقبة للمتقين فليتأسوا وليصبروا ويصابروا فيها التحذير والتخويف للكفار الطاغين فليحذروا عاقبة الذين من قبلهم فإنهم كانوا أشد منهم وأكثر عددا فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾[الآية : ٤٥] .

يخبرنا الله تعالى بنون العظمة وبالتوكيد أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا، وقد بينا من قبل أن هذه الأخوة إنما هي في الجنس والعشيرة لا في الدين، أرسل الله عبده صالحا رسولاً إلى قومه ثمود يدعوهم إلى عبادة الله وهي دعوة كل الرسل لأقوامهم أن يعبدوا الله ربهم ويوحدوه بالعبادة، ويتركوا عبادة الشمس والقمر والنجوم والملائكة والجن والأصنام، ولا يسووها برب العالمين ، قال تعالى :

﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

فإذا قوم صالح ينقسمون إلى فريقين متخاصمين ، فريق مؤمن بصالح وما أنزل إليه، وفريق كافر به وبما جاء به، يجادلون المؤمنين في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ويكذبون رسولهم، ويستعجلون نزول العذاب ﴿ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[النمل : ٧١]، ويرد عليهم رسول الله بالتي هي أحسن .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الآية: ٤٦].

ينادي صالح قومه :

﴿يَاقَوْمِ﴾.

نداء فيه تحنن واستعطاف لقلوبهم قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، وكأن استعجالهم بالعذاب من نوع استعجال قريش حين بلغوا من الطغيان والعناد ما أشار الله إليه بقوله : ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢] .

وليتهم استعجلوا الحسنة فقالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، كذلك كان قوم صالح يقترحون الآيات ويستعجلونه بالعذاب، فأشفق عليهم ونهاهم عن هذا، وأرشدهم إلى استغفار ربهم من ذنوبهم ،وهذا خير لهم .

﴿لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

ولولا هذه للتحضيض، أي هلا تستغفرون الله ربكم لعله يرحمكم في الدنيا، برفع العذاب، وفي الآخرة بتحقيق الثواب والنجاة من سوء الحساب، لقد كان صالح كباقي رسل الله حريصا على قومه، مشفقا عليهم من نزول العذاب، ولكنهم كانوا طغاة متمردين .

﴿قَالُواْ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[الآية: ٤٧].

قال قوم صالح لصالح حين جاءهم بالرسالة، فآمن به من آمن، وكفر من كفر

فتفرقوا حزبين قالوا له تطيرنا بك فقد كنا مجتمعين ففرقتنا فقال لهم طائركم عند الله أي أمركم بيد الله ينزل من قضائه ما يريد على عباده، ولا نملك شيئاً من ذلك، وأصل التطير أن العرب من قديم كانوا إذا أرادوا أمراً يزجرون الطير ويثيرونه، فإن طار إلى اليمين تيامنوا وتفاءلوا وقالوا حاجتنا مقضية وإن طار إلى الشمال تشاءموا وتطيروا ورجعوا عن ذلك الأمر، فجاء الإسلام بتحريم التطير وإبطاله، وقال إن هذا من أمر الجاهلية فمن كانت فيه طبيعة التطير فهو من طبع الجاهلية وليس فيه حظ من الإسلام، والأمور كلها بيد الله تجري بقضائه وقدره .

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلَ أنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ .

قال صالح لقومه : بل أنتم قوم تفتنون، يفتنكم الله بفتنته وإليه ترجعون، يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، وفتنتهم بسبب كفرهم وإعراضهم وتكذيبهم بنذر الله، فذلك هو طائرهم .

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[الآية :٤٨-٥٣].

يقص الله علينا في هذه الآيات المختصرة قصة هلاك قوم صالح الذين كذبوا رسل الله، وكفروا بآيات الله، ويخص بالذكر أولا تسعة منهم بلغوا من المكر والإفساد في الأرض أسفل سافلين، تآمروا على قتل نبي الله صالح، بعد أن تآمروا على عقر الناقة

وعقروها فعلاً ورضى القوم بمكرهم وتمردهم فأنذرهم صالح عليه السلام بعذاب الله في ثلاث ليال، فقال لهم : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[هود :٦٥] .

وفي هذه المدة من أيام الانتظار تقاسم هؤلاء التسعة بالأيمان المغلظة، أقسموا بالله لنبيتنه وأهله، تآمروا على قتل صالح وأهله، وبيتوا على المكر خفية ،وعولوا أن ينكروا ذلك حتى ولو حومت حولهم التهم سوف يدافعون عن أنفسهم بالإنكار القاطع، والحلف على الكذب أنهم ما شهدوا مهلك أهله، ولا عرفوا من ذلك شيئا، وهذا لأنهم عرفوا أنهم سيتهمون لأجل ما شهر عنهم من الشر من عداوة صالح ، سوف يحلفون أنهم لم يشهدوا مقتلهم، ولم يعرفوا لهم خبرا، وأنهم لصادقون، يدعون ذلك ويؤكدون دعواهم بالأيمان الكاذبة، وذلك خوفا من رهط صالح أن يثأروا له منهم، فبيتوا أمرهم على المكر ولكن مكر الله كان أعظم من مكرهم ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾[فاطر :٤٣] .

تظاهروا أولاً أنهم مسافرون ،حتى يبعدوا عن أنفسهم التهمة، فخرجوا من المدينة وآووا إلى غار يختفون فيه لينطلقوا منه في غفلة القوم إلى قتل صالح وأهله، فمكر الله بهم فأسقط على باب الغار صخرة عظيمة سدت عليهم بابه فدفنوا هناك وهم أحياء، وقيل في رواية أخرى أن الله أمر الملائكة أن تدمرهم بحجارة حين صاروا في باب مسجد صالح هاجمين عليه ليقتلوه، فدمرهم الله هناك، فكانوا هم المهلكين ودمر الله قومهم بالصيحة العظيمة وبالرجفة، ارتجفت بهم الأرض فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها، وعمهم الهلاك ولم ينج منهم أحد قال تعالى :

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ .

وكذلك يخرب الله بيوتهم فلا تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وأنجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين لم يمسسهم سوء ،وكذلك يهلك الله الظالمين وينجي المؤمنين وفي ذلك عبرة للمعتبرين ، فيه تخويف للكافرين ، وتسلية لقلب رسول الله ومن معه من المؤمنين.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أي إن في ذلك الإهلاك لآية من آيات الله لقوم يؤمنون ، ويعلمون أن الله على كل شيء قدير ، وإنه لبالمرصاد ،وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون، وقال الله تعالى : .

﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

أي وأنجينا من عذاب الهلاك في الدنيا ، ومن عذاب الآخرة الذين ءامنوا وهم صالح وقومه وكذلك ينجي الله المؤمنين الذين يتقون الله ، وفي تعليق النجاة بالمؤمنين الذين كانوا يتقون إشعار بعلة نجاتهم من العذاب ، إن النجاة لا تقتصر عليهم وحدهم، بل ستكون حظ كل مؤمن ومؤمنة يتقون الله في إيمانهم ولا يتحقق الإيمان إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وهكذا يعلمنا الله حقيقة الإيمان ومنزلة التقوى من الإيمان ،وأن الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ
مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

القصة الرابعة من قصص هذه السورة، هي قصة لوط عليه السلام وقومه العصاة المتمردين على رسول الله، وانتقام الله منهم، وترد القصة مختصرة يبرز منها جانب العبرة والذكرى في جو هذه السورة التي تعرض قصص الأنبياء في إيجاز مشرق، له في أنفس السامعين تأثير بليغ، ويبين الله تعالى في هذه القصة وأخواتها سنته الثابتة في خلقه، وإنها لن تتغير ولن تتحول ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[فاطر :٤٣]، يعرض الله في القصة مشهد الدعوة من رسول الله، وإنكاره على قومه ما هم فيه من إتيان الفواحش جهاراً نهاراً، ومشهد إعراضهم وتمردهم وارتكاسهم وانتكاس عقولهم في تصور الأشياء معكوسة ومحاولاتهم طرد لوط وآله من قريتهم بل من قراهم، من ثم كيف انتقم الله وطهر الأرض من أدناسهم وأرجاسهم، وتركهم عبرة للمعتبرين وفي إهلاكهم آية للمتوسمين.

أنذرهم نبيهم لوط عذاب الله فلم يخشوا عاقبة الكفر والتمرد وكذبوا النذر، فأهلكهم الله وأمطر الله عليهم مطراً من العذاب والدمار فساء مطر المنذرين ، يقص الله هذه القصص لنبيه ليعرفه سنته في خلقه وأنها لن تتبدل حتى لا يستبطئوا نزول العذاب وانتقام الله من أعدائه، فإن الله لن يغير سنته من أجلهم، وإن للظالمين ذَنوباً

مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلوا ربهم، وليصبروا وليسلموا الأمر لله، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون، وفي القرآن مخاطبات للنبي -ﷺ- في هذا المعنى فمن ذلك قول الله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ أَوْيَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُواْ خَائِبِينَ لَيْس لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[آل عمران:١٢٧-١٢٨]، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالذى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[الزخرف:٤١-٤٣].

كذلك يسلي الله نبيه ومن معه ويثبت قلوبهم، ويرشدهم إلى التفويض إلى الله تبارك وتعالى، فإنه بعباده خبير بصير، وإنه على إهلاكهم قدير، وإنه للتائبين منهم تواب رحيم غفور :

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[الآية:٥٤-٥٥].

يقول الله تبارك وتعالى : ولوطاً أرسلناه إلى قومه كما أرسلنا صالحاً وهوداً وغيرهم من الأنبياء ، واذكر نبينا لوطاً حين قال لقومه منكرا لفعلتهم الشنيعة : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ، أتتعمدون ارتكاب فاحشة اللواط جهاراً نهاراً وفي ناديكم، لا تستحون ولا تتسترون ! .

وهذا من أعظم الإجرام أن يصل بهم الأمر إلى هذا الحد، فيأتون هذه الفاحشة وهم يبصرون، وقيل يبصرون بمعنى يبصرون الحق ،ويعلمون أن هذه الفاحشة من أعظم الذنوب، ولا يرعوون عنها لأنهم ألفوها وتعودوها فصار دأبهم ،لا تسلو عنها نفوسهم الخبيثة ، والفاحشة ما عظم خطره واتسع ضرره من الذنوب، ولم يعد مقصوراً على صاحبه .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ .

كانوا يأتون الرجال بشهواتهم من دون النساء كانت تميل طباعهم المنحرفة إلى الرجال يشتهونهم ولا يشتهون النساء، قيل وكان نساؤهم تشتهي النساء من دون الرجال وابتكروا هذه الفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين، لا من عالم الإنس، ولا من عالم البهائم والوحوش والسباع، وسائر الحيوانات، فأنكر عليهم لوط عليه السلام إتيان الرجال وقال :

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ .

والجهل من الجهالة التي هي السفاهة وارتكاب الذنب من غير النظر إلى العواقب، وهي فعل من استعبدته شهوة النفس، واستحوذ عليه الشيطان، والمجاهرة بالفاحشة أعظم من الذنب، وهي الحالة التي عندما ينتهي إليها العصاة يحق عليهم عذاب الله، وفي الحديث الشريف : « كل أمتي معافون إلا المجاهرون ... الحديث » وذكر الرجال في مثل هذا المقام مقصود به استثارة همّة الرجولة فيهم، إن بقيت فيهم همة أو حياء حتى ينفروا عن هذا العمل الشنيع ولكن القوم تجاوزوا هذا الحد، وارتدوا أسفل سافلين، فلم يستمعوا لكلام نبيهم، ولم يؤثر فيهم نهيه وإنكاره وتوبيخه ،وتخويفه إياهم عذاب الله بل ازدادو عتواً وتمرداً فقابلوا كلامه بالعناد والتهديد بالإخراج من القرية .

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[الآية:٥٦] .

إن قوم لوط كانوا قوماً فاسقين، استمرءوا فسقهم وزينه لهم الشيطان، فلم يكن جوابهم لبيئهم لوط حين نهاهم وأنكر عليهم الفاحشة إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من

قريتكم، واقصوهم عنكم، إنهم أناس يتطهرون، فما أعجب هذا الكلام ! .

أصبح التطهر والابتعاد عن الشذوذ الجنسي عيباً وآفة ، يطرد بها صاحبها من بلده، وينفي ويبعد من قومه، ولا تعجبوا لهذا فقد يصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً في كثير من المجتمعات المريضة، ألا ترون إلى كثير من بلاد العالم اليوم تشاع فيها الفسق والعري، وارتفعت الغيرة من قلوبهم فأصبحوا يرون التبرج تقدماً وحضارة ،وبلغ بهم هذا الانحراف أن يراقص الرجل امرأة الرجل وهو ينظر ويهنيه على ذلك، ويرون هذا أدبا وحضارة، ويرون غيره جموداً ورجعية، وأصبحت هذه الأخلاق تنتشر في البلاد الإسلامية، وينسلخ أهلها من أخلاقهم وأخلاق آبائهم الإسلامية، ويتنكرون لمن يتمسك بها، ويرمونه بالجهل والجمود والتحجر، لقد أصبح الرقص فنا والتعري تقدما والتدخين رقيا وسميت الخمور أشربة روحية، وصدق رسول الله -ﷺ- إذ يقول : «سوف يشرب فريق من أمتي الخمر يسمونها بغير أسمائها» ويقول في حديث طويل : «كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفا» فاليوم تغيرت الموازين، وانتكست القيم وران على القلوب ارتكاب الآثام وإتيان الفواحش، وعاد الإسلام غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء .كذلك كان جواب قوم لوط لنبي الله لوط :

﴿أَخْرِجُوا ءالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ .

أصبح التطهر في موازينهم المعكوسة عيبا خطيراً يجب أن يقصى أصحابه، وينفوا من البلاد، حتى لا تسري عدواهم إلى أهلها ، ألم يقل فرعون لقومه في أمر نبي الله موسى : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦]، نعم قالها صريحة واستمع إليه قومه وصوبوا كلامه . قال الله تعالى :

﴿فَأَنجَيْنَاه وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾[الآية:٥٧-٥٨].

لما جاء أجلهم المقدر ولم يعد ينفعهم الوعظ جاء أمر الله فبعث الله ملائكته بالعذاب وأمروا لوطاً أن يسري بأهله المؤمنين، فإن العذاب مصبح قومه الفاسقين، فنفذ لوط ما أمر به، وترك امرأته في الغابرين، أي في الباقين ليصيبها من العذاب ما يصيبهم، لأنها كانت كافرة ممالئة لهم على فسقهم وضلالهم، قال الله تعالى :

﴿فَأَنجَيْنَاه وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ .

هكذا يتكلم ربنا بنون العظمة، وهو الفعال لما يريد، يقول للشئ كن فيكون، ويخبرنا بأنه قدر على هذه المرأة الشقية أنها تهلك في الغابرين، وما ظلمها الله بتقديره هذا، ولكنها ظلمت نفسها وآثرت الكفر على الإيمان والفسق على التطهير ونبذت أمر زوجها رسول الله وراءها وخانته بمخالفتها لأمره وممالأتها لأعدائه وأعداء الله فكانت من الهالكين ولم يغن عنها زوجها وقيل لها أدخلي النار مع الداخلين ، وبنون العظمة يقول الجبار جل جلاله :

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ .

أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك للمسرفين، فأهلكهم بالصيحة وبهذا المطر الذي قال فيه :

﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ .

لأنهم نذروا فلم يسمعوا النذر : ﴿وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَ يُومِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وزادهم نوعاً ثالثاً من العذاب وذلك أنه جعل بلادهم عاليها سافلها

فأصبحت أجسادهم النتنة بالآثام تحت طبقات الأرض وياما أفظعها من عقوبات ويا ما
أقساه من عذاب : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾[طه :١٢٧] ، مضوا إلى سخط الله ،
وأصبح نبؤهم عبرة للمعتبرين وآية للذين هم لربهم يرهبون ونعوذ بالله السميع
العليم من مصير الفاسقين ، والحمد لله رب العالمين ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ
عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ
أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ
لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا
دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ
أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ
وَالأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ
إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ
فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ .

في هذه الآيات الكريمه خطاب بديع يفتتح بالحمد لله وبالسلام على عباده المصطفين الأخيار، يلي ذلك استفهامات متتابعة تحمل بيانات لآيات الله في الكون علويه وسفليه وتعقب بإنكارات وتبكيتات للمشركين الذين هم بربهم يعدلون والذين لا يعقلون ولا يعلمون، ولا يتذكرون خطاب بليغ يعلمه الله لنبيه ليلقيه على قومه وعلى الناس الذين يشركون بالله ويعبدون من دونه آلهة يسوونها برب العالمين .

خطاب رائع يعلمه الله نبيه، ويعلمنا جميعاً كيف نخطب، وكيف نفتتح جميع خطبنا ورسائلنا ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وبالسلام على عباد الله الذين اصطفاهم من بين خلقه وهؤلاء في مقدمتهم أنبياء الله ورسله ثم صحابتهم وحواريوهم، ثم جميع من اتبع هداهم إلى يوم الدين .

قال الله تعالى في سوة فاطر : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الذينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ ﴾[فاطر : ٣٢]، يقول الله تعالى لنبيه بعد سرد هذه القصص الرائعة الموجزة

التي أرتنا كيف انتصر الله لأوليائه، وكيف انتقم من أعدائه، وكيف كانت العاقبة للمتقين الذين اصطفاهم الله بهدايته واجتباهم لولايته وكيف انتقم من أعدائه وكيف كانت العاقبة للمتقين الذين اصطفاهم الله بهدايته، واجتباهم لولايته، يقول الله لنبيه ولكل تال للقرآن الكريم :

﴿قُلِ الحَمدُ لِله وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الذِينَ اصْطَفَى﴾[الآية: ٥٩].

قل الحمد لله أي الحمد كله، والحمد هو الثناء الجميل على الفضائل والفواضل، نثني على ربنا بما هو أهله، ولا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، ونسند جميع أوصاف الكمالات إليه وهو المستحق لها وكل حمد لغيره فهو مجازي، وكل جميل صدر من عباده فهو نابع من إنعامه وأفضاله، تعالى ربنا وتقدست أسماؤه الحسنى وصفاته العليا له الحمد وله الشكر وله الثناء الحسن الجميل، نملأ بحمده قلوبنا ونحرك به ألسنتنا وأقلامنا، ولا نبلغ كنه محامده، وإن من شئ إلا يسبح بحمده، فاللهم ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما تحب ربنا وترضى، ملء أرضك وملء سمائك وملء كل شيء بعد ذلك، فاكتبنا يا ربنا مع الحامدين واعطنا ثواب الشاكرين.

﴿وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الذِينَ اصْطَفَى﴾.

سلام الله على عباده الذين أصطفاهم واجتباهم وهداهم، وهم وحدهم يستحقون السلام، وهم أهله في الدنيا والآخرة، ونتوسل إلى الله بمحبتهم وإقراء السلام عليهم. وذلك هو عنوان ولايتنا لهم ولا يكمل إيماننا إلا بذلك، ندين لله بمحبة أهل طاعته، وبغض أهل معصيته، ونسلم على أنفسها وعلى عباد الله الصالحين، ونفتح كلامنا ونختمه بالسلام ونخص المرسلين : ﴿وَسَلامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ وَالحَمْدُ للَّه رب

الْعَالَمِينَ ﴾[الصافات : ١٨١-١٨٢]، فالحمد لله أولاً وآخراً ، والعجب كل العجب من بعض الرؤساء والمسلمين ممن ينتسب إلى الإسلام، يلقون الخطب الطوال والمهمة ولا يفتتحونها ﴿ ببسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ولا بالحمد لله رب العالمين ولا بالصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، وهذا منهم غفلة وتقصير كبير، ولا ينبغي أن يصدر هذا من أولياء أمور المسلمين ، ثم يأمر الله نبيه ومبلغ كلامه إلى عباده أن يقول :

﴿ ءآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وهذا الاستفهام لا يجري على ظاهر، وإنما يراد به التبكيت والتوبيخ في لهجة حادة، ولا تصح المقارنة أبدا بين الله وبين ما يعبد هؤلاء المشركون من دون الله أو يسوونهم بالله، فالله خير معبود وما سواه مما يعبد من دونه باطل، لا يملك ضراً ولا نفعا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وهذا الاستفهام يخاطب المنطق السليم والعقل الصحيح، والقلب الواعي، ويترك له الحكم، ثم بعده يبين الصفات والأفعال التي هي حق لله لا تسند إلا إليه، ولا يمكن بحال أبدا أن يوصف بها غيره، ولا يجوز أن يعبد إلا من كانت هذه صفاته وأفعاله، ولذا يختم كل استفهام بقوله : ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ ثم يعقبه بالتعقيب المناسب المعقول . يقول الله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أَ.لَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[الآية : ٦٠] .

أمّن : في هذه الكلمة أم التي هي بمعنى بل، ومن التي صدر بها الاستفهام والمعنى بل

أَمَن خلق السموات والأرض، أالله خالق السموات والأرض وما بينهما يُعدل به غيره ؟ . هذا ظلم عظيم ، ربكم الذي خلق السموات السبع ومن فيها ، وخلق الأرضين برها وبحرها وجوها ومن فيها وما فيها وما بينهما وأنزل لكم من السماء ماء فأنبت لكم به جنات كثيرات الأشجار والثمار ذات بهجة ، وما كنتم لتقدروا أن تنبتوا شجرها ولا أن تخرجوا ثمرها ، وهنا يؤدي الالتفات البديع معناه ، فالأسلوب ينتقل من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم .

﴿فأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ .

ذلك حتى يستقر في أذهاننا ولا نغفل أن الله الذي يخاطبنا ومِن الكلام كلامه ، هو الذي ينزل من السماء ماء ، وهو الذي ينبت به حدائق ذات بهجة والحدائق هي الجنات المحدقة بالجدران لوفرة ثمارها ونفاستها عند أهلها ومنه حدقة العين التي تحفظ العين التي تحدق بها ثم وصفها بوصف جميل .

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ .

فهي ذات اخضرار وغضارة ونضارة ، وزهور وثمار زاهية الألوان تبهج النفوس ، لاسيما إذا كانت مصففة الأشجار ، تجري من تحتها الأنهار سواقي من كل جهة ، وكانت مثقلة بالثمار اليانعة من الرطب ، والتين والأعناب والرمان وغيرها من مختلف الثمار ، فهي ذات بهجة بمناظرها البديعة وفوائدها ، وغلالها الوفيرة ، وظلالها الوارفة ومياهها الجارية العذبة كل هذا من صنع الله لا يستطيع الناس ولو اجتمعوا أن ينبتوا شجرة واحدة ولو صغرت ، أو يخرجوا ثمرة واحدة أو ينضجوها ، فسبحان الذي أنبت أشجارها ، وأخرج أنهارها وأنضج ثمارها ونوّع أزهارها وأعشابها متاعا للعباد

ولأنعامهم، وفي كل شيء مما ذكر تأملات تهدي إلى معرفة الخالق، وإفراده بالعبادة والتوكل عليه وحده .

﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ .

أيُعبد إله مع الله يشرك به وأنتم ترون أنه وحده خالق السموات و الأرض وما فيهما وما بينهما لم يشرك في خلقها أحداً، وما كان لأحد أن يفعل من ذلك شيئاً ولو قليلاً ، وعلى أسلوب الالتفات البديع يقول الله تعالى :

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ .

أي يميلون عن الحق ويصدفون وعنه يعرضون، ثم يقول الله تعالى :

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[الآية: ٦١].

يصف الله عظيم صنعه في الأرض، وكيف جعل منها وهيأ فيها كل ما يمكن الإنسان من الإستقرار فيها فهي صالحة بإذن الله لمعيشة الإنسان ،والحيوان المسخر للإنسان يسكن فيها ويبني ويغرس، ويضرب في مناكبها، ويستخرج من أجوافها المعادن والمياه والوقود، ويحرث فيها ويشق الترع والسواقي، ويرتفق بما فيها من الدواب والأنعام ،ويركب المراكب التي تشق بحارها وأجواءها وتحمل أثقاله، وجعل الله له خلال الأرض أنهاراً تجري بالمياه العذبة يشرب منها، ويسقي الحرث والنخيل والأشجار ويسقى ما يملكه من الدواب والأنعام، وجعل الله في الأرض الجبال أوتاداً يرسيها بها، فتأخذ وزنها وتستقيم في دوارنها، ولولاً ذلك لمالت فلا يمكن للإنسان أن

يستقر فيها، وليس كل كوكب يصلح لاستقرار الإنسان مثل الأرض، فهو يحاول الصعود إلى بعض الكواكب مثل القمر، ولكنه وجد القمر لا يصلح للعمارة والاستقرار وليس فيه المياه والأنهار وطقسه لا يلائم الإنسان فمن حرارة محرقة إلى برودة قاتلة، فهو لا يصلح للنبات ولا لاستقرار الإنسان والحيوان، وقد خلقه الله لعكس أشعة الشمس على الأرض، لينير الليالي وليهدي الساري، ولينضج الثمار ويحرك البحار بالمد والجزر، وقدره منازل ليكون مواقيت للناس والحج، وكم يكفينا من الكلام لنستوفي هذه الآية حقها، ونستوعب أسرار الله وآياته في هذه الأرض التي نعيش فيها، ومنها خلقنا، وفيها نرجع ، ومنها نبعث يوم النشور .

ولنتأمل هذه الآية جيداً لنزداد إيماناً بالله خالق الأرض وما فيها، والعجب كل العجب ممن يشاهد هذه الآيات ويتمتع بالنعم ،ويكفر بالله ويجعل له أندادا ﴿ قل أ.نَكُم لَتكْفُرُون بالذى خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْنِ وتَجْعَلُون لَهُ أنداداً ذَلِك رَبُّ العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارَكَ فيها وقَدَّرَ فيها أَقْواتَها في أَرْبعة أيَّامٍ سواء لِّلسَّائلين ﴾[فصلت :٩-١٠]، تلك آيات الله البينات في الأرض وما أقلت، وما أكنت وما أنبتت، وأخرجت من أقوات الناس والدواب والأنعام، وفي بحارها آيات بينات، قال تعالى :

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَينِ حَاجِزاً﴾ .

جعل بين البحر العذب الفرات والمالح الأجاج حاجزاً من قدرته، فلا يبغي أحدهما على الثاني، ﴿ مرجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ ﴾[الرحمن :١٩-٢٠]، ولا يزال العلماء في أمر البحار وطبائع مياهها، وما يعيش فيها من آلاف الأنواع من الحيوان.

وما يستقر في قيعانها من اللؤلؤ والمرجان وسائر المعادن ، لا يزالون في الوشل من علوم الاختراع والاستكشاف ، والذي اطعلوا عليه من أسرار البحار قليل من كثير ، وإذا لم يكن هذا العلم يهديهم إلى الإيمان بالخالق وعبادته فهو والجهل سواء ، ولذا نرى التعقيب على هذه قوله تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أكثر الناس يرون آيات الله ويعرضون عنها ، ويجعلون لله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[الروم : ٦-٧] ، فما أروع تعقيب الله على كل آية من هذه الآيات وما أنسبه لحالة العباد الذين يمرون بآيات الله ولا يتعظون ولا يعتبرون ﴿ وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[يوسف : ١٠٦] ، ثم تستمر الآيات في عرض آيات الله الكونية المحيطة بالإنسان وفي نفسه ، وفي عرضها تنبيه لعقله وتذكير لقلبه لعله يتذكر ويخشى ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ . أَ .لَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الآية : ٦٢] .

يعظنا ربنا تبارك وتعالى بهذه الآية الكريمة ويلفتنا إلى عظيم قدرته ومحض تصرفه في أمره بقضائه وقدره في مخلوقاتها الضعيفة التي ليس لها من الأمر شيء مهما قوي سلطان السلاطين ، وعلم العلماء فليس لهم أدنى قدرة في كشف السوء إذا نزل ، وصاروا في حالة العجز والاضطرار فلا ينفع حينئذ جنود الملوك ، ولا علم الاطباء ، ولا حيلة ذوي الحيل والدهاء ، بل يبقى الناس مكتوفي الأيدي عاجزين لا حيلة لهم في صرف المكروه النازل والمتوقع إلا الدعاء والتضرع إلى الله ، ينبهنا الله تعالى إلى هذه الأحوال العصيبة

التي لا يسلم من يعيش في هذه الدنيا من الوقوع فيها، أفرادا وجماعات وأمما ، هي أحوال عجيبة تضطر الإنسان الغافل إلى الرجوع إلى ربه والتضرع إليه أن يكشف السوء ويفرج الكرب .

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.

يلقي الله في هذه الآية علينا هذا الاستفهام الذي يراد به تقريرنا بالحقيقة وإثباتها . فكأنه يقول لنا : أليس الله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلائف في الأرض ! .

فما لكم تعبدون غيره ؟ أفلا تعقلون أفلا تذكرون، ما لكم ؟ أنى تؤفكون ؟ أنى تصرفون ؟ ينزل السوء بالإنسان أو يحيط به من كل مكان في البر أو في البحر أو في الجو، أو يصاب في بدنه فيجأر بالدعاء إلى الله وقد علم أنه لا يكشف السوء إلا هو. فيجيب الله دعاءه فيكشف عنه السوء الواقع والمتوقع بقدرته ولطفه ،ثم ينسى ربه في حالة الرخاء أو يجعل له شركاء فما أكفره، ينكر الله تعالى علينا هذه الأحوال العجيبة ويذكرنا بلطفه وقدرته، فهو الذي يفرج عن المضطرين، وهو الذي يجعلنا خلفاء الأرض، أجيالاً يخلف بعضنا بعضا، وذلك أنه قدر علينا الموت، ولو عاش الناس كلهم أوائلهم وأواخرهم ما وسعتهم الأرض، وكان بعضهم لبعض خصوما، وعاشوا في مشاكل فقدر الله عليهم أن يكونوا خلفاء بعضهم لبعض حتى يفنى أواخرهم عند قيام الساعة وفناء هذه الدنيا ثم يجمعهم يوم القيامة ليوم الجمع فيحكم بينهم ويحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، ويثيب المحسنين ويعاقب المسيئين ، ففي التفكر في هذا ما يعظ العاقل ويذكره ويتخذ إلى ربه مآبا ويعلم أنه لا إله إلا الله .

وفي هذه الأيام يقدّر الله نزول السوء على بلاد العرب والمسلمين، فيغلب عصبة

الصهاينة على جيوش العرب في خمسة أيام، وما كنا نتوقع هذا فليس لنا اليوم حيلة إلا أن نتضرع إلى الله أن يكشف عنا هذا السوء بقدرته، حتى نتغلب على آثار هذه الهزيمة، ونسترجع قوانا المادية والمعنوية حتى نستطيع أن نقهر هؤلاء الأعداء ونستنقذ منهم أراضينا المغصوبة، وما ذلك على الله بعزيز، والأيام دول، وفي هذه الهزيمة عبرة لنا حتى نتعظ ونتذكر ونرجع إلى الله، نرجع إلى الاعتصام بحبله المتين ولا نتفرق، فإن الله يأمر المسلمين جميعا أن يعتصموا بحبله ولا يتفرقوا، فلعل هذه الكارثة النازلة تنفعهم فيراجعوا أمر ربهم، وإلا يفعلوا فستكون لهذه الهزيمة آثار سيئة في بلاد العرب والمسلمين وفي العالم جميعا، ويا لها من مشكلة أذهلت الناس عن مشاكل كثيرة هم فيها يتخبطون، فأصبحت أحاديثهم كلها في هذه المشكلة الكبرى التي تهدد سلام المنطقة والعالم كله .

فالله وحده هو المرجو أن يكشف عنا هذا السوء، ويفرج عن الناس هذا الكرب النازل، ويذيل الله تعالى هذه الآية بآية مناسبة فيها تقريع وتوبيخ لعباده الغافلين الذين يعدلون عن الحق والإنصاف، والذين هم بربهم يعدلون فيقول :

﴿مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي أتغفلون وتنسون وتقسو قلوبكم فلا تذكرون، أليس في هذه الأحوال ما ينبهكم ويذكركم ويردكم إلى الله ! إن أمركم لعجيب، وإن شأنكم عن الصواب لبعيد، وإنكم لفي ضلال مبين وفي شقاق بعيد، وإن عاقبة من كان هذا شأنه لفي خسار، وإن مآله إلى بوار، نسأل الله أن يجعلنا من المنيبين المتذكرين وأن يجنبنا عواقب الغافلين آمين .

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الآية:٦٣].

يذكرنا ربنا تبارك وتعالى: بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة، ويلقي علينا هذا الاستفهام الذي ليس لنا بعده إلا أن نعترف مؤمننا وكافرنا أنه هو الله لا غيره، هو الله الذي يهدينا في ظلمات البر والبحر، وهو الله الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته مبشرات ولواقح ولا غنى لعباده عن رحمته . وهذان برهانان ،برهان رابع وبرهان خامس لما تقدم على وجود الله ووحدانيته ورحمته بخلقه .

جعل الله الناس يحتاج بعضهم لبعض، وفرق الأقوات والكنوز والمعادن في هذه الأرض، فلا يستغني بعض عن بعض، ولا يمكن أن تكتفي جهة بما عندها من الأرزاق والمعادن والبضائع، فلابد بالسير في الأرض، ولابد بالأسفار في مناكبها، ولابد بقطع براريها وبحارها، فاحتاج الناس في هذه الأسفار إلى من يهديهم حتى لا يتيهوا في الصحاري وبين الجبال، وفي لجج البحار، فجعل لهم أعلاما يهتدون بها في ظلمات البر والبحر ، جعل الله لنا في السماء نجوماً مختلفة الإشراق، نعرفها ونعرف أسماءها وجهاتها، ومشارقها ومغاربها نهتدي بها في الظلمات حيثما سلكنا براً وبحراً وجعل الله في الأرض الجبال والأنهار والأودية نهتدي بها ليلاً ونهاراً، ثم ألهم الله الناس وعلمهم أن يصنعوا هذه «البوصلة» وهي اختراع لبعض أسرار الله في مخلوقاته من المغناطيس والمعادن، فهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، والبحر بحران، بحر من الماء تسير فيه السفن المواخر، وبحر من الهواء تسير فيه السفن الطوائر، ولولا أن الله هدانا بهذه الأشياء ما كنا لنهتدي في ظلمات الليالي والغيوم، والسحب المتراكمة ، والأمواج المتلاطمة وفي هذه الهداية تذكير لنا بهداية الله عباده الصراط المستقيم،

فالذي هدانا في الدنيا إلى البلاد التي نقصدها يهدينا إلى طريقه المستقيم الذي نسعد به في الآخرة، فما علينا إلا أن نتبع هداه ونسلك صراطه المستقيم .

ثم يذكرنا بالبرهان الخامس، وهو إرسال الرياح النشر في جو الأرض والسماء، بين يدي رحمة الله التي هي الغيث، فهي مبشرات لنا بين يدي نزول المطر، وهي اللواقح التي يسوق الله به السحب الثقال، فتتلاقح فينزل منها الماء الذي يحيي به الله الأرض بعد موتها، ينبت الله به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات رزقا للعباد ،وفي التأمل في الرياح ومسارها، والسحب وأمطارها، ما يهدي العاقل إلى معرفة الخالق وتوحيده وعبادته والعجب كل العجب ممن يغفل عن هذه الآيات الكونية التي تملأ الدنيا ولا يبصر الحق، ويعبد من دون الله ما لا يملك ضراً ولا نفعاً :

﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

ما أنسب هذا التعقيب في مثل هذا المقام، وما أبلغ وقعه في النفوس ! تعالى ربنا وتقدس وتنزه عما يصفه به المشركون، وتعظم ربنا وتنزه عما يعدلونه به من الشركاء، وهم عن دعائهم غافلون، وسيكفرون بشركهم يوم القيامة ، ومن الذي يستطيع منهم أن يثير ريحاً أو يسكنها أو يفتح رحمة أو يمسكها أو يهدي نفسها أو يرشدها ؟ لا إله إلا الله سبحان الله وتعالى عما يصفون .

ثم يرشدنا الله تبارك وتعالى بهذا الأسلوب الإستفهامي البديع إلى برهان آخر لا يقل عن البراهين المتقدمة، فيقول :

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الآية : ٦٤] .

يلفتنا الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة إلى البرهان السادس والبرهان السابع

على وجوده وكمال قدرته ورحمته بمخلوقاتها ثم يعقبها بتوبيخ أهل الشرك والضلال الذي يجعلون مع الله إلهاً آخر وهم ظالمون .

يقول تعالى : أم من غير الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، بل هو الذي يبدئ ويعيد ، هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما ثم يفنيهما ثم يعيدهما ، وهو الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويحي الأرض بعد موتها وكذلك الخروج . وخلايا أجسامنا كل يوم تموت وتحيا وتخرج خلايا جديدة وهذه البذور من النبات في كل فصل تعود من جديد وتخرج منها الحياة ، وتتكرر آيات الخلق والإعادة في مواضع كثيرة من القرآن ، ويضرب الله بها الأمثال للبعث والخروج يوم القيامة ﴿ وَاللَّهُ الذى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذلك النُّشُورُ ﴾[فاطر :٩] ، هذا في سورة فاطر ، وفي سورة «ق» يقول تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا من السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخُرُوجُ ﴾[ق :٩-١١] ، وبما أن برهان الإحياء والإماتة ، وبدء الخلق وإعادته يظهر جلياً في النبات كان مناسب لذلك أن يذكرنا ربنا بعده بنعمة رزق الله ، الذي يرزقنا من السماء بإنزال الماء ، ومن الأرض بإنبات النبات . ومن غير الله يفعل هذا ، وهل يستطيع أحد من هؤلاء المشركين أن ينكر هذا أو يدعي أن أحداً من معبوداته يقدر على إنزال قطرة من السماء ، أو فلق حبة من الأرض وإنباتها ، أو إخراج حي من ميت أو ميت من حي ، ما أعجزهم عن ذلك ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ والْمَطْلُوبُ ﴾[الحج :٧٣] ، فما لهم أنى يؤفكون ! . أنى يصرفون ، ما لهم عن التذكرة معرضين ! ، يقول الله معقباً لهذه الإستفهامات .

﴿أَ.لَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

الإستفهام للإنكار والتوبيخ أإله مع الله ! ما لكم كيف تحكمون، أتعبدون غيره وأنتم غارقون في نعمه، قل هاتوا برهانكم على صحة ما تميلون إليه من الشرك، هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين في دعواكم أن مع الله إلها آخر، تعالى الله عما تشركون. وفي الطلب تحد وتعجيز وتوبيخ، وفيه وعيد وتهديد بالعقوبة لهم على إصرارهم وعتوهم، وتمردهم على الله، وهم يعتقدون في معبوداتهم أنها تعلم الغيب، وتتصرف في هذا الكون، وترد المحذور وتأتي بالمطلوب، فهم يرجونها ويخافونها، فرد الله عليهم بالآية التالية وأمر نبيه أن يخاطبهم بها :

﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُون﴾ [الآية:٦٥].

قل يا محمد إنه لا يعلم أهل السموات ولا أهل الأرض الغيب، ليس فيهم من يعلم شيئاً من الغيب إلا الله إلا إذا أراد الله أن يطلع من يشاء من رسله أو ملائكته شيئا قليلا من غيبه فإنه يفعل ما يريد، أما ما تزعمون في شركائكم من علم الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله :

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُون﴾ .

وما يشعرون نفي عن جميع أهل السموات وأهل الأرض وعما عبد من دون الله نفى عنه العلم بأجل يوم البعث، ذلك لأن الكفار يستعجلون به أنبياءهم ﴿ويقُولُون متى هذا الوعْدُ إن كُنتُم صَادقينَ﴾[وردت ٦ مرات في القرآن]، فرد عليهم الله بهذه الآية ونفى عن كل أحد الشعور بموعد هذا اليوم الهائل فقال :

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

حتى رسل الله لا يعلمون متى الساعة ولا ملائكة الله يعلمون بل علم ذلك عند الله وحده وإنما رسل الله مهمتهم الإنذار بالساعة، والبعث والحساب، وتحذير الناس من الغفلة، وأمرهم بالاستعداد لذلك اليوم العظيم :﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُم صَادِقِينَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[النمل: ٧١ - ٧٤]، قال تعالى :

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[الآية: ٦٦].

قال المفسرون : إن « بل » هذه تحمل معنى الاستفهام، أي هل إدراك هل تلاحق علمهم في الآخرة، أي وما علم أوائلهم وأواخرهم في الآخرة ؟ إنه لا علم لهم في شئ من أمور الآخرة، إنهم لا يؤمنون بها ولا بمجيئها، وهم حين يستعجلون بها إنما يتحدّون أنبياءهم بذلك تمرداً على الله وكفراً ، قال الله :

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ .

بل هم من أمر الآخرة في شك مريب ثم قال :

﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ .

بل هم منها في ضلال وعمى ، لا تعي قلوبهم منها شيئاً، أغشت ذنوبهم أعينهم فهم لا يبصرون، وكذلك شأن المجرمين لا يفقهون من أمر البعث والحساب شيئاً ولا يؤمنون بالجزاء العادل الذي ينتظرهم، ويقولون لئن رُّجعنا إلى ربنا إن لنا عنده للحسنى ! تلك أمانيهم، غرهم بها الشيطان الغرور .

وإذا كان ذكر الآخرة لا ينفع رادعا للنفس عن الهوى، ورجوعها عن غيها فهو تصور خاطئ لا طائل تحته، فهو كعدمه سواء، ثم قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٤ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾.

بعد إلقاء البراهين السبعة المتقدمة في قوالب استفهامات أريد بها التقرير، بعدها استفهامات أريد بها الإنكار في تناسق قرآني بديع، يتعرض الله تعالى في هذه الآيات إلى تساؤلات الكفار بالبعث، وقد حملهم الشك في أمر البعث والاستبطاء لموعده على هذه التساؤلات السخيفة، التي صدرت من قلوب عليها أكنة من عصيانها وفجورها،

فلجت في إنكار ما جاءت به رسل الله من الحق الذي لا مرية فيه :

﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَءَابَاؤُنَا أَينَّا لُمخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الآية: ٦٧-٦٨].

وقال الذين كفروا بالله وباليوم الآخر إذا بليت أجسادنا، واختلطت بالتراب، وضلت في الأرض، إنا لمخرجون ومبعوثون خلقاً جديداً ،استبعدوا حياتهم بعد الموت، وأنكروا أن تبعث أجسادهم ليوم الحساب بعد فنائها في الأرض، وقالوا لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا الأولون من قبل، ذلك لأن أنبياء الله ورسله كلها تنذر أقوامها بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء منذ أقدم العصور، فاستبطئوا هذا الموعود به ، وطال عليهم الأمد، وشكوا في رجوع أجسادهم البالية بعد أن رمت عظامها، وصارت ترابا وضلت في الأرض، ونسوا الخلق الأول، وما علموا أن الذي قدر على إنشائهم بعد العدم قادر على إعادتهم، وهو المبدئ المعيد ، فما أجرأهم على ربهم حين وصفوا كلامه الحق بالكذب وقالوا:

﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ .

تعالى الله عما يصفون، ويوم يرون ما يوعدون يعلمون علم اليقين أن قول الله حق، وأن رسل الله كانوا صادقين، ويومئذ يؤمنون ولا ينفعهم إيمانهم، ولات حين مناص، قال الله تعالى :

﴿قُلْ سِيرُواْ في الأَرْضِ فَانُظرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمجْرِمِينَ﴾ [الآية: ٦٩].

أمر الله نبيه -ﷺ- أن يدعوهم إلى السير في الأرض للنظر والاعتبار، وفي القرآن كثير من الآيات تحرض على السير في الأرض والنظر في آثار الهالكين الذين كانوا أشد

منا قوة وآثاراً في الأرض، وكانوا أطول أعماراً وأقوى أجساماً، وعمروها أكثر مما عمرناها، وهذه آثارهم وأبنيتهم الضخمة التي ملأت مشارق الأرض ومغاربها شاهدة على ما وصلوا إليه من حضارات، بقيت بعدهم بيوتهم خاوية بما ظلموا لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وتلك عاقبة المجرمين، وذلك مصير الظالمين، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

والناس اليوم مولوعون بالأسفار والنظر في الآثار، ولكن قل منهم من ينظر نظر الاستبصار والاعتبار، ولو اعتبروا لكان خيراً لهم وأقوم وأهدى .

ثم إن الله تبارك وتعالى يسلي قلب نبيه ومن معه من المؤمنين، وينهاه عن الحزن عليهم، والتضايق من مكرهم، إن عليه إلا البلاغ، والله عليم بما يعمل الظالمون، وسوف يجازيهم على أعمالهم ، يقول الله تعالى :

﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [الآية : ٧٠] .

إن تكذيبهم لكلام الله أمر عظيم، يغيظ القلوب ويحزنها، وإن مكرهم لتضيق منه النفوس، ولكن الله تبارك وتعالى يسلي قلب نبيه والمؤمنين معه، ويقول ولا تحزن عليهم، لا تهلك نفسك أسى على كفرهم وعنادهم، ولا تضق ذرعا بمكرهم ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾[الأحزاب :٤٨] ، ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُون وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[المزمل : ١٠] ، تلك وصايا الله لنبيه في مقابلة كيد الكافرين بالصبر والحلم، والهجر الجميل ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾[الشعراء :٣] ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعا ، ولكن ليبلو بعض عباده ببعض، ليهلك منهم من هلك عن بينة ،ويحيا من حيي عن بينة ، وما هي إلا فتنة الله يضل بها من يشاء، ويهدى من يشاء وأن من ورائهم يوما ثقيلاً ينتقم فيه من الظالمين،

ويجازي المحسنين، ويوفي الصابرين أجرهم بغير حساب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الآية: ٧١-٧٢].

يقول الذين كفروا استبطاء لوعد الله رسله بالنصر، ويقولون تكذيبا بمجيئه وسخرية واستهزاء بكلام ربهم، يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين أيها الرسل في دعواكم، فأين نصر الله لكم وأين عقابه لنا ؟ وقد يبلغ بهم العتو في بعض الأحيان أن يستفتحوا على أنفسهم ﴿ وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[إبراهيم: ١٥]، ومن هذا النمط ﴿ وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الانفال: ٣٢]، وليتهم قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه . ولكنه الغلو في العناد واللجاج في العتو والنفور ، قال الله ردعا لهم ورداً على استبطائهم وتكذيبهم .

﴿ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

قل لهم جوابا على كلامهم عسى أن يكون وعد الله قريباً، عسى أن يكون هذا الوعد الذي تستعجلونه وراءكم لاحقاً بكم كالرديف وراء الراكب، والتعبير بردف فيه تصوير لقربه الشديد، وعسى من الله تحقيق لقرب وقوع الشئ وقد وقع فعلاً في وقت قريب، وانتصر الله لنبيه والمؤمنين معه من صناديد قريش وكبرائهم في بدر، ومن المستهزئين قبل ذلك، فكفاه الله شرهم، وعجل بهم إلى النار وبئس المصير، ونعوذ بالله من مصير الظالمين ، ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية:٧٣-٧٥].

كثيراً ما ننسى فضائل الله علينا وإنعامه، وكثيراً ما يظن أهل المعصية المتمادون في عصيانهم أن الله راض عن أعمالهم، ولذا لم يأخذهم بها فهم في لهوهم سادرون وفي سرورهم مغررورون غافلون، ولذا يخبرنا ربنا ويؤكد الخبر على هذه الحقيقة ويوجه الخطاب لنبيه أولا ثم لكل من يتلو القرآن من المؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾.

إن ربك ورب العالمين لذو فضل عظيم، وأن فضله على الناس لشامل مؤمنهم وكافرهم، ومطيعهم وعاصيهم، فهم يكفرون أو يعصون ربهم وهو يمهلهم ويمد لهم في العمر والصحة والعافية، ويغدق عليهم، ويؤخرهم لعلهم يتوبون أو يذكرون، أو يخرج من أصلابهم من يعبد الله ربهم الذي خلقهم ،يتودد إليهم بالنعم مع استغنائه عنهم، وهم عبيده يتبغضون إليه ويتجرءون عليه بالمعاصي مع افتقارهم إليه، وهم لو اجتمعوا كلهم على معصيته ما نقصت معصيته من ملكه شيئاً، ولو اجتمعوا كلهم على طاعته ما زادت طاعتهم، في ملك الله شيئاً ، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم ، إنهم من الضعف كما قال : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضرون » .

ولكن الله يأمرنا بالشكر ويرضاه لنا ، لأن فيه سعادتنا وخيرنا، وليتنا أطعنا أمر الله وشكرنا له وإذن لفزنا بثواب الشاكرين وصلح أمر دنيانا وآخرتنا .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى ولكن أكثر الناس لا يشكرون، فضل الله عليهم، يتمتعون بنعم الله ولا يشكرونها بل يستظهرون بها على معصية المنعم وهم غافلون لا هون، ولو يؤاخذهم ربهم على كفرهم لعجل لهم، ولكن ربنا حليم وهو في حلمه عليم بأفعالهم لا تخفى عنه خافية :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

يخاطب الله نبيه بهذه الحقيقة، وفي هذا الخطاب تسلية لقلبه وقلوب المؤمنين وتطمين لنفوسهم، وفيه تخويف وتهديد للكافرين والظالمين، وأن الله ليس بغافل عما يعلمون، وأن لهم أجلاً إذا انتهوا إليه لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

يقول الله تعالى : وإن ربك ليعلم ما تخفي صدورهم من النوايا والأخلاق والعقائد، ويعلم ما يبدون ويعلنون من الأفعال والأقوال ،لا يخفى عليه من أمرهم شئ، وسيجزيهم على كل ذلك الجزاء الأوفى، فلا تضق نفوسهم بإمهال الله إياهم، وإنعامه عليهم، فإنهم يوم يأخذهم لن يفلتوا عليه، ويوم يأتيهم ما يوعدون كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، ويومئذ لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولا ينفع الكافرين إيمانهم ولا تقبل أعذارهم، ولا تقال عثراتهم، وبئس مثوى الظالمين، وبئس مثوى المتكبرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول الله تعالى وما من مثقال ذرة من الغيب في السماء والأرض إلا وهي في علم الله في كتاب مبين، لا لبس فيه ولا إبهام وذلك هو اللوح المحفوظ وهي في علم الله قبل

أن تُكتب في اللوح وما كتبها القلم هناك إلا بإذنه وعلمه وأمره ولا يعلم أحد من الناس حقيقة ذلك الكتاب وعظمته، فلنكل علم ذلك إلى الله ، وإنما علينا أن نؤمن ونعلم أن جميع ما كان وما يكون وما هو كائن فهو في قدر الله وقضائه ولا يكون إلا وفق ما قضاه الله وقدره بعلمه وقدرته، ونقول كما علمنا رسول الله -ﷺ- أن نقول : «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، نعلم أن الله على كل شئ قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً» لا يعزب عن علم الله مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

يختم الله سياق ما تقدم بهذه الآية العظيمة التي تدل على إحاطة علم ربنا تعالى بملكوت السموات والأرض، وأن إمهاله للكفرة الفجرة لا لخفاء كفرهم ومكرهم عنه تعالى، الله لا تخفى عنه خافية، بل هو يعلم سرهم ونجواهم يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ومثل هذا المعنى نجده في غير موضع من القرآن الكريم، من ذلك ما ذكر الله تعالى في خواتم سورة إبراهيم حيث يقول : ﴿ولاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣] ومن ذلك قوله تعالى لنبيه في خواتم سورة النحل ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٧-١٢٨]، ثم يتحول الكلام إلى أخبار بني إسرائيل، وفي الحديث عنهم ضرب للمثل على إحاطة علم الله بما كان وما يكون، وفي الإخبار عنهم موعظة وتحذير لنا أن نقع في مثل ما وقعوا فيه من الخلاف الذي فرقهم وكانوا شيعاً، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾
وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم
بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى
ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ
إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ
إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ
ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ
ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ .

القرآن كلام الله والله علام الغيوب، أحاط علمه بما في السموات والأرض، ففي القرآن الشيء الكثير من أخبار الغيب مما يدل دلالة بينة على أنه من عند الله لا من كلام محمد الأمي -ﷺ- وعلمُ محمد بأخبار بني إسرائيل واختلافاتهم إنما هو وحي الله أنزله بعلمه وما محمد إلا رسول مبلغ ما أنزل إليه من وحي ربه، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾[الآية : ٧٦-٧٨] .

يقول الله تعالى وقوله الحق : إن هذا القرآن الذي أنزله الله عليك يقص على بني

إسرائيل أنباء أكثر الذي هم فيه يختلفون، وهم قوم قد اختلفوا وافترقوا إلى فرق كثيرة، إختلفوا على أنبيائهم، واختلفوا في أنبيائهم ، واختلفوا بعد أنبيائهم، اختلفوا قبل نبوة المسيح عليه السلام إلى طوائف، وكانوا لفرط اختلافهم يقتلون الأنبياء بغير حق، واختلفوا في المسيح ومريم، فكان منهم اليهود الذين اتهموا مريم وحاولوا قتل المسيح، وكان منهم النصارى الذين اتهموا المسيح، وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة فكفروا بذلك، ثم اختلفوا بعد المسيح إلى طوائف كثيرة واختلفوا في الانجيل وكان هؤلاء وهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، فأنزل الله هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي يختلفون فيه، ويبيّن لهم وجه الحق واضحا في كل مسألة اختلفوا فيها، وفي القرآن نداءات كثيرة إلى بني إسرائيل للرجوع إلى ما هو الحق، قد يوجه إليهم النداء باسم بني إسرائيل وقد يوجه باسم أهل الكتاب. ولو استمعوا إلى نداءات القرآن لاهتدوا، ولكن أكثرهم لا يسمعون ولا يهتدون، وقد علموا أنه كلام الله، وأن الذي يبلغه إليهم رسول الله .

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

إنه لهدى لجميع الناس، ولكن الكافرين يعرضون عنه فلا يهتدون، والمؤمنون يقبلونه فيهتدون به فيرحمون فهو هدي ورحمة لهم، كلما تليت عليهم آيات ربهم زادتهم إيمانا فغشيتهم رحمة الله، فهم ناجون وهم به يستبشرون ، ثم إن الله يخبر نبيه ويؤكد الخبر فيقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ .

يقول تعالى : إن ربك يا محمد يقضي بينهم فيما فيه يختلفون بحكمه العادل، وسوف يفصل بينهم يوم القيامة بحكمه الحق، وقضائه المبرم فيما كانوا فيه يختلفون

وهو العزيز الذي لا يمانع الغالب الذي لا يقهر ولا يرد أمره العليم الذي أحاط بكل شيء علماً، لا تخفى عنه من أفعال عباده ونواياهم خافية ، فهو يقضي بينهم بعدله وعلمه، وقضاؤه الحق، وحكمه العدل.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الآية: ٧٩-٨١].

ما أعظمها كلمات يوجه الله بها نبيه ،ويسليه ويوصيه بما هو الحق وهو أن يتوكل على الله ويفوض أمره إليه كما فوض الأنبياء من قبله، وتوكلوا على ربهم، وصبروا على أذى أقوامهم، فكانت عاقبتهم الحسنى وإن للفاء الرابطة لفعل الأمر هنا لوقعاً في النفس بعد ما سبقها من الكلام في وصف الله تعالى وكتابه بما هو أهله، لاسيما التذييل بالوصفين «العزيز العليم» فما أحرى أن يكون توكلنا واعتمادنا على العزيز العليم الحي الذي لا يموت، ومن يتوكل عليه فهو حسبه فهو نعم المولى ونعم الوكيل ،ولكي ينزع من نفسه القلق والهواجس يقول له :

﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ .

يثبته أولاً بأنه على الحق المبين الواضح، فلا يشك في ذلك فليس كُفْرُ من كَفرَ من قومه لضعف حجته، أو لخفاء الحق عنهم، أو حتى ولا لتقصيره في التبليغ، بل موت قلوبهم بكبائر الذنوب، وتغلغل الشرك فيها، فآذانهم صم لا يسمعون بها الحق وأعينهم عمي لا يبصرون بها نور الهدى، كلما سمعوا صيحة الحق ولوا مدبرين، كأنهم

حمر مستنفرة فرت من قسورة، بل هم أضل سبيلاً لأن الحمر تفر ممن يضرها وهم يفرون من رحمة الله ، وفي وصف القوم بالموتى غاية الدقة في تصوير حالتهم، وقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وفي وصفهم بالصم والإدبار غاية الدقة في تصوير حالة إعراضهم عن دعوة الحق، لأن الأصم إذا كان مقبلا ربما يدرك دعوة الداعي بعينه، لكن ما حيلتك معه إذا ولى مدبرا فلا رؤية ولا سماع، فلله ما أبلغ تعبير القرآن !، ولبعد احتمال هداية مثل هؤلاء إختار التعبير بالجملة الاسمية المؤكدة النفي فقال :

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ ﴾ .

إن هؤلاء الذين تدعوهم عمي البصائر لا يبصرون النور، فما أنت بهاديهم عن ضلالتهم، والأعمى لا يهديه النور مهما كان قوياً، فالتعبير عنهم بالعمي هو الذي صور إمعانهم في الضلال البعيد حسن تصوير فكان اهتداؤهم ميئوسا منه ثم قال تعالى :

﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُومِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

إنك لا تسمع إلا المؤمنين الذين أنار الله بصائرهم بالإيمان، فهم يؤمنون بآيات الله البينات المجلوة في الأكوان، فهم يتأملونها، ويؤمنون بآيات الله المتلوة في القرآن فهم يتلونها ويتدبرونها ويزدادون بها إيمانا فهم مسلمون قد أسلموا نفوسهم لله رب العالمين، وقالوا سمعنا وأطعنا فهم مهتدون، وهم الذين يستمعون ويجيبون داعي الله ويزدادون هدى.

قال الله تعالى في حقهم : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، وقال : ﴿ وَالذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[محمد: ١٧]، وكما سبق أن قال في سياق هذه الآيات في وصف كتابه العزيز : ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ ﴾

[النمل:٧٧]، والله أعلم بالمهتدين من خلقه وبالذين لا يهتدون، وما الرسل والدعاة من بعدهم إلا مبلغون ، إنهم يقيمون بتبليغهم الحجة على الناس ويقولون : ﴿ مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُم يَتَّقُونَ ﴾[الأعراف: ١٢٠] ، ثم إن الله يأجرهم على تبليغهم وصبرهم على أذى أقوامهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[التوبة : ١٢٠].

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [الآية:٨٢].

يحكم الله بحكمه الحق على هذا الصنف من الناس الذين لا تنفعهم الذكرى، ولا يستمعون إلى الدعاة، ولا يبصرون نور الله، بل إذا سمعوا النداء ولوا مدبرون، وهذا الصنف الخاسر سيظل موجودا حتى تقوم الساعة، وحينئذ فقط يؤمنون ولا ينفعهم إيمانهم، وقد فات الأوان، يحكم الله عليهم بحكمه الحق، إنهم سيظلون كذلك معرضين حتى يأتي وعد الله والله لا يخلف الميعاد ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ .

وإذا وقع القول أي جاء وعد الله وحل قضاؤه المحتوم، ولذلك علامات كبرى إذا ظهرت فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن - آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً إذا وقع القول أخرج الله دابة من الأرض تخرج منها كما خرجت ناقة صالح، فتُكلم الناسَ بكلام فصيح يفهمونه، ولم يصف الله هذه الدابة كيف هيئتها وطولها وعرضها، ولا من أين تخرج، ولا قص علينا ماذا تقول، ولو تعلق الغرض بذلك لذكره، وإنما العبرة في خروجها وهي تكلم الناس، وهم يعلمون أنها معجزة وفي الأخبار الإسرائيلية أوصاف

مختلفة في حجم هذه الدابة وهيئتها ونوع كلامها ولا نستطيع أن نجزم بشئ من ذلك ما دام لم يرد إلينا من طريق صحيح وإنما نجزم بالإيمان بها بخروجها وكلامها ودلالتها على قرب الساعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ .

إن إيمان الناس المؤمنين قل أن يصل درجة اليقين، والله الذي وصفهم بهذا الوصف أعلم بحقيقة إيمان المؤمنين منهم والموقنين ودرجات إيمانهم ويقينهم، ويوم تأتي آيات الله يؤمن الكافر ويوقن المؤمن، وهي مناسبة ذكر التعقيب بهذا الحكم ، مناسبة خروج الدابة وهي من أشراط الساعة الكبرى ومن آيات الله التي تبلغ بالإيمان درجة اليقين، والناس مولعون بخوارق العادات، يتأثرون بها وما لهم لا يتفكرن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ومطالع الشمس والقمر، ومواقع النجوم، ومهاب الرياح، ومسارات السحب، ونزول الأمطار، وغير ذلك من آيات الله في الكون وفي أنفس المخلوقات إن ذلك كله يهدي إلى الإيمان بالخالق ، وصدق الله العظيم :

﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ .

تلك طبيعة الناس منذ كانوا حتى تقوم الساعة وفي الحديث الشريف عن النبي -ﷺ- قال : « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » ومن أراد الله به خيرا ألهمه رشده ورزقه اليقين قبل فوات الأوان نسأل الله أن يقوي يقيننا ويثبت إيماننا آمين والحمد لله رب العالمين : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو

قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ .

مشهد رائع من مشاهد المكذبين يوم القيامة يقصه الله تبارك وتعالى في هذه الآية أو الآيات بعد ذكر الدابة التي هي من أشراط الساعة، وكثيراً ما يذكر الله تعالى أمورا تقع يوم البعث والنشور ويقرنها بقيام الساعة، لأن القرآن كتاب ذكر ووعظ، وليس هو كتاب قصص وتاريخ، وكلام الله بدع من الكلام في أسلوبه ومواعظه وأحكامه وحكمه، هو كلام معجز في إيجازه وإطنابه وتقديمه وتأخيره، قال الله تعالى :

﴿ويَوْمَ نَحْشُرُ من كُلِّ أمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[الآية :٨٣].

يخبرنا ربنا بنون العظمة عن يوم عظيم يحشر فيه من كل أمة فوجا، أي جماعة ممن يكذب بآيات الله ،والتكذيب على نوعين : تكذيب بالإعتقاد والأقوال، وتكذيب بالأفعال، كتكذيب أهل النفاق الذين تخالف أفعالهم أقوالهم، ويكذبون إذا حدثوا، ويخلفون إذا وعدوا، ويفجرون إذا خاصموا، ويغدرون إذا عاهدوا، ويرتكبون الفواحش وكبائر الإثم ويصرون عليها، فأولئك منافقوا خيانة وكفار نعمة مكذبون بأفعالهم، يقول الله تعالى أذكروا ذلك اليوم، يوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا ، يقول أهل التفسير إن «من الأولى للتبعيض و «من» الثانية للبيان أي يحشر الله من كل أمة فوجا، بعض الأمة لا كلها، ممن يكذب بآياتنا، أي المحشورون الموزعون هم المكذبون بآيات الله، والآية تفيد أن المكذبين موجودون في كل أمة وكذلك يختلف الناس وصدق

الله العظيم : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾[الليل : ٤] ، وقال أيضاً : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود : ١١٨-١١٩]، وقوله تعالى :

﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾.

أي يدفعون ويُحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ليسئلوا ويجزوا بما عملوا، وياله من يوم عسير على المكذبين ومشهد فظيع في عرضه موعظة وذكرى لقوم يؤمنون، ثم قال تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الآية : ٨٤].

حتى إذا جاءوا وأحضروا ولم يتخلف منهم أحد خاطبهم ربهم خطاب التوبيخ والتبكيت فقال : أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما، يؤنبهم ربهم على المسارعة إلى التكذيب بآيات الله قبل أن ينظروا فيها ويحيطوا علما بما تدعو وترشد إليه، منعهم من ذلك كبر نفوسهم وصدتهم أهواؤهم وشهواتهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كذبوا بكلام الله عنادا وإصرارا ولم يلقوا إليه السمع، وصدوا عنه الناس لأنهم يعلمون أن حلاوة كلام الله تداخل القلوب وتمتلكها، فأصموا آذانهم وغلقوا قلوبهم، وسارعوا بالتكذيب قبل أن يحيطوا علما بما تتضمنه آيات الله من الهدى والحكمة فتوبيخ الله لهم اليوم على ما فرطوا في حق آيات الله، ثم على التكذيب، وياليتهم سارعوا إلى التصديق والإيمان بها قبل أن يحيطوا بها علماً، وإذن لفتح الله عليهم أبواب العلم والفهم، أما المبادرة إلى التكذيب قبل البحث والنظر فذلك يدل على مدى تغلغل الكفر في نفوسهم، وانطماس نور الفطرة فيها، ومن يضلل الله فلا هادي له، ونعوذ بالله من

كل أنواع الضلال ، ثم أردف الله عليهم بنوع آخر من التوبيخ فقال
﴿ أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

كلمة يقولها الناس عند العتاب والتوبيخ، أفعلت كذا ومالك لم تفعل كذا وكذا أم ماذا كنت تعمل وليس هناك عمل مقابل يعذرون بالقيام به بل هذا الاستفهام زيادة في التوبيخ والتقريع، أم ماذا كنتم تعلمون ؟ أي عمل هذا يشغلكم عن النظر في آيات الله وتدبر معانيها، والإحاطة بما فيها من علم قبل التكذيب، وما خلق الناس إلا لعبادة ربهم، وكل عمل ليس من العبادة فهو باطل، ولذلك حين يخاطبون بهذا الخطاب يجمون فلا ينطقون، ولو كان لهم عذر لاعتذروا به ، قال الله تعالى :

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [الآية: ٨٥].

ووقع القول عليهم، قامت عليهم الحجة وانقطع عذرهم، وحق عليهم العذاب بما ظلموا، أي بظلمهم فهم واجمون لا ينطقون ولا يعتذرون ،وقد علموا أن حجتهم داحضة عند ربهم وأن العذاب واقع عليهم ، وأنهم مواقعوه وتلك عاقبة المستكبرين، ونعوذ بالله من مصير الظالمين ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
جَعَلْنَا اَلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً اِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي اِلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَن فِي اِلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اَللَّهُ وَكُلٌّ اَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧
وَتَرَى اَلْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ اَلسَّحَابِ

صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾
مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

في خلال الآيات التي تعرض مشاهد يوم القيامة، يلفتنا الله تبارك وتعالى إلى بعض آياته الكبرى في الكون وفي أنفسنا لنتدبرها، ونستدل بها على البعث بعد الموت، فيؤمن كافرنا ويزداد مؤمننا إيمانا بيوم البعث والنشور، والقرآن كتاب دعوة وموعظة وذكرى، وفيه للناس هدى ونور بما يقيم عليهم من حجج وبراهين على صحة ما يدعو إليه من الإيمان بالله وباليوم الآخر .قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يرَوا أنَّا جعَلْنَا الَّيْلَ لِيسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾ [الآية: ٨٦].

أعمي هؤلاء المكذبون بالبعث عن آيات الله في الكون وفي أنفسهم ،أعموا فلم يروا أنا جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه، والنهار مشرقا مضيئا لينتشروا فيه في طلب معايشهم، إن في جعل الليل كذلك، وفي خلق الظلمة والنور، وفي نومهم بالليل وصحوهم بالنهار وفي جعل النهار مشرقا مضيئاً لآيات تهديهم إلى الإيمان فيؤمنون لو كانوا يعقلون، إن في نومهم كل يوم وصحوهم بعد النوم لآية للبعث والنشور بعد الموت، وفي تعاقب الليل والنهار لآية على تجدد الأحوال في هذا الكون، وفي تعاقب الليل والنهار في سعي حثيث لآية ودليلا على اقتراب البعيد ودنوا اليوم الموعود، فما

لهم يرتابون ويستبطئون ويستعجلون، أفلا يتفكرون في نومهم ويقظتهم بعد النوم، فيعتبرون بذلك لحياتهم بعد الموت، أليس الذي يرد إليهم حياتهم بعد النوم قادر أن يرد إليهم أرواحهم بعد الموت ليوم النشور، إنه على كل شيء قدير .

ومن النكت البلاغية في هذه الآية البديعة طريقة الاحتباك وهو الاكتفاء بذكر أحد الضدين لدلالة الآخر عليه، فقوله تعالى : جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً فيه دلالة على إظلام الليل بوصف النهار بالإبصار، وفيه دلالة على انتشار الناس بالنهار بوصفهم بالسكون في الليل، وهي طريقة يدرك روعتها البلغاء الذين يعرفون الأساليب البليغة في الكلام العربي، والقرآن مليء بأمثال هذه الروائع، ومواطن الإعجاز في أساليب نظمه، وفي معانيه وحِكَمه وأحكامه، وقصصه وأمثاله وتشريعه، وأدنى ما فيه من الإعجاز يعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وقد تحداهم غير مرة فلم يقدروا أن يأتوا بسورة من مثله، وقد حاول بعض فصحائهم فلم يفلح وبان عجزه وقصوره، فأين الثريا وأين الثرى، وبعد هذه التذكرة في هذه النظرة في الكون وفي أنفسنا، يرجع الوصف بنا إلى بعض مشاهد قيام الساعة ويوم القيامة فيقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ ءَاتُوهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الآية:٨٧-٨٨].

يذكرنا ربنا تبارك وتعالى بيوم النفخ في الصور نفخة الفزع، وهو حال من أحوال الساعة، أو من أحوال يوم القيامة من أشدها هولا يقول تعالى : واذكروا يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين، أي

أذلاء صاغرين، ولم يذكر النافخ لأن العبرة تتعلق بالنفخ والفزع لا بالنافخ وقد صحت الأخبار أن النافخ إسرافيل الملك عليه السلام، وصحت الأخبار أنه قد التقم الصور فهو ينتظر متى يأمره الله فيمتثل وهذا إشارة إلى أمر القيامة قد اقترب موعده، والصور قرن ينفح فيه الملك، ولا نعلم مادته ولا طوله ولا عرضه، ولم يأتنا في ذلك خبر صحيح، ونكل علم ذلك إلى الله نؤمن به وبقرب وقوع ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال الله : ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، فهي نفخة الفزع إذن ،هل هي نفخة الصعق المذكورة في سورة الزمر أو هي نفخة ثالثة، وإذا كان نفخة أخرى ثالثة غير نفخة الصعق ونفخة القيام من القبور فهل قبلهما كما يعتقد بعض العلماء أو هي بعدهما كما يعتقد آخرون، قال بعض المفسرين إن نفخة الفزع قبل نفخة الصعق وهي نفخة يفزع بها أهل السموات والأرض، ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ومن هم هؤلاء المستثنون من الفزع؟ الله أعلم .

وقال الآخرون إنها نفخة تكون بعد نفخة البعث والنشور، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وكل اتوه داخرين ﴾، وهذا الإتيان يكون يوم الحساب ،وهذا الذي أرجحه وأذهب إليه، والذين استثناهم الله قد يكونون هم المؤمنين من الإنس والجن، ومن شاء الله من الملائكة وأهل الجنة المخلوقون فيها ، وقد قال تعالى في المؤمنين يوم القيامة ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ امِنُونَ ﴾[النمل:٨٩]، وقد تكون نفخة الفزع هي نفخة الصعق، يكون فزع فصعق والله أعلم ، ومهما يكن فالأمر هائل وعظيم والذين ءامنوا مشفقون من ذكر الساعة وأهوالها ، قال الله تعالى :

﴿ وَكُلٌّ ءاتُوهُ دَاخِرِينَ ﴾ .

أي وكل أولئك آتوا ربهم أذلة صاغرين معترفين، بعبوديتهم لربهم الأعلى قد

خضعت أعناقهم وعنت جباههم، وانقطعت بالجبارين منهم الأسباب، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[غافر:١٦]، ثم قال تعالى:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

وهذا مشهد آخر هائل من مشاهد قيام الساعة وما أروعها من مشاهد تفزع منها القلوب، الجبال التي هي أعظم شيء على هذه الأرض، ونحن نحسبها جامدة متماسكة شديدة الصلابة تمر عند قيام الساعة مرور السحاب، شبهها الله تعالى هنا بالسحاب اللطيف المار بين السماء والأرض، وقد شبهه في موضع آخر من القرآن بالكثيب المهيل، كما شبهه في موضع آخر بالعهن المنفوش، أي الصوف المندوف الذي يكون منحلاً متناثراً سريع التحول كذلك تكون الجبال عند قيام الساعة تنحل أجزاؤها فتسير في الهواء تمر مر السحاب:

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

كان ذلك صنع الله الذي أتقن خلقها أول يوم، وأرسى بها الأرض ثم أتقن فك أجزائها اليوم، وجعلها تمر مر السحاب، ومن يقدر على ذلك إلا الله الذي هو يبدئ ويعيد، وقد جاء الإتقان هنا متمكنا أيما تمكن حتى لا يظن ظان أن تفكك الجبال ومرورها نهاية تماسكها وقد بليت وتفتت، كلا بل ذلك بأمر الله القوي، وبصنعه الذي أتقن كل شيء، فليس خلقها صلبة متماسكة قوية أدل على قدرة الله وإتقان صنعه من فك أجزائها وجعلها كالعهن المنفوش تمر مر السحاب، إن أمر الخلق والإفناء والإعادة من آيات الله المبدئ، المعيد المحيي المميت، القوي المتين الواحد القهار لا إله إلا الله ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً

غَفُوراً ﴾[فاطر: ٤١] ، ثم بعد هذ العرض المؤثر الهائل يقول تعالى :

﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

تدييل رائع بليغ في مثل هذا المقام، أي إن الله خبير بأفعالكم، لا تخفى عنه خافية، فلا تظنوا أن شيئاً من أعمالكم يخفى عنه، وسيجازيكم عنها يوم القيامة فيضاعف حسناتكم، ولا يظلمكم بالسيئات، فلا تجزى نفس إلا بما اكتسبت، فمن كان منكم يؤمن بالله ويرجو لقاءه يوم الحساب فليعمل من الصالحات، وليجتنب السيئات، وليخلص عبادته لله المطلع الخبير بأفعال عباده ونواياهم. وليستعد للقائه ولا يشرك بعبادة ربه أحدا، وفيما تقدم كفاية لتخويف عباد الله ووعظ المؤمنين، وتذكير من يخاف وعيد الله، والذكرى تنفع المؤمنين ، ثم قال تعالى :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الآية: ٨٩-٩٠].

يبين في هذه الآية ميزان الحسنات والسيئات يوم الجزاء الذي لا ريب في إتيانه، وهو ميزان رب عادل بر رحيم يمن بمضاعفة الحسنات ولا يظلم بمضاعفة السيئات فلا يجزي السيئة إلا بمثلها، ولا يشقى بعد هذا إلا شقي وويل لمن غلبت آحاده عشراته .

إن الله يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين ضعفا إلى مائة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء، ومن جاء يوم القيامة بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، والتعبير بمن جاء يبشرنا أن من تاب من سيئاته في الدنيا كفرت عنه بعفو الله ومغفرته، فهو لا يجئ بها ولا يجزى بها وفي هذا ترغيب عظيم من الله أن نجتهد في اكتساب الحسنات وترك السيئات، والإسراع بالتوبة من الذنوب، وإتباعها بالصالحات

التي تمحو السيئات قبل مجئ اليوم المحتوم الذي لا يستأخر الناس فيه ساعة ولا يستقدمون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نسأل الله أن يجعلنا من الآمنين يوم الفزع الأكبر، الفائزين الناجين من مصير الذين، قال فيهم :

﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ .

والسيئة هنا المراد به جنس السيئة التي تكون سببا في شقاء صاحبها، وهي سيئة الشرك أو النفاق أو الإصرار على كبيرة من الكبائر قال :

﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ .

عبر بالماضي لتحقق الوقوع وقربه فكأنه قد وقع، والتعبير بكُبَّتْ، تعبير مؤثر للمشهد الفظيع وقد جاء مثل هذا التعبير في السورة السابقة ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[الشعراء: ٩٤-٩٥]، فهم لا ينزلون فيها نزولاً على أرجلهم بل يكبون على وجوههم، وهذا غاية الهوان والعذاب، نعوذ بالله من مصير هؤلاء الأشقياء، والكب على الوجه فظيع ولو على الأرض فكيف إذا كان في النار، والنار مستعرة لا تخبو ولا يخفف عنهم من عذابها .

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

قيل لهؤلاء الأشقياء المعذبين إنكم لا تجزون إلا ما كنتم عملتموه وقدمتموه لأنفسكم وما ظلمكم الله ولكن ظلمتم أنفسكم بكسبكم السيئات، وبتكذيبكم فذوقوا ما كنتم تكسبون، وهذا القول إعذار من الله وزيادة في تعذيب هؤلاء فلا مطمع في النجاة ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[فصلت: ٢٤]، وفي هذا ما يكفي لوعظ أولي الألباب الذين يخافون

الآخـــرة، ومن أراد اللــه به خيراً فليـرجع عن ضـلالـه ويـؤمن ويتـوب ، واللــه يهـدي من يشـاء إلى صــــراط مستقيم ، نســأل الله البـر الرحيم أن يجعلنـا من المحسنين الذين لهـم الحسنـى وزيــادة: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذه الآيات الكريمة فيـها خلاصة ما تـقدم من أول السورة، والسورة جاءت لـتثبت أن هذا القرآن من عند الله وأنه هدى للناس، وأن جـميع أنبياء الله ورسله مـبلغون رسالات الله، داعون أقـوامهم إلى عبـادة الله الواحـد القـهـار، ومـا هذا الرسول إلا من جـملـتهـم ،وهو خـاتمهـم لا نبي بعده ولا أمة بعـد أمتـه، وأن الهـدى هدى الله، فـمن اهتـدى فلنفسـه ومن ضل فإنما يضل عليها ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الذى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الآية: ٩١].

أمر الله نبيـه أن يخاطب قومه ومن بعدهم ،ويقـول : إنما أمر ت أي أمرني الله الذي خلقني وجعلني نـبياً ورسولاً ، أمرني أن أعبد رب هذه البلدة الذي حـرمها ، وهذا تذكـير لهم بنعمة الله على قريش وهو المدعوون الأوائل إلى الإسلام، ذكرهم الله بنعمته عليهم

أن جعلهم سدنة بيته المبارك وعمار حرمه الأمين ، فهم سكان مكة البلد الحرام الذي حرمه الله وأمن أهله ومن دخله من الناس كان آمنا ، والناس حول هذا الحرم في خوف فهم يقتلون ويخطفون وتنتهب أموالهم ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءامِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾[العنكبوت : ٦٧] ، وهم يعلمون هذا ويعلمون أن الذي مكن لهم هذا الأمن في هذا الحرم هو الله لا غيره ، فما لهم عن التذكرة معرضين فأحق الناس بعبادة الله هم أهل حرم الله وسدنة بيت الله الذي يعتزون به ويفتخرون وبه يتشرفون ويتطاولون على العرب والعجم فذكرهم النبي بما أمر به وهو عبادة رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء كل شيء ، له خلقاً وملكاً فليس هو رب هذه البلدة وحدها بل هو ربها ورب السماوات ورب الأرض ورب العالمين ، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، ذلك الذي أمرت أن أعبده وأخلص عبادتي له وحده ، ثم أمره ربه أن يقول :

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

إن لله أنبياء ورسلاً قبلي أسلموا لله هم ومن آمن بهم ،أمرت أن أكون منهم وأن أسلم نفسي لله رب العالمين ، إسلام إيمان وخضوع وسمع وطاعة ورضى ، وتفويض وتسليم وتوكل ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[لقمان : ٢٢] ، أمره الله بثلاثة أشياء هي قوام دينه ، أولها عبادة الله وحده مخلصا له الدين ، ثانيهما إسلام ظاهره وباطنه لله كما أسلم أنبياء الله ورسله وأولياؤه من قبله ، ثالثها تلاوة القرآن على الناس ودعوتهم بدعايته .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ ﴾ .

أي وأمرت أن أتلوا القرآن عليكم وعلى الناس كافة .

﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[الآية:٩٢].

الجملة مربوطة بالفاء وهذه الفاء متمكنة في مثل هذا المقطع، إنى أتلو عليكم القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه فلا ينفع الله اهتداؤه كما لا يضره ضلاله، فمن اهتدى بهداه سعد به، ونال الجزاء الأوفى عند الله، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين، لم يقل هنا فإنما يضل على نفسه لأن هذا معروف من الجملة السابقة، وإنما زاد معنى آخر جديدا، ذلك أن كثيراً من الكفار يمنعهم من الإيمان والاهتداء بهدى الله التعالي على أنبياء الله ورسله، والدعاة المرشدين من بعدهم ،والحسد لهم فيمنعهم الحسد والكبر من الاستجابة لدعاة الله، فناسب أن يقول لهم : ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين أي لست إلا منذراً من المنذرين لست طالب أجر ولا رئاسة ولا أبتغي بهذا الأمر ملكا ولا علواً في الأرض إنما أنا منذر ومبلغ ما أرسلت به إليكم .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[الآية:٩٣].

وقل الحمد لله والثناء الحسن الجميل، والشكر له على نعمة الهداية، فأنا لا أطلب الحمد لنفسي وإنما أدعوكم إلى الاعتراف بنعم الله، وإسناد الحمد إليه، وهو أهل الحمد والثناء الحسن الجميل .

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ .

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه سيرينا آياته في هذا الكون، في الآفاق وفي أنفسنا حتى نعرف أنه الحق من ربنا، ولا تزال آيات الله العظيمة تظهر كلما تقدم العلم، ولا

يزال العلماء يطلعون على ما يدعوهم إلى الإيمان بالخالق العظيم، الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى، فالسعيد من نظر في آيات الله وآمن بالله وبرسله وكتبه وانتفع بإيمانه واكتسب خيراً، ومن لم يؤمن بآيات الله في هذه الحياة الدنيا فسيأتي اليوم الذي يؤمن بآيات الله عند الغرغرة أو عند قيام الساعة، فحينئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا وما قيمة المعرفة والإيمان بعد فوات الأوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم ختم الله، السورة بهذه الآية العظيمة الوقع في نفوس المؤمنين .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

وما ربك يا محمد وإضافة الرب له تشريف ورفع لمقامه، وإلا فهو رب الجميع ، وما ربك بغافل عما تعملون، فاعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير، وسيأتي اليوم الذي تجازون فيه على أعمالكم، إنه يحصيها لكم فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[الزلزلة: ٧-٨]، وما أروع هذه الآية في ختام السورة وأشد وقعها في النفوس، وهي الباعث الكبير على التقوى والاستعدد للقاء الله بترك الموبقات، والمبادرة بالأعمال الصالحات .

نسأل الله تعالى أن يقوي إيماننا ويقيننا، وأن يُفيض علينا من بحر معرفته حتى نحمده حق حمده، ونعبده حق عبادته، فلا يرانا حيث يكره، ولا يفقدنا حيث يُحب، إنه هو البر الرحيم والحمد لله رب العالمين.

سورة القصص

تفسير سورة القصص وهي مكية وآياتها (٨٨)

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
طسم ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي
نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ .

هذه السورة (سورة القصص) مكية إلا بعض آيات وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذى فَرضَ عَلَيْكَ القُرْءانَ لَرادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[الآية: ٨٥] فقد ألقاها جبريل على رسول الله – ﷺ – بالجحفة في طريقه إلى المدينة مهاجراً إليها وقوله تعالى: ﴿الذينَ ءاتَيْنَاهُمُ الكتَابَ مَن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُومِنُونَ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجَاهلينَ﴾[الآية: ٥٢-٥٥] هذه الأربع آيات كذلك نزلت بالمدينة .

والسورة في جوها العام متمّمة للسورتين قبلها ، فهي تركز العقيدة بالله واليوم الآخر ، وتفصل من قصص موسى وبني إسرائيل ما أجمل فيهما ، ولذا سميت سورة «القصص» .

وللسورة جو خاص ، وهو أنه يبين بطش الله الشديد وانتقامه من الظالمين المتكبرين . فإذا جاء عذاب الله لا يقوم له سلطان حاكم ، ولا وزير غاشم ، ولا غنى ولا جاه ، ففي السورة نحو من ستين آية تقص خبر فرعون وهامان وقارون ، وكيف أهلكهم الله فلم يغني عنهم سلطانهم ولا جنودهم ولا مالهم ، بل هلك الكل وكان هلاكهم سريع الوقوع مطوياً في ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ والدنيا من أولها إلى آخرها مسرح لطغيان السلطان والعلم والمال واليوم ثلاثة أرباع العالم يهلكون فقرا وجوعا ، والربع الباقي يتمتع بأنواع الترف متجبراً على الناس بالسلطان والعلم والمال ، فبين الله في هذه السورة عواقب الطغيان بالحكم والسلطان وبالعلم والمال وأن لا شيء من ذلك ينفع إذا جاء أمر الله فهل يعتبر الطغاة المتجبرون الباغون على ضعفاء الناس ، وإن لم يعتبر هؤلاء ففي السورة تسلية للضعفاء وربط على قلوبهم حتى يصبروا ويثقوا بالله القوي الفعال لما يريد ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[البروج: ١٢] ، وليعلموا أنه ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[الرعد: ٣٨] . وإذا أراد الله أمراً وأبرم قضاء فلا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، ولا رافع لقضائه .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ طَسِمٓ تِلْكَ ءايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾[الآية: ١-٢] .

البسملة كما نعلم آية من أول كل سورة ، فلا بدء ولا قراءة ولا فهم ولا علم إلا باسم الله الرحمن الذي وسعت رحمته خلقه في الدنيا ، الرحيم الذي اختصت رحمته الدائمة أولياءه المؤمنين به ، المطيعين لأمره .

﴿طسٓمٓ﴾ .

الحروف الهجائية المقطعة تقدم الكلام في معانيها والله أعلم بمراده منها ، والإشارة بها بتلك إشارة البعيد إيذانا بعلو منزلة كتاب الله ، ذلك الكتاب المنزل على عباده تبيانا لكل شيء ، فهو مبين للحق الذي نزل به ، ومبين لعجز كل من يحاول أن يأتي بكلام مثله فهو كتاب دعوة وإرشاد وإعجاز يحمل بين طياته معجزته الخالدة ، وهو كتاب مبين فيه بيان الفرقان بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال .

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الآية : ٣] .

نتلو أي نقرأ عليك بالحق من أنباء موسى وفرعون ما فيه موعظة وذكرى كقوم يستمعون ويؤمنون ، نسب الله التلاوة إلى نفسه لأنه الذي نزل الكتاب وأمر عبده جبريل أن يتلوه على عبده محمد عليهما السلام فكأنه هو التالي لما كانت التلاوة بأمره وكلامه هو المتلو ، وقدم القصّة بهذه الكلمة لأهميتها وخطر موضوعها واختار كلمة النبأ لأن النبأ هو الخبر المهم الذي له شأن وخطر ثم قال : بالحق فهو خبر يقيني لا مبالغة فيه كما هي عادة القصاص بل هو الواقع الذي يحمل العبرة بالحق لقوم يؤمنون ، كل هذا التقديم ليوّجه القلوب إلى استماع القصة سماع انتباه وحضور بال .

ثم يبدأ الله تعالى القصص بقوله :

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[الآية : ٤] .

بدأ الله تعالى الكلام في الموضوع بوصف حالة فرعون ملك مصر ، وما بلغ إليه من الظلم والعلو والجبروت وهو ظلم كبير عرف به في التاريخ عبر القرون ، عرف الناس

ظلم فرعون وجبروته حتى أنهم ليصفون الملوك الظلمة بالفرعنة فيقول لكل جبار : فرعون ، ويقولون عن أحدهم إذا بلغ حداً طاغياً من الظلم، يقولون عنه : تفرعن، هذا بيان لما بلغ إليه هذا الملك من العلو والجبروت والطغيان ، وكانت ملوك مصر في تلك العهود الطويلة تسمى الفراعنة، ويحكي المؤرخون أن فرعون هذا اسمه الوليد بن الريان، وقال آخرون اسمه : رمسيس، ويقال إنه من العائلة الثامنة عشرة من عائلات الفراعنة التي حكمت مصر .

ولا يتعلق الغرض بعلم الشخص ولا بنسبه، إنما العبرة في ذكر ظلمه وما بلغ إليه من الكفر والطغيان، ومواقفه مع نبي الله موسى وأخيه هارون، ثم في انتقام الله منه شر انتقام هو وقومه حين أغرقهم وأوردهم النار وبئس الورد المورود ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يخبرنا الله تعالى عن فرعون أنه علا في الأرض، أي طغى وتجبر، ويؤكد الخبر وهو أعلم بنفس فرعون وما جبلت عليه من الكبر والسيطرة وحب العلو في الأرض، أي أرض مصر وما يضاف إليها في الحكم، أخبرنا الله أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، أي جعلهم طبقات ، أعلاها الطبقة الحاكمة التي بيدها ملك مصر فهي تتوارثه أبا عن جد، وأدناها طبقة بني إسرائيل المستعبدين الذين يذبح أبناءهم ويستخدم نساءهم، ويستذل رجالهم يسومهم سوء العذاب، هكذا كان حظ أنسال يوسف وإخوته في حكم الفراعنة في أرض مصر، إنهم يعبّدون ويستخدمون ويقهرون أما تقتيل أبنائهم فقد روي أن ذلك لأن فرعون رأى رؤيا ففسرها له الكهنة، رأى ناراً جاءت مصر من قبل بيت

المقدس فأحرقت ديار الأقباط دون ديار بني إسرائيل ففسرها له الكهنة أن نبياً من بني إسرائيل يبعث في مصر يكون زوال ملك فرعون وخراب ديار قومه على يده، فأصدر الأمر أن يقتل أبناء بني إسرائيل الذين يولدون وبث القوابل في ديار بني إسرائيل حتى لا يفلت منهم أحدا، هذا ما بلغ إليه مكره وتدبيره، ولكن مكر الله أعظم من كيد فرعون ومكره، فقضاء الله لابد واقع، والرجل الذي ينبأ ويكون خراب ملك فرعوه على يده سيربيه فرعون في بيته والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون علا فرعون في أرض مصر وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يقتل أبناءهم، ويترك بناتهم يعشن ليسخرن في خدمة بيوت الأقباط ونظام الطبقات يتخذه كثير من الملوك والجبابرة والرؤساء ظلماً للشعوب واستذلالا لهم .

ويدعي الماركسيون اليوم أنهم سيزيلون نظام الطبقات، ويمحون الفروق بين الناس، ويعيش الكل سواسية ، لا فقير ولا غني، وينظرون في الموضوع هذه النظرة الضيقة، ويفسرون الحياة تفسيرا مادياً، وهم مخطئون في تقديرهم، ضالون ضلالاً بعيداً، مناقضون لسنة الله في كونه، وفطرته في خلقه، وقسمته بينهم وهم غافلون عن قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[الزخرف : ٣٢] ، لو أن هؤلاء أنكروا طبقات الظالمين والمظلومين والمفاخرين بالأصول والأنساب، واستذلال الناس واستعبادهم لكانوا على صواب وهذا ما ينكره الشرع ولا يرضاه الخالق وهو الفساد في الأرض وهذا هو استغلال الإنسان للإنسان ، الإستعلاء والتسخير من غير مقابل أو في مقابل ضئيل فيه الجور والحيف، أما أن ينكروا تفضيل الله بعض الناس على بعض في المواهب والأرزاق ويحاولوا المساواة في الأرزاق وأن لا يكون خادم ومخدوم

مطلقاً، فهذا خلاف الواقع وهذا هو الفساد في الأرض قال الحكيم :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فلابد من خادم ومخدوم، ولابد من غني وفقير والناس لم يتساووا في العقول والمواهب والأجسام والألوان، فكيف تمكن المساوة بينهم في الرتب والأرزاق، إنما الشيء المحرم والذي هو الظلم والفساد في الأرض أن يستغل الإنسان أخاه الإنسان بالعمل والكد ثم ينقصه من حقه ويبخسه جهده، ولا يعطي الأجير أجرته التي يستحقها أو يماطله ، فقد جاء في الحديث الشريف : «أعط الأجير أجرته قبل أن يجف عرقه» .

إن نظام الإسلام نظام متكامل، فقد وضع الأسس والقواعد ونهج السبل القويمة التي يصلح بها نظام المجتمع ويقرُّ بها قرار الأمن فقد ساوى بين الناس في الحقوق، وعدل بينهم فأعطى كلاً ما يستحق، ورفع درجة العاملين فساوى بينهم وبين أرباب الأعمال، فهم يقفون كل يوم خمس مرات في بيوت الله بعضهم إلى جنب بعض لا فرق بين الحاكم والمحكوم ،ولا بين الغني والفقير، وجعلهم في الديات والقصاص سواء لا فرق بينهم، وأتاح فرص الكسب والعمل للجميع، وفتح أبواب التعلم للجميع ليعلموا أصحاب المواهب والجد والاجتهاد ،إلى الرتب التي يستحقونها لا فرق بين أولاد الأمراء وأولاد الفقراء، تلك هي المساواة التي يكون بها صلاح الشعوب، أما المساواة في الفقر والغنى فهي خراب الأرض وفسادها ومنشؤها الحسد والحقد وحب الدنيا .

إن الله لم يساو بين عباده في المواهب، فكيف نحاول أن نسوي بينهم في نتائج أعمالهم ومواهبهم، وهي ليست متساوية؟ إن هذا لظلم مبين وخطأ فادح، ولن يكون صلاح الأرض بهذا أبدا ولا صلاح إلا بالرجوع إلى شريعة القرآن .

وشريعة القرآن شرع وسط لا إفراط ولا تفريط، لا شيوعية مادية متطرفة، ولا رأسمالية طاغية . ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾[البقرة: ١٤٣]، كل يكدح ويحصل على ثمرة كدحه وعمله، وفي هذا تشجيع على العمل ودفع للناس على الكد، وبذلك تصلح الأرض ويتم قوام عمارتها، إن فرعون كان من الراسخين في الفساد بادعائه الربوبية، واستعباده العباد، وتقتيله أبناءهم والتجبر على العباد، لقد أكثر في الأرض الفساد، وأراد الله أن يغير هذا الفساد، ويفرج على بني إسرائيل، ويمن عليهم بالهداية والنجاة من العذاب، وإذا أراد الله شيئاً يسره ،وإذا كره شيئاً غيّره قال تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[الآية: ٥-٦].

إرادة الله لابد أن تتحقق وقضاؤه المبرم لا يرد وقوته لا تغالب، وأمره لابد مفعول ولكل ذلك أجل محدود ولكل أجل كتاب يعبر الله في هذه الكلمات عما يريد، تحقيقه بنون العظمة لينبئنا أنه المتسلط المالك الجبار الفعال لما يريد فما فرعون وما هامان وما جنودهما وما الانس والجن أمام قوة الله وإرادته وجبروته !!! لا إله إلا الله الملك الحق، كل شيء خاضع لإرادته ، ممتثل لقضائه، خاضع لأمره طوعا أو كرهاً، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قوة الله إن تولت ضعيفا تعبت في مراسه الأقوياء

بل نقول نحن: ذابت عندها قوة الأقوياء ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ .

يصرح الله في الآية هذه أنه يريد أن يمن أي يتفضل بمنته على الذين استضعفوا في الأرض، وهم بنو إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وقومه وجعلهم عبيد الأرض وسامهم سوء العذاب يريد الله أن ينجيهم من آل فرعون ويجعلهم أئمة قادة في الدين مهتدين يتلون كتاب الله ويحكمون بما فيه ويهدون بالحق وبه يعدلون، ويجعلهم الوارثين الذين يرثون الأرض أرض مصر، بعد هلاك عدو الله وعدوهم، ويستخلفهم فيها، ويجعلهم ملوكا، ويمكن لهم في الأرض، أي يثبتهم ويملكهم إياها، ويبقون على هذا التمكين زمنا طويلاً جزاء على صبرهم ثم قال :

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

لقد كان فرعون وهامان وقومهما يحذرون من خطر بني إسرائيل، ولذلك كانوا يسومونهم سوء العذاب ويذبحون أبناءهم عاماً ويستبقونهم عاماً يخافون زيادتهم، ويخافون ظهور نبي فيهم يكون خراب ملكهم على يده كما فسرت رؤيا فرعون، ولكن الله تعالى قضى أن يكون فرعون هو الذي يربي موسى في بيته بعد أن ينفق على أمه التي ترضعه في بيتها وأن يريه منه ما يحذر هو وقومه من ذهاب ملكه وهلاكه هو وقومه، ويكون بنو إسرائيل الذين استضعفوهم هم الذين يرثون أرض مصر، ويتولون ملكها ويخلفونهم فيها .

لقد كان هامان هو الوزير الأول لفرعون، وهو الذي يظاهره على طغيانه وجبروته، وهو المنفذ لأوامره الصادرة، ولذا أفرده الله بالذكر وما من جبار إلا وله سند يؤازره ويكون هو المسئول عن تنفيذ كل ما يلقي به من أوامر ، وبأمثال هؤلاء يتمكن الملوك

الجبابرة من إنزال ظلمهم على الرعايا، وتسخيرهم وإرهابهم، فهم أعوان الملوك يتحملون معهم تبعات الظلم، ويتقاسمون معهم سوء العواقب في الدنيا، وسوء الحساب يوم القيامة، ولهؤلاء الأعوان جنود مسخرون كما ذكرت الآية هنا، قال تعالى:

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ .

لقد كان لفرعون وهامان جنود كثيرة لا جند واحد، ولكن قوة الله نافذة فلا تغني الجنود شيئاً إذا نزل قضاؤه المبرم، وجاء الأجل المعدود، ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١]، ثم يبدأ الله تبارك وتعالى القصة من ولادة موسى ووحيه لأمه وحي إلهام أن ترضعه فإذا خافت عليه أن تلقيه في اليم من بحر النيل، ويتولى الله رعايته فيقول تبارك وتعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن

رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾
وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

حملت أم موسى به ولم تشعر بذلك قوابل فرعون اللائي يبثهن في بيوت بني إسرائيل لأن الله كان يخفيه عنهن، وحين وضعته قيل رأته قابلة الحي، وكانت صديقة لأم موسى ورأت عليه جمالا ونوراً وألقى الله في قلبها محبته فكرهت أن يذبح هذا الولد الملاك المشرق، وصدق الله العظيم : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾[طه:٣٩] .

فكل من رآه يحبه ،فلم تخبر القابلة الجنود وقالت لأمه أخفيه وأوحى الله إلى أم موسى أن أرضعيه وهذا الوحي وحي إلهام وقيل كلام بواسطة ملك وليست نبوءة، وقد ثبت في الأخبار أن الملائكة كلموا بعض ناس وليسوا أنبياء كما ثبت أنهم سلموا على عمران بن الحصين، وأوحى الله إليها :

﴿ أَنِ أَرْضِعِيهِ ﴾.

فأرضعته قيل ثلاثة أشهر وقيل ثمانية أشهر، فلما افتضح أمرها نفذت أمر الله لها .

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[الآية:٧].

وفي آية أخرى في سورة طه : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾[طه:٣٩]، فصنعت له تابوتا فجعلته فيه فألقته في اليم في بحر النيل وقد طمأن الله قلبها وبشرها أنه سيعود إليها، وسيكون من المرسلين، ولكن لم يقل لها متى ولا كيف ولا أين يذهب، وما كشف لها عن الجهة التي يذهب إليها ومن يأخذه، كل هذا بقي مطويا في سر عالم الخفيات إلا أن البشارة برسالته وهي أعظم بشارة تدل على أن يعيش طويلاً ،وأم موسى من بني إسرائيل وهم مؤمنون بالرسالات يعلمون من أنباء المرسلين.

وقد تكلم المفسرون على بلاغة وحلاوة هذه الآية التي أوحى الله بمضمونها إلى أم موسى : روى الأصمعي أنه قال : سمعت جارية أعرابية تنشد :

استغفر الله لذنبي كله قتلت إنسانا بغير حله
مثل الغزال ناعما في دله انتصف الليل ولم أصله

فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : ويحك أو يعد هذا فصاحة مع قول الله عز وجل : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧]، فقد جمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

فما أعجب أمر القرآن وما أبين إعجازه ! إمتثلت أم موسى أمر ربها فوضعته في التابوت، ووضعت التابوت في لجة البحر، فذهب به قدر الله إلى ترعة كان فرعون وآله على شاطئها، فشاهدوا التابوت قادما مع الماء فأخذوه وفتحه فرعون، فإذا فيه إنسان

بهي الطلعة مشرق الوجه، عليه نور من الله فما أن رآه فرعوه وآله حتى ألقى الله محبته في قلوبهم، فكرهوا أن يمسوه بأذى رغم أن قائلاً من آل فرعون قال : هذا الغلام من بني إسرائيل أخفى أهله أمره فأرى أن تقتلوه إلا يكون خطراً عليكم، ولكن امرأة فرعون أبت قتله، فأشارت على زوجها باستبقائه وتربيته واتخاه ولداً ، لأن فرعون ليس له ولد فما كان من فرعون إلا أن وافق لإشارة زوجته المحبوبة ليتم أمر الله، والله غالب على أمره، قال الله تعالى :

﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ﴾[الآية:٨].

ألتقطوا التابوت ففتحوه فوجدوا فيه موسى، الصبي الجميل المشرق الوجه بالنور الإلهي فعز عليهم أن يقتلوه، وأشارت عليهم امرأة فرعون ألا يقتلوه ليكون ولدا للملك وامرأته الملكة، فتركوه ليكون لهم عدواً وحزناً، واللام هنا لام العاقبة، وقيل لما قالت امرأة فرعون لزوجها «قرة عين لي ولك» قال فرعون : أما لك فنعم وأما لي فليس بقرة عين، قال ابن عباس: لو قال قرة عين لي لهداه الله ولآمن ولكنه أبى، لقد كان لهم عدوا وحزناً بكفرهم وتمردهم على الله وعتوهم على رسوله، ولو آمنوا لكان لهم هدى ورحمة :.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ﴾ .

والخاطئ هو العاصي المتعمد العصيان، والمخطئ هو الذي لم يتعمده، لقد كان فرعون وهامان يكيدان ويمكران ولكن كيدهم كان في تباب، كانوا يكيدون كيدا ويكيد الله بهم كيدا ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، وكذلك تكون عاقبة الكفر والعصيان إلى بوار .

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[الآية: ٩].

كانت امرأة فرعون عاقراً فاستوهبت الولد من فرعون زوجها، وقد ألقى الله عليه محبة في قلب من يراه فوهبه لها وقالت قرة عين لي ولك وقد تقدم ما قال لها لما سبق في علم الله أن المرأة ستقر عينها به والرجل سيكون له عدواً وحزناً وقد نفع الله المرأة بهدى الله الذي جاء به موسى ولم ينتفع به فرعون ولو اهتدى به لانتفع ولكنه أبى وقضاء الله لابد واقع، قال تعالى:

﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

أي لا يعلمون حقيقة هذا المولود وما يؤول إليه أمره، ولو شعروا بذلك لقتلوه وهم يقتلون آلاف المواليد بسببه، فأراد الله أن يقع في أيديهم ويربوه وينفقوا على حواضنه الأموال والهدايا وهم لا يشعرون، ولا يعلم أحد من أمر الغيب شيئاً، إنما الغيب لله وحده، وهكذا قر قرارهم أخيراً على استبقائه ليتخذوه ولدا ولنتركهم، ولنرجع إلى أم موسى وحالتها بعد ذهاب إبنها وفلذة كبدها في اليم، وهي مؤمنة ببشارة الله وخيره ولكنه قلب امرأة ضعيفة على كل حال، وقد ذهب اليم برضيعها ولا يعلم إلا الله حالتها، قال تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الآية: ١٠].

ألقت الأم ولدها في البحر وقد بشرت أنه سيعود إليها وسيكون من المرسلين،

ولكن الشيطان ظل يوسوس لها فاشتد الأمر عليها لاسيما بعد أن سمعت أنه ذهب إلى دار فرعون، فكادت تبدي به وتقول إنه ولدي وتندب واولداه! لولا أن الله ربط على قلبها، ووسوسها الشيطان وقال لها: لو تركتيه عندك وقتلوه بين يديك ما كان عليك من إثم، ولكن دفعته بيديك إلى عدو يقتله فكأنك شاركت في قتله، فأصبح قلبها فارغا إلا من ذكر موسى، حتى كاد لسانها يبوح به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين المصدقين بوعد الله، الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس فاحتسبت أجرها عند الله، وصبرت وفوضت أمرها إلى الله غير أنها أرسلت ابنتها وهي أخت موسى تقص أثره وقد أمرتها بذلك وتأتيها بخبره فذهبت البنت في تلطف ولباقة.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[الآية: ١١].

أي على بعد منه وهم لا يشعرون بأمرها ولا يعرفونها، ذهبت البنت تقفو التابوت وتراقبه عن بعد حتى ساقه القدر إلى فرعون فكان من أمره ما ذكرته الآية وسبق بيانه.

وبعد أن قرروا استبقاءه ليتخذوه ولداً انتدبوا له المراضع، فجئن من كل جهة مبتدرات لتربية ولد يتبناه فرعوه ويتخذه ولياً للعهد، أيّهن تفوز به وتحتضنه أولا، ولكن الولد أبى أن يتلقم أثداءهن وجعل يبكي ويصرخ رغم المحاولات، قال الله تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[الآية: ١٢].

حرمنا هكذا يقول الله بنون العظمة والتحريم هنا قدَرِيّ لا شرعي، والله على كل شئ قدير، فجعل الصبي يرفض كل امرأة عرضت عليه ثديها، واستمر على هذا الامتناع البات، وهو يهزل وينقص مدة أسبوع، حتى خيف عليه، وأخيراً جاءت أخته تعرض عليه مرضعة جديدة لعل الصبي يقبلها:

﴿قَالَتْ هَلَ ادُلُّكُم عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ .

قالت مريم أخت موسى لآل فرعون هل أدلكم على أهل بيت يحتضنون الصبي ويرضعونه وهم له ناصحون وعليه مشفقون، فارتاب هامان لهذه البنت وأمرهم أن يضبطوها ويستنطقوها ويسألوها ما علاقة أهل هذا البيت بهذا الصبي؟ وشك أن الولد ولدهم فكيف يكونون له ناصحين وله محبين، وحومت الشكوك على البنت وعلى أهل بيتها لولا أن الله لطف بهم ووفق البنت لحسن الجواب بما ينفي الشكوك وأعجلتهم الضرورة فأسرعوا بالولد إلى هذه المرأة التي استدعوها إلى بيت فرعون فجاءت فعرضت ثديها على الصبي فأقبل عليه فالتقمه ، وسكت من بكائه، ورضع حتى ملأ بطنه، وارتابوا في أمر المرأة وسألوها كيف أقبل عليك الصبي من دون النساء؟ فقالت : إن جميع الصبيان يقبلون عليها وأن الله خصها برائحة طيبة تجلب الرضعاء، فسكتوا عنها وأذنوا لها بأخذه لإرضاعه وأجرى عليها فرعون نفقة رخية رغيدة، وكان يعطيها زيادة على النفقة ديناراً عن كل يوم، وانهالت عليها الهدايا من الأمراء والوزراء والأغنياء لأنها ترضع ولي العهد، وقد اعتاد الناس منذ القديم ولا يزالون، تقديم الهدايا إلى أولاد الملوك والأمراء يتخذون لأنفسهم أيادي عند ملوكهم ورؤسائهم ، ففازت أم موسى بولدها وبالنفقات وبالهدايا ، قال الله تبارك وتعالى :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[الآية:١٣].

كذلك بنون العظمة يقول الله تبارك وتعالى فرددناه إلى أمه، ولولا أن الله حرم

عليه المراضع ما رجع إلى أمه، ولكن ربي لطيف لما يشاء، وذلك لتقر عينها بابنها وتقر عين الولد بأمه ولا تحزن على فراقه ولتعلم أن وعد الله حق، وقد كانت من قبل مؤمنة بوعد الله ولكن إيمانها بعد رجوع إبنها إليها يبلغ درجة العلم والطمأنينة بصدق وعد الله، ولتعلم بصدق البشارة الثانية بعد أن شاهدت تحقق البشارة الأولى، قال تعالى :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾.

أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، لا يعلمون ما يجب عليهم علمه في ربهم، لا يعلمون أن الله غالب على أمره وأن أمره لابد مفعول، وأن قضاءه واقع، ولو علموا لعبدوا الله ولم يشركوا به شيئاً، ولو علموا لتوكلوا عليه وفوضوا أمورهم إليه، ولو علموا لآمنوا برسله واستجابوا لهم وقليل من عباد الله العالمون الذين يخشون ربهم ويتوكلون عليه ويفوضون أمورهم إليه ، ويستجيبون له ويسلمون له ويتبعون رسله وأن في قصة موسى ورجوعه إلى أمه وتحقق وعد الله فيه لآيات تزيد في علم الذين يؤمنون بربهم، فيشهدون أن الله هو الحق وأن ما يدعو الناس من دونه هو الباطل، وشهادة العلماء تكتب مع شهادة الله وملائكته ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾[آل عمران : ١٨ - ١٩]، نسأل الله أن يجعلنا من عباده المؤمنين الذين يعلمون بما يعلّمهم الله ،ويعملون بعلمهم، ويفوزون يوم لقائه، إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَاسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ

أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ
عَدُوِّهِۦ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا
لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى
اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن
تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ
مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

تحققت البشارة برجوع موسى إلى أمه ثم أخبر الله عن تحقق البشارة الثانية وهي نبوءة موسى ورسالته، وذلك بعد بلوغ أشده واستوائه، وذلك قيل نهاية أربعين سنة، وقيل قبل ذلك بقليل ذلك بلوغ الأشدأما الاستواء فاكتمال أربعين سنة وهي اكتمال القوى الجسمانية والقوى العقلية، وقيل اكتمال القوى البدنية هي بلوغ الأشد، أما الاستواء هو اكتمال القوى العقلية، هذا إخبار عن مصير موسى وانتهائه إلى النبوءة والرسالة، ثم يرجع الكلام إلى بداية قصته ليذهب إلى مدين، وليتحقق ما أراد الله تحقيقه من أمر الرسالة بعد قضاء موسى من عمره عشر سنوات في مدين، والله لطيف لما يشاء قال الله تعالى :

﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[الآية : ١٤].

حين بلغ موسى أشده واكتملت قواه آتاه الله حكما أي حكمة وعلماً بما أوحى الله إليه، وبما اصطفاه الله به من رسالته وكلامه ، وقوله تعالى : .

﴿ وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أي إتيان العلم والحكمة يكون جزاء على الإحسان لا إتيان الرسالة، وليست الرسالة والنبوءة بعمل مكتسب بل هي اختيار من الله لمن يشاء من عباده : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ ﴾[الأنعام : ١٢٤]، والله يؤدب أنبياءه أحسن تأديب، وينشئهم على الإحسان، ويوفقهم إلى ذلك توفيقا، ويجزيهم على الإحسان بالعلم والحكمة،

وكذلك يجزي الله أهل الإحسان بالإحسان يزيد في علمهم ويؤتيهم الحكمة وهذه الآية تذكير لنا لنكون من المحسنين حتى نبلغ بالإحسان مراتبهم في الدنيا والآخرة، فهي تحريض لنا على الإحسان والله يحب المحسنين، ثم قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الآية:١٥-١٧].

وهذا طور من أطوار تاريخ موسى يذكره الله تبارك وتعالى للاعتبار، وقد كان عمر طويل قضاه موسى نحوا من ثلاثين سنة طواه الله، وهو نشأته في قصر فرعون فقد قضى هناك سنين كما دلت آية أخرى من القرآن ثم انفصل عن قصر فرعون لأنه أنكر ما رأى هناك من الشرك وعبادة غير الله ولا يمكن أن يرضى بذلك وقد أعده الله ليكون نبياً ورسولاً وهو من بني إسرائيل الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا شك أنه رأى هنالك الجبروت واستعباد الناس، وأنكر ذلك فخرج من القصر مغاضبا، ولا ندري أين أقام أو خرج من مصر العاصمة إلى بلد آخر أقام فيه وقد تكون إقامته مختفية حتى لا يشعر به فرعون فيطلبه، وقيل نفاه فرعون من قصره وبلده، والنظر الأول أظهر وهو خروجه بنفسه ثم إنه اتصل بقومه بني إسرائيل بعد أن رأى ما هم عليه من التسخير والذل فبث فيهم بذور الثورة والتمرد على هذا الظلم، ومنّاهم أن الله سيفرج عنهم وسيأتي اليوم الذي ينطلقون فيه أحراراً أعزاء ولا يمكن أن يبقوا على هذه الحال البائسة ولذلك أجل يعلمه الله .

وفي يوم من هذا العهد المظلم يدخل المدينة على غفلة من أهلها، قيل كان ذلك وقت الهجيرة والناس قائلون، ونحن نعلم أن مصر بلد ساخن فلابد أن الناس يقيلون في بيوتهم زمن الهجيرة، .

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ .

دخل موسى مدينة فرعون على حين غفلة من أهلها، وقد يدل هذا على أنه كان مختفياً فاراً وقد يكون قادماً من أحد أسفاره وصادف أن كانت المدينة خالية الشوارع من الناس والناس في قيلولتهم وقيل هم خارجون منها في عيد من أعيادهم فوجد موسى رجلين يقتتلان يبغي أحدهما على الآخر أحدهما من شيعة موسى أي من بني إسرائيل والآخر عدو قبطي، لأن الأقباط كانوا أعداء لبني إسرائيل بحكم اختلاف الجنس والدين، فبنو إسرائيل أهل كتاب والأقباط وثنيون عباد فرعون وآلهة فرعون وقيل كان القبطي خبازا لفرعون فسخر الاسرائيلي لحمل الحطب فأبى فسبه وعنف عليه واقتتل الرجلان فبينما هما على تلك الحالة إذ دخل موسى المدينة فصادفهما فاستغاثه الإسرائيلي فهجم موسى على القبطي ليدفعه عن صاحبه المستغيث فوكزه والوكز هو الضرب بقبضة اليد مجتمعة الأصابع وقيل برؤوس الأصابع مجتمعة وكزه موسى وكزة واحدة فخر ميتا فاندهش موسى لذلك وما كان يريد قتله ولكن الضربة كانت قوية على قلب الرجل فقضت عليه قال موسى :

﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ .

أي هذا الغضب الشديد المؤدي إلى قتل الرجل من عمل الشيطان، وما كان موسى آثما بقتل الرجل المتعدي الذي أراد دفعه لا قتله لكن هذا القتل يستهدف خطراً على بني إسرائيل إذ ربما يقتل منهم مئات انتقاماً للقبطي فتكون هذه فتنة فتحها الشيطان على بني إسرائيل، المستضعفين ، هذا هو الذنب الذي ندم عليه موسى واستغفر الله منه فغفر الله له، وعلم موسى آية هذه المغفرة فشكر الله عليها .

وفي هذه الآية موعظة لنا وتحذير لنا من كيد الشيطان، وترغيب في مغفرة الرحمان لنتوب ونؤوب إلى الله ، فقد وصف الشيطان بثلاثة أوصاف منكرة ،وهو أنه عدو مضل مبين، وصف بالعداوة المتأصلة لبني آدم ووصف أنه مضل يسعى في إضلالهم، وأكد هذا الوصف بأنه مبين أي مبين العداوة مبين الاضلال لا شك في عداوته وحرصه على إضلال الناس فلنحذره ولنتخذه عدواً بمخالفته، والاستعاذة بالله العظيم من كيده وإضلاله، وفي الآية وصفان لله تبارك وتعالى مؤكدان وهما قوله تعالى :

﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

إن الله هو الغفور لكل من استغفره تائبا من ذنبه، الرحيم لمن استرحمه متقيا له متبعا لرسوله، فلتكن عبادتنا لله وإنابتنا إليه وطاعتنا له وثقتنا فيه ولنستغفره إثر كل ذنب إنه هو الغفور الرحيم الذي ليس كمثل مغفرته ورحمته مغفرة ولا رحمة وليس كمثل عذابه عذاب ، علم موسى بما علمه الله أن الله قد غفر له ذنبا فانطلق لسانه شاكراً لله .

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ .

قال موسى يا رب بما أنعمت عليّ بنعمة الهداية وقوة البدن ومغفرة ذنبي، فلن أكون

ظهيراً أي معينا للمجرمين على ظلمهم وإجرامهم، وفي هذا تعليم لنا وإرشاد أن لا نستعمل نعم الله علينا في معصية المنعم ولا نعين بها العصاة الباغين لأن ذلك كفران للمنعم ، وإنما شكر النعم يكون باستعمالها في طاعة الله الذي أنعم بها علينا، ويكون بنفع عباد الله وإغاثة الملهوفين ونصر المظلومين ومقاومة الظالمين : .

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[الآية:١٨-١٩].

أصبح موسى عليه السلام بعد عملية الدفاع التي أدت إلى القتل من غير قصد، أصبح في المدينة خائفاً يترقب الانتقام من طرف الأعداء الذين لابد سيثأرون لقتيلهم منه ومن قومه إن بلغهم خبر القاتل، والخبر لابد سينتشر في المدينة ولا يخفى فبينما هو في هذه الحالة من الخوف والترقب يمشي في المدينة إذا بالشخص الذي استنصره بالأمس يستصرخه ويستغيثه من عدو آخر يتهجم عليه فقال له موسى إنك لغوي مبين أي بين الغواية كل يوم تشتبك مع الأعداء وأنت تعلم حالتنا من الضعف وحالتهم من الطغيان والقوة ، ومن كان هذا ينبغي أن يصبر ويتحمل ولا يحاول الانتصاف لأنه يجر عليه وعلى قومه الوبال .

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

لما أن أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدو لهما دفاعاً عن الذي من شيعته،

وتبيّن منه دلائل البطش قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ؟ ترى من القائل هذا ؟ قال جمهور المفسرين إنه الإسرائيلي لما قال له موسى ما قال واستوفز للبطش ظن أنه هو المقصود فخاف على نفسه فنطق بهذه الكلمات الفاضحة لعملية القتل لأنه الذي شهدها ، وقال البعض إنه القبطي الذي علم أنه المقصود بالبطش وخافه أن يكون ضحيته كما وقع لابن عمه بالأمس وقد شاع الخبر وعُلم القاتل ولا يستبعد انتشار الخبر ، وأنا أميل إلى هذا القول وأرجحه ، وقال الرجل لموسى إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض تطغى فيها بقوتك وما تريد أن تكون من المصلحين ، يقول له هذا لأنه قد شاع أن موسى يسعى في إصلاح ذات البين ليخفف حدة العذاب عن قومه بني إسرائيل ، فقال له القبطي هذا الكلام ليذكره بوظيفته ويستعطفه حتى لا يقتله وبينما هو في هذه الحالة إذ حدث حادث آخر يصرف الهم عن قضية الرجلين المتقاتلين إلى ما هو أهم وأخطر ، ذلك هو ائتمار القوم بقتل موسى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[الآية : ٢٠].

وفي تلك الحالة جاء رجل من أقصى المدينة يسعى أي يسير سيراً حثيثاً ، وقد ألقى الله في قلبه العطف على موسى ، ويبدو أنه كان حاضراً في مؤتمر القوم فرعون وملإه وقيل هو الرجل الذي سيهديه الله للإيمان بموسى وهرون وهو من آل فرعون ،وغير بعيد أن يكون هو الذي ألقى الله في قلبه محبة وشفقة وعطفا على موسى فتجشم كل هذه المسافة من أقصى المدينة حيث قصر المؤتمر ، فجاء يسعى حتى لا يفوت الأمر فنصح موسى :

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ .

أخبر موسى باجتماع الملأ وبمضمون ائتمارهم وأكد الخبر حتى لا يشك لأنه ليس هناك مجال للشك والتردد وناداه باسمه حتى ينتبه ويعلم أهمية الأمر ، إنهم يأتمرون بك ويتشاورون من أجل قتلك فأخرج من هذه الأرض قبل أن يمسكوا عليك فلا تفلت ثم قال : إني لك من الناصحين .

أي لا تشك في نصحي لك، ولابد قد ألقى إليه هذا الخبر سراً حتى لا يفتضح الأمر وكان ايتمارهم بعد أن ظهر أمر موسى، وهو الفتى الإسرائيلي الذي جعل يبث بذور الوعي في نفوس بني عمه ليتخلصوا من الظلم فخاف القوم من عاقبة هذه الصحوة وظنوا أن هذا الفتى هو الذي يكون خطراً على ملك فرعون ففكروا في قتله وائتمروا على ذلك قبل أن يستفحل الأمر ويتسع الخرق على الراقع فانعقد مجلس الدولة فهم يتداولون قضيته ويأتمرون بقتله وهم لا يعلمون أن الله غالب على أمره فسخر الله هذا الرجل الذي هو واحد منهم وملأ قلبه بمحبة موسى والنصح له فجاءه يسعى من أقصى المدينة وأعلمه بجلية الأمر وأمره بالخروج حالاً فامتثل موسى فخرج من مدينتهم خائفا يترقب الطلب ويخشى اللحاق وهو وحيد أعزل لا سلاح عنده بل ولا زاد ولا رفيق إلا الله تبارك وتعالى، والله تعالى نعم الصاحب في السفر ونعم الخليفة في الأهل والمال والولد .

خرج خائفا مهاجراً كما خرج نبينا محمد -ﷺ- يوم هجرته من مكة إلى المدينة والله ناصرهما وهو خير الناصرين .

﴿فَخَرَجَ مِنهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الآية: ٢١].

استمع موسى لمقالة الرجل الناصح الأمين وعلم أن كلامه جد، فخرج من المدينة خائفا يترقب لحاق القوم فتوجه بكله إلى الله يدعوه.

﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

فسمع الله دعاءه فنجاه من القوم المعتدين، وكذلك ينجي الله عباده المؤمنين الذين يتعرفون إلى الله في الرخاء فيعرفهم في الشدة ،وقد علم موسى أن لا ملجأ له إلا إلى الله فتضرع له بالدعاء فرحمه وكان عند ظنه.

قال هذا وهو هارب منهم ومتوكل على الله وفي الآية من العلم أن التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب ففي الحديث «أعقلها وتوكل».

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[الآية: ٢٢].

ولما ولى وجهه إلى ناحية مدين بلد سيدنا شعيب عليه السلام رغب إلى الله أن يهديه قال: عسى الله أن يهديني السبيل القاصد السوي فهداه الله قيل فبعث ملكا يدله وكان فريدا لازاد له فكان يأكل من بقل الأرض وأوراق الشجر، واستمر على هذا مدة سفره ثمانية أيام حتى التصق بطنه بظهره من شدة الجوع، وكان راجلا لا مطية له فقواه الله وهداه الطريق ،وحفظه من طلب فرعون، وقد بعثوا في طلبه فلم يسلكوا الطريق الذي سلكه فلم يدركوه وتلك عناية الله إن تولت ضعيفا تعبت في مراسه الأقوياء.

قال عسى ربي واختار هذا الاسم الذي فيه تربية الله لموسى وحفاوته به ورغب منه الهداية فهداه سواء السبيل، وجعل هجرته هذه طريقا إلى هدايته سبيل المؤمنين، وقد

كان من قبل مؤمنا مهتديا فزاده الله هدى وفتح الله له بهذه الهجرة سبيل الوصول إلى ما يريده الله له من الهدى والحكمة بطريق النبوة والوحي فلا يعود إلى مصر إلا وهو مزود بمشعل الهداية، مؤيد من الله ببرهاني العصا واليد مؤازر بأخيه هرون، معصوم بمعية الله محفوظ بعناية الله : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ
وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ
نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ
إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ
أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى
ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

سار موسى عليه السلام موجها بعناية الله إلى مدين ولما ورد الماء الذي يسقي منه أهل مدين أي وصل عنده وقد يكون معنى الورود الوصول ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً ﴾[مريم : ٧١] ، حين وصل مورد مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون أي جماعة كبيرة من الناس يسقون أغنامهم وإبلهم ، ويبدو أن الموسم صيف والحر شديد ، ووجد من دون القوم أي بمعزل عنهم امرأتين تذودان ، تدفعان غنمهما عن الماء وحتى لا تختلط بمواشي الناس ، فهاله هذا المنظر وتحركت فيه نخوة المروءة والشفقة فسألهما ما خطبكما ما شأنكما ولماذا لا تسقيان ؟ وأين صاحب هذا الغنم ؟ فأجابتا بجواب الاعتذار والاستعطاف : قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، قالتا لا نزاحم الرعاة على الماء ولا طاقة لنا بذلك ، وهذا يدل أيضا على حيائهما فهما تنتظران حتى يصدر الرعاء ،وهذا يستدعي وقتاً طويلاً وصبرا على مشقة الانتظار وذود الغنم ، قالتا وأبونا شيخ كبير ، اعتذرتا عن أبيهما صاحب الغنم أنه شيخ كبير وعاجز عن رعي الغنم وسوقها وسقيها فسقى لهما موسى مكابدا ومغالبا تعبه من السفر والجوع ، وما ذاك إلا لعلو أخلاقه وقوة شهامته ومروءته ، سقى لهما ولم يطلب منهما أجراً بل تولى إلى ظل الشجرة ، وتوجه إلى ربه الكريم يسأله أن يطعمه كما هداه وحفظه من طلب الأعداء :

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[الآية : ٢٤] .

هذه جملة خبرية في معنى الإنشاء فهو يستعطف ربه ويدعوه ويقول : يا رب إني

مفتقر إليك أن تنزل علي من خيرك وتفيض عليّ من فضلك، إن خيرك كثير وفضلك كبير، ولا يستغني المؤمن من فضل ربه ،ولا يفتر عن دعائه حتى ولو يدعوه لنيل غدائه أو عشائه، فاستجاب الله له وسمع دعاءه، وهو السميع العليم القريب المجيب .

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتِ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[الآية:٢٥].

جاءته إحدى البنتين الكبيرتين تمشي على استحياء، وكذلك ينبغي للبنات وهذا تأديب من الله لنا ولا غرو فهي بنت الرجل الصالح شعيب الذي ربى بناته على الحياء والعفاف، قالت البنت الحيية لموسى عليه السلام : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا قالت له هذا حتى يطمئن لدعوتها ولا يرتاب فلبى نداء الشيخ، وذهب مع البنت يمشي أمامها لا وراءها حتى لا يراها فيفتح بذلك على نفسه بابا من وسواس الشيطان، وهو الرجل الصالح الذي أدبه الله وأعده للنبوءة والرسالة والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، وقالت له ليجزيك أجر ما سقيت لنا ليطمئن ولا تدخل على نفسه وحشة من هذه الدعوة من الشيخ، مشى موسى إلى الشيخ :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الآية:٢٥].

لما جاء موسى شعيبا وقص عليه قصته من أولها والشيخ يستمع إليه فلما انتهى من قصته قال لا تخف من الطلب فقد نجوت من القوم الظالمين ، ذلك لأن مدين لم تدخل تحت سلطان فرعون ، أطعم الشيخ موسى وسقاه وواساه وطمأنه وأنس بعضهما ببعض وحين لاحظت ابنة شعيب أن جواً من التصافي والأنس ساد الجلسة ألقت اقتراحها على أبيها وهو اقتراح مناسب ووجيه .

﴿قَالَتِ اِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَاجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَاجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[الآية: ٢٦].

قالت إحدى البنتين لأبيها يا أبت استأجره على رعاية غنمنا ! إن خير من استأجرت الرجل القوي الأمين، قالت ذلك لأنها لاحظت قوته حين رفع الصخرة وغطى بها البئر وهي صخرة لا يقوى على رفعها إلا عصبة من الناس ولاحظت أمانته حين مشى قدامها ولم يمش خلفها وهو لا يعرف الطريق وكانت تدله بالكلام وهي وراءه، فعرفت بهذا قوته وأمانته والقوة والأمانة هما الصفتان المطلوبتان في الأجراء، ولذا أقرها أبوها على هذا الكلام وحكاه الله في القرآن لتعليم الأمة أمر دينها ودنياها ، ووافق الشيخ على اقتراح ابنته الصائب :

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ انكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَاجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنَ اَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنَ اَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الآية: ٢٧].

وافق الشيخ على استئجار موسى ورغب في مصاهرته، وهو الرجل الصالح الأمين الذي لا عيب فيمن خطبه لإحدى بناته كما خطبت خديجة رضي الله عنها رسول الله - ﷺ- وخطب عمر بن الخطاب أبا بكر رضي الله عنهما لابنته حفصة رضي الله عنهما، ومن القرآن نتعلم استحباب خطبة الرجال لبناتنا إذا كانوا رجالاً صالحين أمناء، ولا غضاضة علينا في ذلك ولا عليهن، والقرآن يقص علينا أخبار الصالحين المهتدين لنقتدي بهم ، رغب إليه أن يستأجره لرعي غنمه ثمانية أعوام فإن أتم عشراً فمن إحسانه وهو له من الشاكرين، قال وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين في العشرة والمعاملة، وهو يعلم من نفسه الصلاح والكرم والتسامح ولكنه تأدب مع الله فقال : إن

شاء الله وكذلك يؤدب الله أنبياءه ويعلمهم ويهديهم ليكونوا قدوة للناس في صراط الله المستقيم .

ما أكرمها عقدة لثمان سنوات تمت بين رجلين صالحين توجبت بزواج امرأة صالحة لرجل أمين صالح ! فما أبركه من زواج وما أبركها من إجارة ! وافق موسى الشيخ على اقتراحه وقبل الاقتران بابنته المؤمنة وأمضى عقد الإجارة على رعي غنمه واستوثق لنفسه بالمدة المشروطة لهذه الإجارة .

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[الآية :٢٨].

والله على ما نقول شهيد، وهو وكيل ونعم الوكيل عليه يتوكل المؤمنون في جميع أمورهم ،وفي هذه الآية إرشاد لنا معشر المؤمنين أن نختم عقودنا وعهودنا بهذه الكلمة الطيبة التي فيها التبرك بذكر اسم الله والتوكل عليه والثقة بشهادته وعلمه المحيط بالظواهر والبواطن، ثم إن المفسرين يتكلمون في تعريف هوية هذا الشيخ الصالح فقال كثير منهم هو شعيب النبي عليه السلام عاش بعد هلاك قومه وكبر وعمى بصره، وقال آخرون هو ابن أخيه وقد يكون رجلاً من مؤمني قومه والله أعلم .

ولو كان الغرض يتعلق بتسميته وتعريفه لسماه الله وعرفه فلنترك الشيخ ولنرجع إلى موسى عليه السلام ويطوي الله من عمره عشر سنوات كان يقوم فيها برعي الغنم والقيام بأهله كما يقوم الرجال الأمناء الصالحون ثم بعد مضي هذه المدة الطويلة يذكر الله حال عبده موسى في رحلته وهو سائر بأهله إلى وطنه الأصلي حيث أهله وأقاربه وبنو عمومته بنو إسرائيل، ليمهد بهذا الذكر لنبأ الوحي والرسالة قال الله تعالى :

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾
وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا
وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾
ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾
وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا
يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ
عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾.

عاش موسى في مدين وباديتها عشر سنين قضى فيها أبعد الأجلين وأطيبها كما جاء في الأثر وهو الأليق بنبي الله موسى، وكان يُعده الله بهذا العمل لرعاية بني إسرائيل. وكذلك ما بعث رسول إلا وقد رعى الغنم كما كان رسولنا -ﷺ- يرعى غنما لأهل مكة حين كان صغيراً فهم يتدربون برعي الغنم لرعاية الأمم، وينمي ربهم فيهم عاطفة الحب و الحنان والرأفة والشفقة والصبر، ويكتسبون بعملهم هذا قوتا من الرزق طيبا، وأفضل الرزق وأطيبه ما اكتسبته بكد يمينك وعرق جبينك .

مضت كل هذه المدة وموسى يرعى الغنم، ويوفي الأجل حتى مضت العشر سنوات قيل وعشر سنوات أخرى ثم تحركت الأشواق في قلب موسى ليعود إلى أمه وإخوته، وقومه ووطنه وتغلبت هذه الأشواق على الخوف من فرعون وقومه، فعزم موسى على الرجوع إلى وطنه الأول وتوكل على ربه وسأل منه أن يحفظه من كيد فرعون وقومه، وسار بأهله في أرض سيناء متوجها إلى مصر وكان ذلك بقدر من الله تبارك وتعالى :

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَاراً لَعَلِّيَ ءَاتِيكُم مِّنهَا بِخَبَرٍ اَوْ جِذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[الآية: ٢٩].

لما قضى موسى أوفى الأجلين وأطيبهما، وسار بأهله أي بزوجته وولديه إلى وطنه راجعا إلى أمه وأخيه هرون وأخته وقد طمأن الله قلبه وأفاض عليه من روحه وهداه إلى التوكل عليه والثقة فيه والاعتماد عليه ،والاستئناس به في مسيره هذا كما استأنس به وتوكل عليه في مسيره الأول إلى مدين فكان له خير نصير وحافظ، سار بأهله في أرض سيناء حتى إذا كان في ليلة ليلاء باردة شديدة البرد وضل عليه الطريق فالتفت يمنة ويسرة فآنس من جانب الطور نارا تلمع .

﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً لَعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جِذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

قال لزوجته وولديه امكثوا حين أنتم سأذهب إلى هذه النار التي أراها من بعيد لعلي أجد عندها خبرا يهدينا طريقنا أو آتيكم بقبس منها لعلكم تصطلون .

ولا ندري بعد المسافة التي بينه وبين النار وإنما ترك أهله ماكثين في موضعهم وذهب وحده إلى موضع النار راجياً أن يجد عندها هدى يهديه، فوجد عندها الهدى كله وبورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾[الآية : ٣٠-٣٢] .

فلما اقترب من الموضع إذا هي نار توقد من شجرة ولكنها لا تحترق، وليست النار بنار بل هي نور يشع ضياؤه من الشجرة المباركة ، لما اقترب منها موسى ناداه الله أن يا موسى أني أنا الله ربك ورب العالمين، كان النداء في الشاطئ الأيمن من الوادي المقدس طوى، وروي أنه كان يسمع الكلام من كل جهة لا من جهة معينة، وسماه الله الأيمن لأنه على يمين الوادي ولأنه موضع يمن وبركة، وقال تعالى : في البقعة المباركة من الشجرة، ومنذ ذلك الحين حلت فيها البركة وأي بركة أعظم من كلام رب العالمين لعبده موسى

بالرسالة والهدى ودين الحق أعظم بها من بركة وقداسة شملتا تلك البقعة وذلك الوادي.

جاء النداء من رب العالمين بالتعريف برب العالمين جل جلاله، وبالأمر بإلقاء العصا وضم الجناح لتظهر المعجزتان والآيتان الكبريان .

واختصر الكلام هنا وبسط في مواضع أخرى، والقرآن متكامل يفسر بعضه بعضا، وجاء النداء باسم موسى وفي ذلك ما فيه من إدخال الأنس على قلب الوافد المنفرد الغريب، والله نعم الصاحب والمؤنس وهو خير المنزلين . و «أنْ» تفسيرية في ذكرها بيان النداء ومضمونه :

﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ناداه الله يا موسى أني أنا الله ربك ورب العلمين لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، سمع موسى النداء وأيقن أنه من رب العالمين وقد كان مؤمنا بربه لا يشرك به شيئاً، وازداد قلبه طمأنينة بهذا النداء العظيم من ربه العظيم، ولم يشك أنه كلام الله رب العالمين، لقد كان من المهتدين المحسنين فأراد الله أن يزيده بهذا النداء هدى ويرسله بالهدى إلى عباده، ويريه من آياته الكبرى التي ستكون ظهيراً له على تبليغ رسالات ربه، والرب هو الخالق المربي للعالمين، وهم جميع مخلوقات الله في البر والبحر وفي السماوات والأرض وما بينهما وسموا بالعالمين لأن وجودهم علامات على وجود الرب الخالق الرازق العالم القدير الحي الفعال لما يريد المتصف بأوصاف الكمالات المنزه عن أوصاف النقص، المنزه عن الشركاء تعالى الله عما يصف الجاهلون له الملك والحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ذلك رب العالمين :

﴿وَأَنَ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِنِينَ﴾ .

كان هذا هو الأمر الأول من رب العالمين بعد تعريف موسى بمصدر النداء وصاحبه «وأَنْ» هذه تفسرية كالتي سبقتها أي ومن جملة النداء والكلام.

﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ .

وفي موضع آخر يأتي السؤال من الله عن العصا، والله أعلم بها وبصاحبها وإنما هو إيناس وتمهيد لما سيأتي من الأمر بإلقائها وإظهار المعجزة فيها عند إلقاءها وأخذها ورجوعها عصا كما كانت في يد موسى.

سمع موسى الأمر فامتثل فألقى عصاه فإذا هي تهتز كأنها جان، والجان نوع من الثعابين سريع الحركة فولى مدبراً من شدة الخوف لا يلتفت وراءه فناده ربه .

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِنِينَ﴾ .

أي نداء هذا وأي بشارة عظيمة يصرح له بها، وهي البشارة بالأمن لعبد الله موسى، إلا من المطلق في الدنيا والآخرة لأنها من رب رحيم علام الغيوب لا يخاف لديه المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنه غفور رحيم .

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِنِينَ﴾ .

نداء من الله العلي الكبير لعبده موسى فيه أمر ونهي وبشارة نسأل الله العلي الكبير أن يجعلنا من عباده الآمنين .

أقبل موسى بعد إدباره وأخذ ما أمر بأخذه فرجعت سيرتها الأولى ثم أمره الله بأمر آخر فيه برهان آخر .

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

قال الله لموسى أدخل يدك في جيبك أي فتحة الثوب التي تدخل منها رأس الملابس وأخبره هذه المرة بمصيرها بعد إخراجها حتى يطمئن ويهدأ باله ، ولا يظن أنها تخرج حية أو ثعبانا بل تخرج بيضاء من غير سوء ولا داء ولا ألم ، إنها ستخرج مشعة بنور الله كأنها مصباح يزهر فامتثل ما أمره به ربه فإذا يده بيضاء قال تعالى :

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ .

ذلك لأن الله قد أمره أن يذهب إلى فرعون الطاغية وملإه فينذرهم ويذكرهم ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار فأيده الله بهذين البرهانين آيتين على صحة دعوة موسى وصدق رسالته ، قال الله تعالى :

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

إن فرعون وملأه كانوا فسقوا عن أمر ربهم وألفوا الفسق واستمرءوه حتى صار ديدنهم فكانوا قوما فاسقين وهذا الوصف بالجملة الاسمية المسبوق بكان يُفهمنا هذا المعنى ببلاغة ووضوح وقوله تعالى :

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ .

تكلم فيه المفسرون كثيراً واختلفوا ولا نذكر اختلافهم بل نبيّن المعنى الذي أرشدنا الله إليه ، ونرجو أن يكون هو المعنى الصحيح ، أما الضم فمعروف وهو أن يقبض يده إلى

جنبه أو صدره، وأما الجناح فهو في الأصل للطائر واستعير هنا لليد بجامع تشابه الوظيفة، فاليد تقوم مقام الجناح فالإنسان إذا كان يسرع السير أو يجري فإنه يحرك يديه يجذف بهما الهواء كما يجذف الحوت الماء بزعانفه، وكذا الطائر فإنه يحرك الهواء بجناحيه لأن ذلك يساعده على الطيران فأمر الله موسى أن يضم إليه يده التي هي كالجناح للطائر وهذا الضم لترجع اليد إلى طبيعتها ولا شك أن موسى عند مشاهدة معجزة الله في يده يتملكه الرهب، وهو الخوف الذي يمازجه المحبة والتعظيم للمرهوب ولذا قال تعالى :

﴿مِنَ الرَّهَبِ﴾ .

أي في حالة من الرهب التي تصيبك، والأمر رهيب حقا وفي ذكر الرهب هنا إشعار لنا برهبة الموقف لنزداد رهبة لله ، وفي أمر الله لعبده موسى بهذه الحركات إشعار لنا من الله وتعليم أن اتخاذ الأسباب مشروع، والله قادر أن يحقق ما أراد بغير سبب وما تبلغ هذه الحركات في تلك المعجزات ولكن الله يعلمنا ويرشدنا إلى سلوك الأسباب في جميع أمورنا ومن تأمل معجزات الأنبياء في القرآن يجد هذا المعنى، وكذلك مريم ابنة عمران لما أمرها الله أن تهز جذع النخلة ،وما يبلغ جهد المرأة النافس في متانة جذع النخلة وخشونته ولكن الله ألانها لمريم فتساقط عليها الرطب الجَني .

تلك هي حكمة الله وسنته في خلقه، نأتي بالأسباب ونحن ضعفاء ونتوكل على الله فيقوي ضعفنا ويمن علينا بالوصول إلى النتائج بفضله وقدرته ورحمته، وقد يحقق الله ما يريد بغير سبب كما كان يبعث بالرزق إلى مريم وهي في محرابها بدون سبب، والله على كل شيء قدير :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[الآية:٣٣-٣٤].

ثم إن موسى عليه السلام أراد أن يستوثق من ربه بما يعينه على تبليغ الرسالة وضمان الدعوة بالحفظ والتأييد وذلك بأن يرسل إلى أخيه هارون فيكون معه وزيراً أو سنداً وعونا، وهذا مقام التضرع والسؤال وقد كان موسى قد قتل نفسا من الأقباط قوم فرعون كما علمنا فقال يا رب إن هؤلاء القوم الذين ترسلني إليهم قد قتلت منهم نفسا وأنت تعلم فأخاف أن يقتلون فتموت رسالتي بموتي فأرسل معي أخي هارون يكون لي عونا وخلفا يبلّغ رسالتك بعدي إن هم قتلوني، فموسى لا يخاف القتل على نفسه بل خافه على دعوته ولم يتهرب من الرسالة بل طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون نبياً ليصدقه عند القوم ويكون له عونا وسنداً.

وقد طعن بني إسرائيل في موسى كما طعنوا في غيره من أنبياء الله، وقتلوا من قتلوا منهم كما ذكر القرآن الكريم غير مرة ذكر الأستاذ / محمود شكري التونسي وله دراسة في التوراة والإنجيل وهو حجة في هذا الباب قال : « قال اليهود إن موسى طلب من ربه الإعفاء من الأمر، وقال يارب ابعث من أنت باعثه أما أنا فلا أستطيع » ومعنى هذا الكلام أن موسى جبن وضعف عن المسؤولية وطلب من ربه أن يبعث أحداً غيره، وربما يفهم بعض البسطاء من الناس من الآية هذا المعنى فهو خطأ بيّن، ولعن الله اليهود الذين يفترون على أنبيائهم ولا يتورعون بل ويقتلونهم وكثير منهم فاسقون، والآية هنا ترد عليهم فهو يقول :

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ .

وآيات أخرى مثل هذه يطلب فيها أن يكون أخوه هارون وزيراً له وما فسر القرآن مثل القرآن فلنحذر افتراءات اليهود على الأنبياء، ولنحسن الظن بأنبياء الله ورسله فهم صفوة الله من خلقه عليهم السلام، ولابد أن يكون موسى قد اهتم بقومه وما هم عليه من ذل، وما عليه فرعون وقومه من ضلال، فهو لا شك حريص على هدايتهم وإنقاذ بني إسرائيل من العذاب والخسف الذي هم فيه، وما مثله في هذا إلا مثل رسول الله محمد - ﷺ - فإنه كان قبل الرسالة مهتما بقومه يريد هدايتهم ولكنه لا يعلم كيف ينقذهم مما هم فيه من الضلال حتى أرشده الله بالوحي، ومن جملة ما قال له : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾[الضحى :٧]، كذلك كانت حالة موسى فكيف يهرب من المسؤولية وهي التي إياها يطلب وفيها يرغب ! لا يمكن أن نتهم موسى أبداً بما اتهمه به السفهاء .

وقد يظن أحد بموسى الضعف لما طلب من الله تقوية أمره بأخيه هارون ، كلا ليس الأمر كذلك، بل إن شدة حرص موسى على بلوغ الرسالة هو الذي حمله على ذلك فهو يخاف أن يفرط عليه فرعون فيقتله فتموت الرسالة بموته، وهو يعلم أن لهم عليه ذنباً فهو يخاف أن يقتلوه به فطلب من الله أن يبعث معه أخاه هارون ليحمل راية التبليغ من بعده وليصدقه في دعوته بالتبيين والمحاجة ولأن موسى كان في لسانه عقدة تحبس عليه بعض ما يريده من الكلام ولذلك قال لربه : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[طه :٢٧-٢٨]، ونحن نعلم كما يذكر بعض المفسرين أن موسى عصبي المزاج، سريع الغضب، والحدة تحبس الكلام أحيانا في لسان صاحبها وتعقده، فطلب موسى من الله أن يؤيده بأخيه هارون يصدقه ويبين ما يجب بيانه من الحجج والبراهين لأنه يخاف

أن يكذبه فرعون وقومه ويجادلوه بالباطل ليدحضوا به الحق، فاستوثق ما يضمن بلوغ الرسالة وبقاءها فلا يمكن أن نصدق ما يتهمونه به من الجبن والضعف وهو القوي الأمين، وإنما يريد أن يشد قوته بقوة أخيه ثم يشدان قوتهما بقوة الله تعالى فاستجاب الله له :

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[الآية: ٣٥].

قال الله تعالى لموسى سنؤيدك بأخيك هارون، وجاء التعبير هنا بشد العضد لأن شد العضد بمعنى تقوية الساعد الذي به تكون معالجة الأعمال القوية، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، فهو استعارة للتأييد والتقوية كما أن الضعف يعبر عنه بفت العضد ، سنشد عضدك بأخيك أي نقويك بأخيك هارون .

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ .

أي نجعل لكما قوة من عندنا وحجة بالغة وعصمة وحفظا .

﴿فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ .

فلا يستطيعون الوصول إليكما بأذى، وذلك بما سنؤيدكم به من آياتنا، إن الله أيدهما بآيات ومعجزات أولاها معجزة العصا واليد، وما كان فرعون ليمد يده بسوء إلى موسى وهارون بعد أن يشاهد معجزة العصا وهي تنقلب ثعبانا مبينا ثم يمد إليها موسى يده فترجع عصا هامدة كما كانت، ثم يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ثم يضمها إليه فترجع كما كانت ، ولذلك نختار الوقف على قوله تعالى :

﴿بِآيَاتِنَا﴾ .

ثم يأتي قوله تعالى :

﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ .

وهو كلام مستقل وحكم ماض من رب العزة يحكم أن موسى ومن اتبعه هم الغالبون ومن كان الله معه فهو الغالب المنتصر، وستكون له العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة .

أيّ كلمة عظيمة هذه تحمل البشارة لموسى وأخيه ومن اتبعهما، وأيّ تقوية من الله لقلب موسى، فهو بعدها يذهب مطمئنا بوعد الله ثابت الخطى رابط الجأش، ويؤيد الله بنصره من يشاء وهو القوي العزيز وجنده الغالب ، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة: ٢١] . ويقول ربنا تعالى :﴿إِنْ يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٠]، ويقول : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ﴾[المنافقون :٨]، فليذهب موسى وهارون إلى فرعون وملإه وهم واثقون بنصر الله لهما، وأنهما ومن اتبعهما الغالبون وأن أعداء الله هم المهزومون .

وقبل أن ننهي الكلام عن إرسال الله لعبده موسى وتكليمه إياه لابد من كلمة نقولها في موضوع هذا التكليم حتى ندفع وساوس أهل الجدل والفلسفة عن قلوب شبابنا الذين يقرءون كتب أهل الكلام والفلسفة والجدل .

والقول الحق أن نؤمن بالذات العلية وأن نثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات من غير تشبيه ولا تعطيل، ونكل علم ذلك إلى الله تبارك وتعالى ونؤمن أن الله فضل بعض أنبيائه درجات منهم من كلم الله، ولا نحاول أن نبحث عن الكيفية وأنى لنا إدراك ذلك . قال أهل العلم في هذا المعنى :

العجز عن إدراكه إدراك   والبحث في إدراكه إشراك

فما لنا والخوض فيما يخوضون فيه، وما لنا ولقولهم! أوصاف الله ذاتية وغير ذاتية إنما قصارانا أن نصف ربنا بما وصف به نفسه، وكل ما ينتهي إليه علمنا من ذلك هو نفي الأضداد فقوله: «حيٌّ» نفهم منه أنه غير ميت، وقوله: «عليم» نفهم منه أنه غير جاهل وقوله: «سميع» نفهم منه أنه ليس بأصم وقوله بصير نفهم منه أنه ليس بأعمى وهكذا، ولا نطمع فيما وراء ذلك ولا خير في الدخول في الفلسفات الكلامية وما دخلها العلماء إلا مضطرين للرد على الآراء الدخيلة التي أدخلها أناس دخلوا في الإسلام وأدخلوا معهم فلسفاتهم ومنهم من أدخلها لقصد إضلال المسلمين ، فلنتشبث بإيمان العجايز الذي لا يقبل الجدل، وليس هو التقليد المذموم بل هو الإيمان الفطري الذي رسخته آيات الله في قلوب المؤمنين وزكته الطاعات والقربات فازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ذلك هو إيمان العجائز، فإنك لو حاولت جاهداً إدخال الشك على إحداهن لم يزدها ذلك إلا تشبثا في عقيدتها وتمسكا بدينها ، نسأل الله مقلب القلوب أن يثبت قلوبنا على دينه وعلى طاعته حتى نلقاه مسلمين مؤمنين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ

أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

لما ذهب موسى إلى فرعون وملإه كذبوه وأعرضوا عنه، وسخروا منه ورموه بالجنون والكذب والسحر، شأن الأمم المكذبة برسلها وأنبيائها، وتلك طريقتهم المتبعة في معارضتهم رسل الله وأنبياءه يشبه آخرهم أولهم، ويتبع بعضهم بعضاً، وتلك طبيعة الطغيان في رؤسائهم وطبيعة الذل والاستخذاء في مرؤوسيهم ينساقون وراء كبرائهم وساداتهم .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾[الآية: ٣٦].

لما جاءهم موسى بآيات الله البينات التي لا لبس فيها ولا ريب، قالوا أي فرعون ومن معه من الملأ أنكروها ، وقالوا لموسى ما هذا الذي أتيتنا به إلا سحر مفترى، اختلقته

وتعلمته لتسحر به الأبصار والألباب فما نحن لك بمؤمنين وهذا الذي أتيت به من الدين الذي تزعمه ما سمعنا به في آبائنا الأولين ، وهكذا يحتج كل الكفار على أنبيائهم بما وجدوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم في ضلال مبين ، تلك طبيعة التقليد الممقوت وفيها كفر بنعمة العقل التي وهبها الله بني آدم ليفرقوا به بين الحق والباطل ، ولكنهم يأبون إلا تقليد الآباء والأجداد وقد حاججهم في هذا مؤمن آل فرعون بقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾[غافر : ٣٤] .

أنكر عليهم قولهم هذا ورد عليهم بقوله ولقد جاءكم يوسف رسول الله من قبل بآيات الله البينات فما زلتم في شك مما جاءكم به من الهدى والبينات وتماديتم في شككم حتى هلك فلما هلك ، قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ، واليوم لما جاءكم رسول الله موسى بآيات الله البينات قلتم هذا سحر مفترى ، وقلتم ما سمعنا بهذا من قبل في آبائنا الأولين ، وهذا منهم كذب وزور ، وتلبيس على عامة الناس ، وتضليل منهم وصد عن سبيل الله ، أما موسى رسول الله فقد رد عليهم إنكارهم هذا بقول فيه تبكيت لهم وإنذار لهم على سوء العواقب :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[الآية : ٣٧] .

قال موسى مجيبا وهو معتد بربه ، متوكل عليه ، واثق بنصره الذي وعده إياه ، قال ربي الذي بعثني إليكم رسولاً أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، وسيظهر دينه وهو الذي يعلم من تكون له عاقبة الدار ، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن أمرهم سيزول وستنقلب عليهم سوء العواقب إن لم يقبلوا هدى الله .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

إنه لا يسعد ولا ينجح الظالم الذي يكذب على الله أو يكذب بالحق الذي يجيئه من عند الله ولا أظلم ممن يفتري على الله الكذب أو يكذّب بآيات الله البينات ويكذّب رسول الله .

كان هذا الجواب من نبي الله موسى عليه السلام تلطفاً منه لهم ، وإيثاراً للاختصار في الجدل وعدولا منه عن التعمق في الجدال إلى كلمات قاطعة للخصومة ألهمه الله إياها ليفحمهم بها ، ويقيم عليهم الحجة بما لا قبل لهم على إنكاره ورده ، وذلك بعد أن عرفهم بربهم أنه رب العالمين ، وأنه رب السموات والأرض وما بينهما وأنه رب المشرق والمغرب وما بينهما وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ، وبعد أن أراهم معجزة العصا واليد ، وبعد أن جحدوا بآيات الله وقد استيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً فلم يعد ينفع معهم الجدل فخاطبهم بهذه الكلمات قطعا لخصومتهم لعلهم يرجعون إليها فيتأملونها فإنها كلمات قوية مجلجلة تصدع بالحق وتنبئ بما يستقبلهم من غيب الله وقدره ، وفيها الحكم القاطع ، والقضاء الصارم على الظلمين أمثالهم وهي من الحكمة وفصل الخطاب .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الآية :٣٨] .

يجيب عدو الله فرعون موسى رسول الله بكلمات هي في منتهى الطغيان والكبرياء وهي كلمات يستبله بها قومه الذين بلغوا من الذل والاستخذاء مبلغا قضى على أفكارهم وعقولهم فهي لا تعي ولا تفهم إلا كما يريده لها هذا الجبار المتكبر المتأله .

والعجب من العقول التي تنتهي إلى هذه الدركة من الركود والاستخذاء، والويل من فرعون وجنوده لمن يفهم الحق أو يصرح به فعلى الملأ أن يصوبوه في كل ما ينطق حتى يستبقوا على مراكزهم وينجوا من ظلمات السجون والتعذيب والتقتيل ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ لما عجز فرعون عن محاجحة موسى وعن رد آيات الله البينات وظهر عجزه لجأ إلى أسلوب القوة والجبروت وفرض ربوبيته وسيطرته على الرعية فقال للملإ من قومه ما علمت لكم من إله غيري ، فهو لم ينصب نفسه شريكا لله وفي هذا ظلم عظيم، ولكنه ذهب في الطغيان أبعد من ذلك فأنكر ألوهية رب العالمين، ودعا إلى توحيد ألوهيته المزعومة ظلما وعدوانا ثم نصب نفسه حربا على الله رب العلمين، حين أمر وزيره الأول أن يبني له صرحا يصعد عليه ليحارب إله موسى رب العالمين وجحد الله حين قال :

﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

هذا ظاهر ما يفهم من كلامه، وتحت هذا الكلام مكر كُبَار، وكيد عظيم، وذلك أنه بعد أن فرض ألوهيته على قومه فلا نكير ، أراد أن يطاول في الأجل وفي ذلك ربح للمدة حتى يبلغ من عتوه وجبروته أقصى ما يستطيع من الأجل ، ألم تره قال :

﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ .

أليس في مصر صروح وأبراج، أليس فيها آجر مصنوع يصلح للبناء كلا ليس المقصود الإسراع في البناء بل المقصود التباطؤ ومدافعة الزمن وإضلال الناس، ولذا فهو يبدأ الأمر من الطين ثم يوقد على الطين لتطول المدة وتنشغل أفكار الناس زمناً فلا ينصتوا

إلى موسى وهارون، وبهذه الأساليب العجيبة من المكر يطغى الجبابرة من الملوك والرؤساء على أفكار الرعايا المساكين ويستعبدونهم ويستبلهونهم في سبيل توصلهم إلى أغراضهم ،وليبعد الأفكار والخواطر عن عقول الناس حتى لا يتفكروا في كلام موسى وهارون قال :

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

يعلن بظنه وهو يريد القطع في الإنكار حتى لا يقول الناس لعل كلام موسى حق، وهو تنويم عجيب وتضليل لأفكار الناس ولذا فضحه الله وبين نواياه الخبيثه، فهو لا يقصد من هذا العمل شيئا من طلب الحق، وما حمله على ذلك إلا الطغيان والاستكبار في الأرض قال تعالى :

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[الآية: ٣٩].

أنكر فرعون الحق واستكبر هو وجنوده ظلماً وعلواً في الأرض بغير الحق، وكل مستكبر عات على الله فهو بغير الحق، لا سيما الذي يرأس الناس بغير علم ولا عدل ولا سلطان من الله إن هو إلا العلو والطغيان وحب الشهوات فهو مستكبر بغير الحق، والكبرياء الحق لله الحق وظن فرعون وملأه أنهم لا يرجعون يوم البعث إلى الله وظنهم هذا إنكار وتكذيب برسل الله، وما حملهم على الظن إلا الكبر وحب الشهوات ، قال تعالى :

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيِمةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ في هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[الآية: ٤٠-٤٢].

أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر فنبذه في اليم نبذا، وما أغنى عنه كبرياؤه ولا سلطانه ولا جنوده بل هم الآخرون نبذوا معه في اليم، وينبذون معه في النار يوم القيامة وأتبعهم الله لعنة في الحياة الدنيا ويوم القيامة وهم لا ينصرون، وجاء التعبير في كل هذه العقوبات بنون الكبرياء والعظمة ليدل على قوة الله وشدة أخذه لهم، وبطشه بهم، وليدل على هوانهم على الله فهم يؤخذون وينبذون في اليم ويغرقون ويلعنون في الدنيا والآخرة ويدخلون النار ولا ملجأ ولا نكير وما لهم من نصير، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، وللناظر معتبر وموعظة في هذه العاقبة الوخيمة والمصير المشئوم وفي عاقبتهم تحذير من الظلم بكل أنواعه، وفيها تسلية للمظلومين بأن الله سينصرهم وينتقم لهم من أعدائهم أعداء الله، وسيريهم منهم ما يحبون فإنه عليهم مقتدر ، وفي قوله تعالى :

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيِمةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ .

بيان لغلوهم في الظلم وعتوهم على الله فهم أئمة لمن معهم وبعدهم وبئست هذه الإمامة إمامة، فهم يدعون إلى النار من اتبعهم وفيه تحذير للناس من اتباع أئمة الضلال وأن لعنة الله تتبع أئمة الكفر وأتباعهم ثم قال تعالى :

﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ .

إنهم يوم القيامة يوقفون موقف الخزي والهوان، وهم من المقبوحين المفضوحين المذمومين المطرودين من رحمة الله، وبئس مثوى الظالمين، ونعوذ بالله من مصير الظالمين.

وفي وصفهم بالأيمة نكتة غريبة إذ لا يزال الناس في هذه الدنيا على فريقين : فريق سائر في الهدى له في الخير أيمة يقتدي بهم وهم الأنبياء والرسل والعلماء فطوبى لمن كان في الخير للمتقين إماماً وطوبى لمن كان تابعاً لأئمة الهدى .

وفريق آخر سائر في طريق الشر والضلال له في الشر أئمة يقتدي بهم وهم فراعنة الظلم وشياطين الجن والإنس فويل لمن كان في الشر إماما للفجار، وويل لمن كان تابعا لأيمة الضلال وشياطين الإضلال، ولا يزال في الناس من الفريقين أزواج وأشكال، فلنحذر أئمة الضلالة من شياطين الجن والإنس، ولنحذر مذاهبهم الشيطانية التي أهلكت أكثر الناس مثل الشيوعية واللينينية والصهيونية والماسونية واللادينية أهل الزندقة والإلحاد والفلسفات المادية التي تفسر كل شيء تفسيراً مادياً ولا تؤمن بما وراء المادة، ولن يزال منهم دعاة ودجالون حتى تقوم الساعة ولنتمسك بعروة الله الوثقى التي استمسك بها أيمة الهدى ودعوا إليها ولا يزالون يدعون الناس إلى طريق الجنة ولهذه المناسبة ندعو بالدعاء الذي علمنا الله إياه في القرآن الكريم : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنَ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[الفرقان: ٧٤] . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ

عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِے أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمُۥٓ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ
إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَيٰهُم
مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن
تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتَ ايْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُومِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ
مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسيٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسيٰ مِن قَبْلُ
قَالُواْ سِحْرَٰنِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ
فَاتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَيٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمَ انَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنِ اِتَّبَعَ هَوِيٰهُ بِغَيْرِ
هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِے ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

يطوي الله تبارك وتعالى خبر فرعون وملإه وتكذيبهم بالآيات البينات التي جاءتهم وخبرإهلاكهم في كلمات موجزة، وقد بسطها في مواضع أخرى من القرآن الكريم ثم يذكر خبر موسى بعد هلاك القوم، ويجعل الله من خبره عبرة للقوم، وإقامة للحجة عليهم، ويبين في هذه الآيات أن طبيعة الكفر والتكذيب والعناد واحدة، وهي متأصلة في الكفار في كل عصر ومصر وأن المانع من التصديق والإيمان دائما هو اتباع الأهواء، وأن هدى الله لا ينتفع به الظالمون فهم لا يوفقون إليه ولا يهتدون بنور الله لانطماس بصائرهم بالأهواء ، يقول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الآية:٤٣].

يقول الله : ولقد آتينا موسى الكتاب أي أنزلنا عليه التوراة المكتوب في الألواح بعد أن أهلكنا القرون الأولى أي القرون السابقة لزمانه المكذبة برسلها، وكان إهلاكهم إهلاك إبادة بأنواع من العذاب مختلفة منها ما ذكر في القرآن ومنها ما لم يذكر وكذلك أهلك فرعون وقومه، وكان نزول التوراة على موسى بعد هلاك فرعون ونجاة موسى وبني إسرائيل من حكمه.

أنزل الله التوارة على موسى فيها بصائر للناس، والبصائر هي النور الذي يبصر به القلب سبيل الرشد، كما أن البصر هو النور الذي تبصر به العين الأشياء على حقيقتها، قال تعالى : بصائر للناس وهدى ورحمة ، وصف الله التوراة بوصف المصدر كما وصف به القرآن لأنهما يحملان الفرقان والهدى والرحمة فكأنهما عين الرحمة، نعم كان

إرسال الرسل وإنزال الكتب هدى للناس ورحمة من الله للناس كافة، وعند تلاوتهما تتنزل الرحمات على التالين المهتدين ففيهما ثلاث كرامات عظيمة للمؤمنين : البصائر والهدى والرحمة ثم قال تعالى :

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ .

ولعل حرف رجاء وتعليل، أي لعل نزول الكتاب يحملهم على التذكر فيراجعوا عقولهم، وقد تطغى الأهواء والشهوات على العقول فتعميها، فينزل الله عليهم الكتب ويرسل الرسل ويؤيدهم بالمعجزات لعلهم أي أقوامهم يستبصرون، وتزول غفلتهم وعمى قلوبهم فيتذكرون فتنفعهم الذكرى، ثم يمتن على نبيه محمد -ﷺ- بالوحي والرسالة فيقول :

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[الآية:٤٤-٤٦].

في الآيات خطاب للنبي -ﷺ- تأتي على عقب خبر موسى وفرعون وقومه، يراد بها إنذار قريش وإقامة الحجة عليهم وتخويفهم عاقبة كفرهم وتكذيبهم لنبيهم -ﷺ- وقد جاءهم بآيات الله البينات، فيها الهدى والفرقان وفيها القصص الحق من أنباء ما قد سبق، يقول تعالى : وما كنت يا محمد بجانب الطور الغربي حين قضينا إلى موسى أمر الرسالة والوحي، وما كنت من الشاهدين حين كلمناه وأنزلنا عليه التوارة مكتوبة

في الألواح، فيها من كل شيء موعظة وتفصيل لكل شيء ، ما كنت حاضراً مع السبعين الذين اختارهم موسى لميقاتنا ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وبدلوا وغيروا وحرفوا في التوراة وضلوا عن سبيل الله إلا قليلاً منهم، فأردنا أن نجدد أمر الرسالة والوحي ببعثك إليهم ، وما كنت ثاويا أي مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ما كنت حاضراً مع شعيب وقومه، وما شهدت مقدم موسى إليهم، بل بينك وبينهم عهد طويل ما كنت لتعلم نبأهم لولا إرسالنا لك وإيحاؤنا إليك بأنبائهم وما كنت بجانب الطور إذا نادينا موسى وكلمناه بما كلمنا به ما كنت شاهداً معه بجانب الطور الأيمن فمن أنبأك بأخبارهم وأنت الرجل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم علم القرون الأولى ؟ .

ولكن رحمة من ربّك إختارتك واجتبتك لوحيه ورسالته لتنذر قوماً أميين ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون لعلهم يهتدون ، بما أنزلنا إليك، وفي الآيات إشارة إلى الفترة التي بين محمد -ﷺ- وعيسى عليه السلام ، وبين مولد عيسى ومبعث محمد عليهما السلام ستمائة وعشر سنوات لم يبعث فيها رسول، فاقتضت حكمة الله تجديد أمر الرسالة وهي للناس كافة الأميين منهم وأهل الكتاب فإن القرآن مهيمن على الكتب الذين سبقوه ومصدق لما بين يديه وهو من الله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، يقيم الله به الحجة على الناس كافة ويذكرهم برسالات الله وكتبه المنزلة على رسله وبيوم القيامة والبعث والجزاء لعلهم يتذكرون، وفي هذا رحمة ربهم قبل أن يمسهم العذاب ومن أنذر فقد أعذر، ولا أحد أحب إليه العذر من الله :

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟

لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُواْ سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[الآية:٤٧-٥٠].

ولولا أن يقولوا حين تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم من كفرهم وفسوقهم، لولا أن يقولوا حينئذ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً يبّين ما نتقي من الكفر والعصيان قبل أن تعاقبنا فنتبعه ونصدق بآياتك ونطيعك ولا نعصيك ونكون من عبادك المؤمنين ، لو أخذناهم على غفلة لاحتجوا علينا بمثل هذا الكلام ونحن أعلم بما يصنعون فلما جاءهم الحق من عندنا جحدوا به وأنكروه، وقالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، أي هلا أوتي هذا الرسول القرآن جملة واحدة مثل ما أوتي موسى التوراة جملة واحدة وهلا أوتي معجزة العصا واليد ، قالوا ذلك لأنهم سألوا اليهود عن شأن محمد -ﷺ- : أصادق هو أم كاذب فقالوا لهم قولوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى وهذا من مكر اليهود وكيدهم وحسدهم للعرب إذ لو بعث فيهم لصدقوه فأجاب الله قريش حين قالت ما قال لهم اليهود جوابا فيه الحجة القاطعة لاعتراضهم ، قال تعالى :

﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُواْ سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ .

أو لم يكفر قومك بما أوتي موسى من قبل، أو لم يقولوا ساحران تظاهرا أي صدق أحدهما الآخر، قيل موسى وهارون وقيل موسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم، وقالوا إنا بكل كافرون صرحوا أنهم يكفرون بالرسالات، وقالوا ما أنزل الله على بشر من

شيء وكفروا بكتب الله كلها، وكفروا بالبعث بعد الموت، فكيف يصح أو يقبل منهم هذا القول، قد كفروا بما أوتي موسى كما كفر من كان قبلهم والكفر ملة واحدة، فرد الله عليهم بهذا الرد الذي يفضحهم ويدحض شبهتهم الواهية، وقال تعالى:

﴿قُلْ فَاتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

تحداهم منزل القرآن أن يأتوا بكتاب من عند الله يكون أهدى من القرآن، وأمر نبيه أن يخاطبهم بهذا الخطاب ويقول لهم ايتوا بكتاب من عند الله أهدى من هذا الكتاب أتبعه إن كنتم صادقين في دعواكم، وإنى لهم أن يأتوا بذلك والله يعلم إنهم لكاذبون مكذّبون يجادلون الحق بالباطل، ولن يستطيعوا أن يعارضوا هذا القرآن بمثله أو بما هو أهدى منه قال الله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمَ اَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

فإن لم يستجيبوا لك، وقد علم الله أنهم لا يستجيبون فاعلم أنما يتبعون أهواءهم بغير هدى من الله، أي فأعلم ولا تشك أنهم في جدالك متبعون لأهوائهم بغير هدى من الله والله لا يهدي القوم الظالمين الذين يكذبون رسل الله ويتبعون الهوى، إنهم بعيدون عن الهدى لأنهم اتخذوا الههم هواهم واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله وما أضل الناس مثل الهوى، تدعو أحدهم إلى الهدى فيقول: أحب كذا وكذا، أولا أحب أو يقول: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فماذا يقوله النصحاء لأمثال هؤلاء، إنهم ضالون ولا أحد أضل منهم ما داموا متمسكين بأهواءهم متبعين لها إن الله يضل الظالمين ولا يهديهم ولهم عذاب أليم:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الآية: ٥١].

أي ولقد جعلنا لهم هذا القول متتابعا متواصلاً لعلهم يتذكرون وتلين قلوبهم لمواعظه المنزلة أو تحدث لهم ذكرا، وهذا أبلغ في التذكير والوعظ من نزوله جملة واحدة، وفي هذه الآية رد عليهم حين قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، فالذي أوتوا أبلغ وأوعظ للنفس وأدوم تذكيرا مما أوتي موسى ومعجزته أبقى من المعجزات التي جاء بها موسى، لأن التي جاء بها موسى ماتت بموته والتي جاء بها محمد - ﷺ - تخلد وتبقى ما بقي القرآن ، فما لهم لا يعقلون ! لقد كان لهم فيه هدى وذكرى لو كانوا يعقلون ، هذه الآية تقيم الحجة عليهم وعلى جميع من وصله هذا القول وقرأه أو سمعه وفهمه، وفيها تكليف بإيصال هذا الكلام إلى كافة الناس لعلهم يتذكرون، وفيها إرشاد إلى مداومة تلاوته على المؤمنين لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً، والتالي والمستمع شريكان في الأجر كما أن الذكرى تحدث لكليهما ، ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا

تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ
مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ
شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا
مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن
مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب اليهود منهم والنصارى الذين أسلموا، أمثال سلمان وصهيب وعبد الله بن سلام ونصارى نجران والحبشة الذين أسلموا وآمنوا بما نزل على محمد -ﷺ- فمدحهم الله بإيمانهم بهذا الرسول والكتاب الذي أوحي إليه ولم يُضع أجرهم في العهد الذي كانوا فيه على نصرانيتهم أو يهوديتهم يعبدون الله على شريعتهم فآتاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا على عبادة الله، وبما صبروا عليه من الانتقال من دين ألفوه ووجدوا عليه آباءهم إلى دين علموا أنه الحق من الله فآمنوا به وقد كانوا من قبله مسلمين لربهم وإن كان الدين لواحداً وإنما تختلف الشرائع وصبروا على الإيمان بالرسول الجديد الذي لم يبعث فيهم بل بعث في العرب للناس كافة فآمنوا به ولم يثنهم التعصب ولم يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، يمدهم الله على أن

غلّبوا الحق على العواطف ولم يتركوا لأهواء النفوس وأقوال الناس سبيلاً الى عقولهم التي أبصرت الحق فعرفته بل أسلموا لربهم وآمنوا بكتابه وصدقوا رسوله، وعملوا بوصايا أنبيائهم وكتبهم التي بشرت به فرضي الله عنهم وآتاهم أجرهم مرتين، ولا يطيق عملهم إلا الصابرون، إذ ليس من السهل الانتقال من دين، إلى دين ونحن نرى اليوم أناسا ألفوا عادات مبتدعة ليست من شرع الله ولا من سنة رسول -ﷺ- فنهيناهم عنها وهم متمسكون بها متشبثون بها لأن نفوسهم ألفتها واعتقدتها دينا كقراءة القرآن بالأجرة على القبور، وبناء المحاريب عندها والتقرب عندها بأنواع القربات وهذه الأشياء بدع منكرة ولكنها طبيعة النفوس التي تغلبت عليها الأهواء والتي تميل إلى تقليد الآباء والأجداد في الأشياء الموروثة عنهم بغير هدى من الله، إذا تصورنا حالة هؤلاء الناس عرفنا فضل أهل الكتابين الذين تركوا التعصب وآمنوا بمحمد -ﷺ- وما نزل عليه من الهدى ، وقد جاء وفد منهم إلى النبي -ﷺ- وهو بمكة وآمنوا به بعدما استمعوا إليه، فسبّتهم قريش وشتموهم فصبروا على ما نالهم من أذاهم ،وأعراضوا عن سبهم وشتمهم، فمدحهم الله بذلك وقال فيهم :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [الآية: ٥٤-٥٥].

إن هؤلاء الوفد المؤمنين وأمثالهم قال الله فيهم: ويدرءون أي ويدفعون السيئة من غيرهم بالحسنة من عندهم بما أوتوا من الحلم وحسن الأخلاق، وفيهم مع الحلم سخاء النفس فهم ينفقون مما رزقهم الله شكراً لله الذي رزقهم وأنعم عليهم، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، واللغو هو سقط الكلام والبذئ من القول وقد تتأذى النفس بسماعه،

ولكن نفس الحر تترفع عن الإجابة بالمثل وتؤثر الحلم على الجهل، فهم عن اللغو معرضون، وحين يجهل عليهم الجاهلون يقولون : سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين، أي بيننا وبينكم المسالمة والمباعدة لانجاريكم في جهالتكم، لا نبتغي الجاهلين وقيل : سلام عليكم أي الله رقيب عليكم لا ندخل معكم في الجهالة ولا نرغب في ذلك، وماذاك إلا لأن نفوسهم زكاها الإيمان وحلاها بالحلم ووفقهم الله ، وهداهم لأحسن الأخلاق فكانوا مثلاً أعلى يقتدي بهم الصالحون .

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الآية:٥٦].

إنك يا محمد لا تهدي من أحببت، أي لا تجعل الهداية في قلبه ولكن الله يهدي من يشاء ،هدايته ويضل من يشاء ولا إشكال بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى :٥٢] .

لأن الهداية لها معنيان، هداية دلالة وإرشاد، وهي التي يقوم بها النبي -ﷺ- ويبلغها إلى الناس، وهداية إيصال وتوفيق، وهذه لله وحده لا يملك النبي ولا غيره منها شيئاً ، وقيل نزلت هذه الآية في أبي طالب عم النبي -ﷺ- وقد اغتم النبي -ﷺ- وحزن عليه حزناً شديداً، وقد كان يرغب في هدايته وإسلامه ولكنه أبى ومات على دين أشياخ مكة ، فأنزل الله عليه الآية تسلية لقلبه حتى ينفي عن قلبه الوساوس لعله قصر في محاولة هدايته، ويسلم الأمر كله لله وهو أعلم بالمهتدين الذين يستحقون هداية الله، والذين في قلوبهم الاستعداد لتلقي هداية الله وتوفيقه، نسأل الله أن يجعلنا من الذين كتب لهم الهداية الخاصة، وأن يميتنا على صراطه المستقيم وأن لا ينزع منا صالح ما أعطانا إنه نعم المسئول وهو أرحم الراحمين .

ولا يقتصر معنى الآية على أبي طالب وحده بل يشمل قريشا لأن النبي -ﷺ- كان شديد الحرص على إيمانهم وهدايتهم ،وكان متعجبا أن يعرضوا عنه ويكذبوه وهم أهله وذووه، ويعرفون صدقه وأمانته، وقد عاش فيهم عمراً طويلاً قبل الرسالة، وهم يسمونه الأمين ولا يشكون في صدقه، فكيف يكذبونه بينما يأتيه ناس بعداء يستمعون إلى القرآن يتلوه عليه فتفيض أعينهم بالدمع مما عرفوا من الحق، وقريش هم العرب الأقحاح الذين يفهمون القرآن ولا تخفى عنهم بلاغته وإعجازه، فيتعجب رسول الله -ﷺ- من كفرهم بآيات الله وسخريتهم ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ ﴾[الصافات :١٢-١٣]، كان هذا يملأ قلب النبي غما وأسفا فسلاه الله بهذه الآية لتهدأ نفسه ويزول غمه، وليعلم أن الأمر بيد الله فهو أعلم بالمهتدين ، فالآية ولو نزلت في أبي طالب ولكنها عامة في قريش ثم في الناس جميعا، ولا يزال الكلام متصلا في قريش ولدادتهم وعنادهم :

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[الآية :٥٧].

هذه شبهة من شبه الكفار يتعرضون بها، ويجعلونها تعلة في نكوصهم عن الإيمان، يدحضها الله ويرد عليهم بما لا قبل لهم بإنكاره ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾[الأنعام :١٤٩]، ذلك أن بعض بني عبد مناف قالوا للنبي -ﷺ- : «إنا نخاف إن نحن اتبعنا الهدى معك أن يتخطفنا الناس من أرضنا ويستولوا عليها، فرد الله تبارك وتعالى عليهم برد قوي لا يستطيعون أن ينكروه» ، قال تعالى :

﴿أَوَ لَمْ نُمكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً تُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .

أي أو لم ينظروا إلى صنع الله بهم، وإحسانه إليهم في حفظهم في هذا الحرم الآمن والناس يتخطفون من حوله وهم خائفون جعل الله البلد الذي يقيمون فيه حول بيته المحرم حرما – امنا تجبى إليه، ثمرات كل شئ رزقا من لدنه، الوادي غير ذي زرع وتجبى إليه أي تجلب إليه أنواع الثمرات المختلفة وهم آمنون، ذلك ببركة دعوة أبيهم إبراهيم حيث قال : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة:١٢٦] .

دعا أبونا إبراهيم عليه السلام لمن آمن منهم خاصة بالأمن والرزق، فاستجاب له لمن آمن ومن كفر، لأن نعم الله في الدنيا تعم البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فجعل الله لنبيه حرما – آمنا ورزق أهله بثمرات كل شيء ، كان هذا الأمن وهذا الرزق وهم متمكنون في حرم الله، وهم في جاهليتهم كفار مشركون بربهم فكيف يتخطفون وهم مسلمون مؤمنون ! ،أفلا يعقلون ! بل إنهم بعد الإيمان سلطهم الله على ما وراء الحرم يفتحون البلاد، ويجبون الغنائم والأرزاق ويتخطفون الناس، أو لم يعتبروا بقصة موسى وكيف كانت العاقبة للمؤمنين ،فأخرج الله أعداءهم الكفار من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم .

فكلامهم إذن واه لا يقبل، وليس فيه أدنى عذر لهم، وهو يتضمن اعترافهم أن الذي معه هو الهدى وأنهم على ضلال ، فكيف يسوغ لهم بعد أن فهموا الهدى أن لا يتبعوه، وهل يكفي عذراً خوفهم من الناس، وماذا يكون ما تخوفوه في جنب عذاب الله الأليم

في الحياة الآخرة، أما سحرة فرعون فآمنوا بربهم لما أبصروا الهدى ولم يثنهم عن الإيمان خوفهم من فرعون وقد هددهم بالتقطيع والتقتيل والتصليب فثبتوا على إيمانهم وقالوا له : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾[طه : ٧٢] ، كذلك يثبت الله المؤمنين الصادقين بالقول الثابت في الدنيا وفي الآخرة .

أما من كان مذبذبا فإن الشيطان يستحوذ على قلبه، ويهوّل عليه الأمر، ويكثر عليه المخاوف والوساوس، وكذلك أهل زماننا فإنهم يخافون الناس، ويثنيهم هذا الخوف عن الحكم بما أنزل الله، والإعلان بقانون السماء قانونا، وهذا من ضعف إيمانهم، ولو اعتصموا بالله ورجعوا إلى كتابه وسنة نبيه فعملوا بهما وحكموهما لعصمهم الله وقواهم ونصرهم وغلبهم على من سواهم، وقد وعدهم الله بذلك في كتابه الكريم حيث قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾[النور : ٥٥] ، إن أحدا لا يملك أن يذل من أعزه الله أو يعز من أذله الله، والعاقل من يفر إلى الله، ويعتصم بالله ويفوض أمره إلى الله هذا وتقسيم الأرزاق بيد الله وهنا يقول الله تعالى :

﴿ رِزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ .

رزقا من لدن ربنا الرزاق ذي القوة المتين لا أحد ينقص من رزق الله ولا أحد يزيد فيما قسم الله :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ولكن أكثر الناس لا يعملون الحق فهم غافلون جاهلون ولو تأملوا صنع الله لعقلوا ولو عقلوا وتدبروا لعلموا ولكن أوتوا من قبل غفلتهم، وغفلتُهم هذه بسبب اتباعهم

لأهوائهم وطُغيانهم وبطرهم ، قال الله تعالى :

﴿ وَكَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾[الآية :٥٨-٥٩].

لهذه المناسبة وهي الرد على مخاوف الذين لا يعلمون ، يذّكرنا ربنا تبارك وتعالى بإهلاك القرى الظالمة بسبب ظلمها ، وأن الله لا يهلك قرية حتى يبعث فيها رسولاً ينذرها ، وما كان الله ليهلك قرية إلا وأهلها ظالمون قد استحقوا بظلمهم الهلاك ، وليس من شأن الله أن يهلك قرية أهلها مصلحون ومن هنا يتضح أن كلام هؤلاء الذين يخافون الهلاك بسبب اتباع الهدى كلام باطل لا أساس له من الصحة ، ولاحظ له من الصواب ، ولو كانوا يعلمون ما تكلموا به يقول تعالى :

﴿ وَكَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ .

كم هذه خبرية وهي للتكثير أي ما أكثر القرى التي أهلكناها بسبب الطغيان والبطر والمراد بالقرية أهلها المترفون المسرفون في طغيانهم ومعاصيهم والبطر في اللغة هو سوء تحمل الغنى وقيل سوء تحمل النعمة وهذا أرجح لأن النعمة أعم من الغنى ، فالنعمة تشمل الغنى والرياسة وكثرة العرض وغيرها وكثير من الناس يتحملون الفقر والبلاء بالصبر ولا يستطيعون تحمل النعم فهي تبطرهم وتطغيهم والبطر فيه معنى الكفر وقوله تعالى : ﴿ بطرت معيشتها ﴾ أي بطرت في معيشتها فالكلمة منصوبة

بنزع الخافض ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ﴾[الأعراف:١٥٥] .

أي اختار من قومه سبعين رجلاً ، أما الهلاك فيكون بأنواع : بالخسف والمسخ والرجفة والصيحة والريح والمطر والغرق والدمار والفتن، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، ونعوذ بالله من أسباب الهلاك ومن نزول العذاب ونسأله العافية في الدنيا والآخرة وأن لا يؤاخذنا بذنوبنا ولا بذنوب غيرنا قال تعالى : .

﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

هذه آية أخرى من آيات الله يهلك الله ما شاء من القرى فتبقى بيوتهم خاوية بما ظلموا ، أي لا تسكن من بعدهم إما لهلاك الكل والد وما ولد وإما لتمزقهم في البلاد كلّ ممزق فتبقى الأطلال والديار خاوية واليوم وقد مر على نزول القرآن أربعة عشر قرناً وديار الظالمين خاوية ، وهذه معجزة من معجزات القرآن وصدق الله العظيم فهي إلى الآن وإلى ما شاء الله لا تسكن ولا تعمر ، وإنما يقصدها الناس للنظر والاعتبار، وقد تقع العمارة قريباً منها وتبقى هى خاوية خالية ، قال تعالى :

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

أي ويرجع الأمر إلينا وكنا نحن لا غيرُنا وارثيها ، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ .

جاء النفي هنا للجملة الاسمية وهي أبلغ من الجملة الفعلية ، أي ما كان من شأن الله

العادل الرحيم إهلاك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آيات الله، والأم هي القرية الكبيرة التي يقيم فيها السلطان وتكون سائر القرى تابعة لها ومنضوية تحت لوائها، وتكون آهلة بالسكان ذات شأن، وفي هذا التعبير روعة وحلاوة وإيجاز وقال: في أمها ولم يقل إلى أمها، لأن الرسول الذي يبعثه إليهم يكون منهم يعرفون نسبه وخصاله وذلك أدعى إلى تصديقه والإيمان به، ومن لم يؤمن به قامت عليه الحجة وانقطع عذره، ثم قال تعالى:

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾.

أي يقرأ عليهم الكتاب أو الصحف، ويبلغ إليهم ما أنزل إليه من ربه من الآيات التي لا لبس فيها فهي آيات بينات تفرق بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال، فهي تعرف ولا تنكر ومن أنكرها كان ظالما مستحقاً للهلاك والعذاب، قال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

هكذا بطريقة الحصر حتى نفهم أنه ما من قرية أهلكها الله إلا وأهلها ظالمون بالشرك وبأنواع المعاصي والمظالم، والله تعالى عدل بر رحيم لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون وفي الآية تبشير بالأمن من الهلاك للمؤمنين فهم بإيمانهم آمنون، وفيها إنذار للظالمين في كل زمان ومكان، وأن سنة الله لن تتبدل ولن تتغير وفيها تخويف لقريش إن هي استمرت على شركها وتكذيبه بآيات الله فإن عاقبتها تكون عاقبة الظالمين المكذبين، وفيها بيان لعدل الله وتنزيه له عن الظلم فقد حرم الظلم على نفسه ثم قال تعالى:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ
إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى
ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يخاطب الله الناس جميعا ويتوجه الخطاب على الأخص إلى الذين لا يعقلون منهم ولا يفقهون ويضرب الله لهم الأمثلة لعلهم يذّكرون فيهتدون بقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الآية : ٦٥] .

يخاطب الله تعالى بهذه الآية الكريمة الذين يقولون : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، هذا بعد أن رد عليهم بتذكيرهم بنعمتي الأمن والرزق اللتين يتقلبون فيهما ، ثم يرد عليهم بهذه الآية التي يبين لهم فيها حقارة متاع الحياة الدنيا وزينتها وسرعة فنائها ، وإنها لا تكون شيئاً بالنسبة إلى ما أعد الله للمؤمنين فهو خير وأبقى لو نظروا بأعين عقولهم .

وما أوتيتم من شيء : من مال ورغد في العيش ، وأمن ورئاسة وعز ، فكل ذلك متاع هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية المنغصة بالموت ، المكدرة بأنواع المصائب والآفات ، وما عند الله من النعيم المقيم الدائم خير وأبقى أفلا تعقلون ، فكيف تؤثرون قليلاً فانيا على كثير باق ، كان جديراً بكم حين جاءكم الهدى أن تتبعوه ولا تبالوا بعد ذلك بزوال الدنيا لأن الدنيا حقيرة زائلة ،ولن يكون اتباع الهدى سبباً في هلاكها بل الهلاك حظ العتاة الظالمين الذين يبطرهم النعيم وتغرهم الحياة الدنيا أولئك الذين يعرّضون إقبالها للإدبار بسبب ذنوبهم وطغيانهم واتباعهم للشهوات ، ثم ضرب الله لهم مثلاً للفريقين : أهل الهدى الذين يرجون ما عند الله وأهل الدنيا الذين جعلوها حظهم وخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، فقال تعالى :

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الآية : ٦١] .

جاء هذا المثل من رب العالمين على صيغة الاستفهام الذي يراد به نفس المساواة بين الفريقين، وألقى على صيغة الاستفهام ليقرر المستمعون الحكم وحدهم، وهذا أبلغ من تقرير الحكم على صيغة الإخبار وهذه الروعة يدركها أهل البلاغة ، قال تعالى :

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ .

أي أفمن اتبع الهدى وأراد ما عند الله ووعده الله وعداً حسناً من السعادة بالثواب المقيم ورضوان الله، فهو راجيه ثم لاقيه لأن وعد الله حق، والله لا يخلف الميعاد وهو الغني الكريم الحي الذي لا يموت، ولا يزول ملكه، وقد يعد الملوك وعوداً ثم يفتقرون أو يموتون أو يزول ملكهم أو يخلفون وعودهم أما وعد الله فمفعول لا محالة أفمن اتبع هدى الله ورجا ما عند الله خير أم من رفض الهدى وآثر الحياة الدنيا فهو يوم القيامة من المحضرين، إلى العذاب المقيم ولن يفلتوا ولن يغيبوا فما يغني عنهم متاع دنياهم حين يُحضرون إلى عذاب الله، أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا واستعملت كلمة الإحضار في القرآن غير مرة من غير ذكر معمولها لأنه معلوم، لأن المحضرين على الرغم منهم هم الأشقياء أما السعداء - وجعلنا الله منهم - فيذهبون طائعين إلى مصيرهم المحبوب، وتوحي كلمة الإحضار بكل معاني العنف والإذلال والقساوة والقهر هذا من إيجاز القرآن ودقة تعبيره .

وبهذه الآية تمت الأجوبة الثلاثة الرائعة لهؤلاء الذين يسوون فتنة الدنيا بعذاب الله في الآخرة ويقولون : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ وقد رأينا كيف كانت

الأجوبة محكمة وواضحة وبليغة وكيف دحضت شبهتهم أمامها ولم تك شيئاً ، ثم بعد هذا يعرض علينا بعض مشاهد المشركين يوم القيامة فيقول :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾[الآية: ٦٢-٦٤].

أذكروا ذلك اليوم العظيم يوم الحشر والجمع، حين يوقف الأولون والآخرون، وهم مجموعون لذلك اليوم المشهود فينادي الله ا لكفرة المشركون أين شركائي الذين كنتم تزعمون ، ولم يذكر معمول تزعمون للإيذان بالعموم فهم يزعمون أنهم شركاء لله وأنهم شفعاء وأنهم يقربونهم إلى الله زلفى وأن لهم بعض التصرف في الكون ومزاعم أخرى، فحذف المعمول ليؤذن ذلك بالعموم وليذهب الفكر مذاهب، قال الذين حق عليهم القول من هؤلاء الذين عبدوا من دون الله من الإنس والجن، الذين رضوا أن يعبدوا من دون الله أو دعوا الناس إلى عبادتهم، وجاء التعبير بالذين حق عليهم القول ليخرج الذين عُبدوا من دون الله من الملائكة والمسيح وعزير والذين لم يرضوا أن يشرك بالله بهم أو بغيرهم، فهؤلاء لم يحق عليهم القول، والقول هنا المراد به قول الله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[السجدة: ١٣]، فالألف واللام هنا للعهد ، كان جواب هؤلاء الشركاء الذين حق عليهم أن قالوا :

﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾.

قالوا ربنا هؤلاء الذين أغوينا أي أضللنا أغويناهم بدعوتنا إياهم لعبادتنا كما غوينا

أي كما ضللنا وكفرنا أي كانت غوايتنا وغوايتهم واحدة، وما أكرهناهم على الكفر ولكن صادف هوى في نفوسهم فضلوا وارتكبوا الجرائم والموبقات وأضلتنا شياطيننا فأضللناهم كما ضللنا، وهكذا يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضا ولا يغني عنهم ذلك شيئا .

ومأواهم النار وما لهم من ناصرين ويحكي الله حوارهم في كتابه للعظة والاعتبار والحق ما كانوا يعبدون إلا الهوى ولقد علموا أنهم لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً غير أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون :

﴿ وَقِيلَ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ لَوَ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

وقيل ادعوا شركاءكم هؤلاء الذين اتخذتموهم أنداداً لله وزعمتم أنهم لكم شفعاء وأولياء، وبنى فعل الأمر للمفعول لأن الفاعل معلوم ولأن الغرض يتعلق بالقول لا بالقائل والمقصود بالأمر التبكيت لا التكليف فدعوهم كما كان يدعونهم في الدنيا فلم يستجيبوا لهم وخاب ظنهم وخابت مساعيهم وخسروا، لم يسعفوهم بما كانوا يعبدونهم من أجله وأنى يستجيبون لهم، وكانوا عن عبادتهم غافلين ، كانوا يدعون أعواداً وأحجاراً ونصباً وقبوراً وقباباً، كانوا يدعون أمواتاً غير أحياء وما يشعرون بدعائهم، فأنى يستجيبون لهم اليوم وما أضعفهم عن ذلك ! .

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[الحج :٧٣]، ورأوا العذاب ماثلا وظنوا أنهم ملاقوه، ولم يجدوا عنه مصرفا ولا ملجأ وليس بينهم وبينه إلا لحظات وتمنوا من قرار قلوبهم لو أنهم كانوا يهتدون ، لو أنهم اتبعوا الهدى الذي رفضوه في الدنيا ولم يرتضوه ومناهم

هذا لا ينفعهم ولا يغني عنهم شيئا بل هو حسرات وحسرات وتلك عاقبة أهل الكفر والضلال وفي موقفهم هذا عبرة للمعتبرين وهل يعتبر الذين يعكفون على الأضرحة ويذبحون لها ويقسمون بأصحابها ويزورون القباب وأهل القباب يطلبون عندهم الحاجات ومغفرة الذنوب ومن يغفر الذنوب إلا الله، إنها أنواع من الشرك أبتلي بها أهل التوحيد وأضلتهم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا سفها بغير علم ويوم القيامة يضلون عنهم :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[الآية :٦٥-٦٦] .

واذكر يوم يناديهم ربهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين، يسألهم ربهم هذا السؤال وهو أعلم بهم وبجوابهم، ولكنه سؤال توبيخ وتبكيت وإقامة للحجة عليهم : كيف أجبتم رسلي الذين جاءوكم وبلغوكم ما أرسلتهم به إليكم، ماذا كان جوابكم لهم ؟! لا جواب ولا حوار ولا عذر قال تعالى :

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

لم يستطيعوا أن يجيبوا على هذا السؤال، بل عميت عليهم الأنباء فكأن الأخبار نفسها عميت عليهم فهي لا تأتيهم يومئذ وهم لا يهتدون إليها ولفرط يأسهم منها فهم لا يتساءلون أي لا يسأل بعضهم بعضا لعلمهم يومئذ بسقوط حجتهم وتقطع الأسباب بهم، وأي جواب يجيئهم إلا الجواب الذي يُلزمهم الحجة ويحق عليهم به العذاب وهل كان جوابهم للرسل إلا التكذيب والسخرية والاستهزاء والكفر، فهم إذن يجمون ولا يجيبون ولا يتساءلون، ذلك موقف أعداء الله المكذبين لرسل الله الكافرين بآيات الله

وفي التعبير بعميت عليهم الأنباء تصوير بديع لضلال ما كانوا يفترون عنهم وفي هذين النداءين توبيخ وتبكيت لأعداء الله المكذبين وبيان لخيبتهم يوم القيامة وسوء عواقبهم، وكذلك يضل الله الظالمين، فمن أراد الله به خيراً فإنه يعتبر بهذا المشهد المؤثر ويختار ما دام له الاختيار، ويتجنب سبيل المكذبين الكفار ويتبع سبيل المهتدين الأبرار:

﴿فَأَمَّا مَن تابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفلِحِينَ﴾[الآية: ٦٧].

بعد أن بين الله موقف الكفار المكذبين وسخط الله عليهم وانقطاع عذرهم ووجومهم عن الجواب وإبلاسهم في مواقف الذل والخزي يوم القيامة، فتح الله باب التوبة في هذه الدنيا لمن أراد النجاة من سخط الجبار وعذابه، فأما من تاب من كفره وآمن إيمانا صادقاً وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ، هذا كلام الله وعسى من الله إيجاب وتحقيق فهي من أكرم الأكرمين، وعد صادق أن يكون من المفلحين الناجين الفائزين يوم القيامة ، ما أحلى وقع هذه الآية على القلوب التي فيها بقية وعي فهي لا شك تسارع إلى التوبة والإيمان ، وفي الآية أن الإيمان لا يتحقق إلا بالعمل الصالح، فمن ظن أن مجرد النطق بكلمة الإيمان يسعد المرء يوم القيامة فهو عن الصواب بعيد، فلابد بتحقيق الكلام بالفعل ولابد بالاستقامة لتحقق النجاة ونيل الفلاح ومعنى الآية واضح لا لبس فيه، وكم في القرآن من أمثالها والله يهدي من يريد .

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الآية: ٦٨-٧٠].

جاءت كلمة الرب هنا مضافة إلى المخاطب وهو رسول الله -ﷺ- وتشريفا له،

وإشعاراً بالقرب والاصطفائية، وهذه الآيات تقرر أن الأمر والخلق والاختيار والعلم والحمد والحكم كلها بيد الله وحده لا يشركه فيها أحد وأن المرجع إليه وفيها التنزيه لله عما يقول المشركون ،فهي القرارات الحاسمة فيما يليق بجلال الله وكمال قدرته ،وجمال حمده في الدنيا والآخرة ومضاء حكمه وأن جميع خلقه يرجعون إليه يوم البعث والنشور فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ، يخاطب الله نبيه :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ .

والمقصود بالكلام هؤلاء الكفار الذين يقترحون على الله وعلى رسوله ويعترضون على النبوءة والرسالة ويقولون : ﴿ لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾[القصص:٤٨]، ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١]، ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً [الفرقان:٧]، إلى أمثالها من الاقتراحات كَأَنَّ الأمر إليهم ، والأمر لله وحده يخلق ما يشاء ويختار ما يشاء، فكما أنه ليس لهم شركة في الخلق فكذلك ليس لهم شركة في الاختيار، بل الذي يخلق هو الذي يختار لرسالاته من يليق لها : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ ﴾[الأنعام:١٢٤]، فهذا قرار من الله حاسم بإفراده بالخلق والاختيار ثم ينفي الخيرة عنهم وهو أثبت للمعنى وأقطع للشك، فلا مطمع لأحد في قضية الخلق والاختيار :

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ .

ليس لهم أن يختاروا شفعاء يتوسلون بهم إلى الله، وهم أنفسهم يدعون ربهم يبتغون إليه الوسيلة وليس لهم أن يشرعوا تقوصا للعبادات، ولا لهم أن يخصصوا مناسك ينسكون عندها أو يعبدون عندها ويعتقدون فيها القرب والبركة، لا فضل

لمكان على مكان ولا لزمان على زمان إلا ما فضل الله واختار وانبأنا بذلك مثلما شرع لنا مواسم للصوم والحج والأعياد ،وأوقاتا لأداء الصلوات ، وشرع لنا مناسك للحج ومواضع للنسك ، وفضل المساجد الثلاثة ،وأذن لنا أن نبني مساجد لله ورفع من شأنها ونسبها إليه فقال : ﴿ في بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾[النور : ٣٦] .

ولو لم يأذن لم نفعل ، كما أنه ليس لنا أن نتخذ بيوتا للطواف وأمكنة للسعي غير المسجد الحرام ، فالأمر كله إليه وكذلك أمر اختيار الأشخاص واجتبائهم والاصطفاء من الملائكة رسلاً ومن الناس هذا كله لا يشاركه فيه أحد ولا مطمع في ذلك لطامع إلا أن يدعوه أحد أوليائه أن يجعل في ذريته رسلاً كما دعا بذلك خليله إبراهيم عليه السلام فاستجاب الله له ، وهذا مضى زمانه وانقطع أوانه .

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

نزه الله نفسه عما يفعله المشركون من اختيار الشفعاء والأزمنة والمواضع والمناسك للعبادة والدعاء ،تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَّقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنعام : ١٠٠] ، ونفي الخيرة هنا عن الخلق ليس معناه نفي الخيرة عنهم في اكتساب الطاعة والمعصية ، لقد ضل من زعم ذلك بل هم أحرار في ذلك الحرية الكاملة ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف : ٢٩] ، أفعالنا من الله خلق ومنا اكتساب نحن فيه مختارون أحرار ولذلك حق علينا الثواب والعقاب ومن زعم غير ذلك فهو مكابر منكر للحق ضال عن سواء السبيل ، كاذب على الله مكذب لرسل الله .

أما الذي ليس لنا فيه الاختيار من أمورنا فأمر الخلقة كالطول والقصر ، والسواد

والبياض ومقادير الأعمار التي نعيشها، والمصائب التي نبتلى بها فهذا اختيار الله لنا إن رضينا به أثبنا على الرضا والتسليم، وإن لم نرض جرى علينا القدر وعوقبنا.

أما اكتساب الأقوال والأفعال فهو باختيار، عليه يترتب الثواب والعقاب، هذا هو اعتقادنا وهو الحق ونشد عليه بأيدينا ونعض عليه بنواجذنا .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

وربك يا محمد يعلم ما تكن صدورهم من عداوتك وعداوة المؤمنين وما يعلنون من قبيح الأقوال من الشتم والطعن والأذى وسيجازيهم على ذلك الجزاء الذي يستحقونه، ولن يفلتوا من عذاب الله إن لم يتوبوا من شركهم وظلمهم ، وفي هذا تسلية للنبي - ﷺ - والمؤمنين الذين يتلقون أنواع الأذى من الكفار والمنافقين فليصبروا على ذلك وليفوضوا أمرهم إلى الله تعالى .

﴿ وهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

هو الله واجب الوجود ونور الوجود، وخالق كل موجود عالم الغيب والشهادة الله الأحد المعبود الحق لا إله إلا هو لا شريك له لا معبود بحق إلا هو، لا ند له ولا ضد ولا شبيه ولا مثل، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، تقدس ربنا وتنزه عن النظراء والأمثال، وتعالى عما يصف الظالمون، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير :

﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

له الحمد في الدنيا والآخرة، يستحق الحمد المطلق والحمد هو الثناء الجميل بأوصاف الكمال، الفضائل منها والفواضل له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات وما في الأرض، ويسجد له من في السموات ومن في الأرض، وهو المحمود في الأولى والآخرة

تحمده الخلائق في هذه الأولى ويشكره الشاكرون على نعمه الكثيرة التي لا تحصى وتحمده في الآخرة وحينئذ يتمحض الحمد لله الواحد القهار صاحب المحامد ذي الجلال والإكرام واهب الحياة والرزق، المبدئ المعيد هادي الخلق إلى الصراط الحميد هداية دلالة وإرشاد لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ويهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، هداية توفيق وإيصال وهو المحمود على كل حال.

﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ .

ما أخصرها كلمة وما أعظمها وأوسعها، تسع بمدلولها السماوات والأرض وما بينهما وتسع الأولين والآخرين، وتسع الدنيا والآخرة ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾[البقرة:٢٥٥]، يتصرف في كونه بحكمه وهو الفعال لما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، كل من السموات والأرض وكل من في الدنيا والآخرة خاضعون لحكمه.

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى مخاطبا خلقه : إليه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون، فمجازيكم على أعمالكم لا يفلت منكم أحد بل يحشر حتى الوحوش والبهائم لينصف بعضها من بعض ثم يأمر بها فتكون تراباً .

إنا لله وإنا إليه راجعون؛ ثمان كلمات أعظم بها من كلمات، يقرر الله فيها العقيدة الحق التي يعتقدها كل مؤمن بالله واليوم الآخر ،ومن أنكر منها كلمة فهو ناقص الإيمان لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً .

ونحن نؤمن بذلك ونثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه ونقدسه وننزهه عما يصفه

الجاهلون تبارك اسم ربنا وتعالى جده ولا إله غيره إليه المرجع والمئاب ، منه المبدأ وإليه المعاد .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟
بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

يلفتنا ربنا تبارك وتعالى بهذه الآيات إلى آيتين كونيتين عظيمتين تغمرنا فيهما نعم كثيرة، ولذلك عقبها بقوله : ولعلكم تشكرون وهاتان الآيتان الكبريان ظاهرتان لجميع الناس يبصرها من في الشمال ومن في الجنوب، يشاهدهما أهل المشرق وأهل المغرب، ويشترك في ذلك الأولون والآخرون ويدركهما العقلاء والبله من الناس ولكننا

نغفل عنهما لتكررهما دائماً وإلفنا لهما وكثيراً ما يقلل الإلف والعادة من أهمية الشيء المهم ذي القيمة العظمى وما كان ينبغي لذي لب أن تصرفه العادة والإلف عن التدبر في آيات الله المتجددة تجدد الليل والنهار بل يجب علينا أن نتدبر آيات الله في كتاب الكون المفتوح، كما نتدبر آيات الله في كتابه المنزل على رسوله بالآيات البينات وكم أرشدتنا هذه إلى تلك التي طالما غفلنا عنها ومن أحب الله أحب أن يطلع على آياته، ومن آيات الله العظمى في هذا الكون تعاقب الليل والنهار .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[الآية: ٧١].

الاستفهام هنا للتنبيه والفات النظر « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، كيف يكون حالكم لو يطول ليلكم ويستمر ليلاً أبداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، من إله من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، أصُمّت آذانكم عن آيات الله ونُذره فلا تسمعون الحق، وجاء التعبير بالضياء لأنه ثمرة النهار ومنفعته العظمى للحيوان والنبات وحتى الجماد والبحار وما فيها والضياء هو النور والحرارة المنبعثان من شعاع الشمس، وأشعة الشمس على أنواع منها البيضاء والحمراء والبنفسجية وفوق البنفسجية وغير ذلك مما لا يزال العلماء يكتشفون من فوائدها وآثارها وأسرارها العجيبة، وقد توصلوا إلى علاج كثير من الأمراض بالأشعة، كما توصلوا إلى اكتشاف كثير من الأشياء من وراء حجب كثيفة بالأشعة ولا نعلم ما سيطالعنا به الغد فالضياء نعمة عظمى وآية كبرى من آيات الله ومن ذا الذي يأتي به لو حجبه الله عن هذا الكون وأطال ليله سرمداً، أفلا يكفي هذا عبرة وبرهانا على قدرة الله الخالق ووحدانيته ،واختار التعبير القرآني التحريض

على السماع هنا لأن الليل محل السكون ففيه يتأتى السماع أكثر حين يكون الجو ساكنا والحس مرهفا والفكر حاضراً فيتأتي السماع لآيات الله المتلوة التي يكون لها صدى في النفوس الشاعرة، والقلوب الشاهدة فما أنسب التعقيب بالسماع في مثل هذا المقام ! ثم قال تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الآية : ٧٢] .

ومن بديع الأسلوب القرآني أنه يزواج بين الضدين ويقابل بينهما لتظهر العبرة جلية ولذا سماه الله مثاني، وهنا في هذه الآية يلفتنا إلى آية النهار بعد آية الليل :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

قل أرأيتم أي تصوروا لو مد الله هذا النهار وجعله سرمداً دائماً إلى قيام الساعة من إله من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، من منها يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴿ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ أعميت أبصاركم فهي لا تبصر آيات الله ! أفلا تبصرون إبصار تأمل واعتبار إبصاراً يهديكم إلى الإيمان بالله الواحد القهار، وهنا يأتي بلفظ الليل ولم يقل بظلام مقابل الضياء في النهار، لأن الظلام تنفر منه النفوس وهذا من بلاغة القرآن .

ثم وصف الليل بسكون الناس فيه وهو ثمرة الليل وفائدته العظمى، لأن السكون فيه راحة الناس من تعب النهار، بل حتى البهائم والأنعام التي ينتفع بها الناس تسكن في الليل سكونا يجدد راحتها وقوتها التي كانت أضعفها النهار بالسعي والكد والعمل، فالأبدان تفقد الطاقة بكدّ النهار وتعبه ولا يعوض هذه الطاقة المفقودة طعام ولا

شراب ولا دواء بل لا يعوضها إلا سكون الليل، ومن بلاغة القرآن أنه أردف كلمة الليل بوصف السكون، لأنه ربما غفل الناس عن هذا المعنى العظيم في الليل فلو لم يكن ليل لاضطرب الناس في سكون النهار فهم لا يتفقون على وقت السكون فتضطرب أحوالهم وبيعهم وشراؤهم فغشيهم من الله ظلام الليل حتى يسكنوا جميعا ولا يجدون راحة النوم التامة إلا في هذا الظلام الشامل فهو الذي يجمعهم في بيوتهم ويهدئ أعصابهم ويجدون فيه السبات ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾[النبأ: ٩]، وفي الليل منافع أخرى غير ما ذكر واكتفى هنا بذكر السكون ،والعاقل يدرك ما هنالك من نعم وفوائد ويشكر الله تعالى عليها، ثم قال تعالى :

﴿ أَفَلاَ تُبصِرُونَ ﴾ .

أي أعميت أبصاركم أيها الغافلون أفلا تبصرون بها بصر اعتبار واختار كلمة الإبصار لأن النهار محل الإبصار، وإن كان المقصود بالإبصار إبصار الهدى ببصائر القلوب ثم قال تعالى : .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الآية: ٧٣].

إنها رحمة شاملة عظيمة من الله لمخلوقاته أن جعل لهم الليل والنهار يتعاقبان ويتداخلان زيادة ونقصا بحساب مقدر معلوم وفي ذلك ما فيه من حكم وأسرار ومنافع، وهنا في هذه الآية قال : جعل لكم باللام النفعية ولم يقل عليكم لأن اختلاف الليل والنهار من رحمة الله بنا وقد تكلم علماء الطبيعة فيما في تعاقبهما واختلافهما من عظيم المنافع للعباد، لما في ذلك الاختلاف من التأثير في الأجواء مما يعود نفعه على

الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك مما خلقه الله من الأشياء التي لها تأثر وتفاعل بظلام الليل ورطوبته، وضياء النهار وحرارته وذكر هنا أبرز المنافع للإنسان قال :

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾ .

وجاء التعبير على طريق اللف والنشر المرتبين، وهي طريقة البلغاء أصحاب البيان، أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار ولتزدادوا محبة لربكم الذي أنعم عليكم بهاتين النعمتين العظيمتين فتشكروه وتوحدوه بالعبادة والذكر، وتخصصوا من أوقات الليل والنهار أوقاتاً للصلوات والذكر وتلاوة آيات ربكم وفي تجدد الأوقات ما يدعو إلى الذكر والصلاة، وفيها ما يزيل السأم عن النفوس فتنشط لطلب الرزق وذلك من فضل الله علينا وينبغي ألا ينسى طالب المعاش أنه يبتغي من فضل الله،وهذا إلفات عجيب لطالبي الرزق حتى لا تستولي على قلوبهم الغفلات فيعرضوا عن ذكر الله وشكر نعمه ومن ينظر إلى طلب الرزق بهذه النظرة فهو في عبادة ونظرته هذه تهديه إلى شكر المنعم فلا يزال في عبادة ولا يزال عليه من الله ظهير وحافظ والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، وطالب الرزق إذا كان يطلب من فضل الله ليعف نفسه ويستعين على طاعة الله فهو في أمر من أمور الآخرة ينال عليه أجراً وليس هو من الدنيا في شيء كل هذا توحي به الآية الكريمة

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

ولا تنس أيضاً أن نشكر الله على نعمة السكون في الليل فهي لا تقل عن نعمة طلب الرزق في النهار إن لم تكن تفوقها، وهكذا يذكرنا الله تعالى بنعمه العظيمة التي نحن غارقون فيها، وكثيراً ما نغفل عن شكرها نسأل الله أن يجعلنا من عباده الشاكرين، ونعوذ بعظمته أن نكون من الغافلين .

﴿ ويَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[الآية:٧٥].

سنة الله تبارك وتعالى في القرآن المزاوجة بين الأساليب والمواضيع والمقصد منها جميعا واحد، وهو التذكير والموعظة، ففي أثناء الحديث عن مشاهد الكفار المخزية يوم القيامة يجيء الاستفهام في حكمة تعاقب الليل والنهار، وإلفات البصائر إلى حكمة الله وقدرته في تقليب الليل والنهار، وأنه لا أحد يملك من ذلك شيئاً إلا الله، ثم يرجع بنا إلى نداء الله تعالى لهؤلاء المشركين يوم القيامة فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون وقد تقدم مثل هذا النداء قريباً، ولكن الجواب عن هذا النداء يختلف عن الجواب عن ذلك والحكمة في ذلك الاختلاف ولكل وقعه في النفوس وتأثيره على القلوب، فهنالك يأتي الجواب من عندهم يحمل الإعتراف بأنهم كانوا غاوين وبراءتهم مما كانوا يعبدون، وبراءة المعبودين ممن كانوا يعبدونهم، وهنا يأتي جواب النداء إقامة الشهداء من قبل الله وقطع أعذار المشهود عليهم وعلمهم بعد جهلهم .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

نداء تبكيت وتوبيخ وإحراج، يناديهم الله ويقول لهم أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دوني وتزعمون أنهم لكم شفعاء، أدعوهم اليوم ليشفعوا لكم، هذا بعد أن تقدم لنا اعترافهم أنهم كانوا غاوين وبعد تبرء الشركاء من عبادتهم، حينئذ ينزع الله الشهداء من كل أمة ليشهدوا عليهم بالحق، قال الله تعالى :

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ .

هكذا يعبر الله بنون العظمة ليشعرنا بعظمة ملكه وتمحضه لله الواحد القهار ملك

يوم الدين، ينزع الله من كل أمة شهيداً وهم الأنبياء والرسل والعلماء، يقول الله تعالى في خواتيم «الزمر» ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيئِينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾[الزمر: ٦٩]، وعطف الشهداء على النبيين يدل على أن الشهداء منهم أنبياء وغير أنبياء، والعلماء ورثة الأنبياء لأنهم هم المبلغون بعد هم يقيم الله بهم الحجة على الناس ويوم القيامة ينزع الله منهم شهداء على الناس فيشهدون عليهم بالحق، ثم قال تعالى :

﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ .

يطالبهم الله بإتيان البرهان على صواب ما كانوا عليه من الشرك وأنى لهم ذلك بعد تبين عجزهم وإفلاسهم فلا يسعهم إلا الوجوم والاعتراف بالعجز والغواية والأمر هنا أمر تحدّ وتعجيز وتوبيخ، ثم قال تعالى :

﴿ فَعَلِمُوٓا أَنَّ الْحَقَّ لِلهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

حينئذ يتمحض الحق ويعلمون علم اليقين أن الحق لله ويعترفون يوم لا ينفعهم الاعتراف وتضل عنهم آلهتهم التي كانوا يدعونها من دون الله ويضل عنهم إفكهم وافتراؤهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون وانتهى ولم يبق إلا انتظار العذاب وهم مواقعوه، هكذا يريد الله أن يعرض علينا قضاءه العادل وحكمه الصواب، فلا يأخذهم إلا بعد حضور الأشهاد وقيام الحجة واعترافهم، ولا أحد أحب إليه العذر من الله وفي عرض هذه الحكمة الإلهية موعظة وإنذار لينتفع بذلك من أراد الله هدايته من الناس .

۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتِيكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ٧٧
قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ
فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ
مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا
إِلَّا الصَّابِرُونَ ٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن
فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ٨١
وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ
اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ٨٢

بدأ الله تعالى هذه السورة بذكر طغيان الملك، ذكر فرعون الذي طغى بالملك و كذب

المرسلين، وعصى الله ورسوله، وبين لنا الله كيف كانت عاقبته ونوع الهلاك الذي أهلكه الله به،واستحقاقه عذاب الآخرة ولم يغن عنه سلطانه شيئاً وكانت العاقبة الحسنى للمتقين موسى وهارون ومن اتبع الهدى الذي معهما، ثم عرض الله علينا مشاهد أهل الشرك يوم القيامة، وكيف كانت مواقف ذل وصغار وخزي وعذاب ولم تغن عنهم آلهتهم التي كانوا يدعونها شيئاً وكيف أنهم دعوا فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون، وفي أثناء هذا العرض وذاك تتخلل السورة مواعظ وحكم وضرب أمثال ثم هو يختم سياق السورة الكريمة بعرض صورة من طغيان المال وأصحاب الأموال، وهو لا يقل عن طغيان الملوك وبغيهم، هؤلاء يبغون على الرعايا بالسلطان والقهر، وأصحاب الغنى يبغون على الناس بأموالهم وكنوزهم، وكلهم يحسبون أن سلطانهم وأموالهم يخلدونهم، ولا شيء من ذلك يبقى، كل شيء من الدنيا يفنى ويذهب ولا يبقى إلا الله الذي يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وهو الذي يجازي عباده ويحاسبهم يوم القيامة وهو خير الحاسبين، قال تعالى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾[الآية:٧٦].

يقول الله تعالى إن قارون كان من قوم موسى، أي من بني إسرائيل فبغى على قومه وبني عمومته ولا تجد جباراً من الجبابرة يستعبد شعبا من الشعوب إلا وتجد من بينهم أشخاصا يكونون عونا للجبار على أقوامهم، وهؤلاء يرضى عليهم الجبارون ويخلعون عليهم خلع الكرامة والغنى، وتيسر لهم جميع السبل للتحصيل على أغراضهم الدنيئة، ولا يكون هؤلاء إلا ألأم الناس وأخسهم وأجرأهم على الظلم والبغي وأنواع الشرور، فهم قد باعوا ذممهم ومروءاتهم، وكانوا عونا للظالمين على قومهم المساكين المظلومين، ويقال إن قارون هذا كان من أبناء عمومة موسى وأقاربه ولكنه كان يحمل

الحقد والعداوة له وطغى بكنوزه فبغى على قومه وتكبر عليهم ، قال تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ ﴾ .

قال الله تعالى : وآتينه أي إيتاء إبتلاء وامتحان، لا إيتاء تكريم وإنعام، من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه، أي مفاتيحه لتنوء أي تثقل بالجماعة الأقوياء قيل العصبة من الثلاثة إلى العشرة، وقيل إلى الأربعين، وكانت مفاتيح كنوز قارون يثقل حملها الجماعة أولي القوة وهذا يدل على كثرة هذه الكنوز كثرة عجيبة وهذا الذي أطغاه : ﴿ إِنَّ الانْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[العلق :٦-٧] ، والمفاتيح هنا المراد بها المفاتيح ولا معنى لمن يقول هي الخزائن لأن الخزائن ليس من شأنها أن تحمل عند التنقل هنا وهناك إنما تحمل المفاتيح وهي التي إذا ناءت بالأقوياء تدل على الغنى المفرط الذي ابتلي به قارون :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ في الآرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[الآية :٧٧] .

مواعظ بليغة ألقاها إليه أهل العلم من قومه فيه أمران ونهيان ونهي ثالث يتضمن الأمر وفيها وصفان لله بالنفي ووصف له بالإثبات والعبارة في غاية البلاغة والإحكام والوضوح وفيها لو تدبرها ما يلهمه الرشد ويقيه أسباب الردى، وفيها وعظ له ولأمثاله من الأغنياء ما دامت الدنيا :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ ﴾ .

أذكروا إذ قال له قومه : لا تفرح فرح أشر وبطر وطغيان ، ذلك هو الفرح الممقوت

الذي لا يحبه الله ولا يحب أصحابه وجاء التعبير بالصفة المشبهة لأنها صفة ملازمة لهم قد ملأتهم بطراً وكبراً وطغياناً، وأنساهم هذا الفرح ربهم الذي أنعم عليهم فلم يشكروه، ولم يذكروه ولم يطيعوا رسله، أما الفرح الذي هو سرور القلب في المؤمنين عندما تأتيهم نعمة من النعم فيفرحون مغتبطين ويحمدون الله ويشكرونه فهو غير مكروه ولا يدخل في هذا النهي : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَالِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس :٥٨] ، وفرق بين فرح المؤمنين وفرح الكفار المتكبرين ، فإن المؤمنين يفرحون بفضل ربهم ليشكروه ويزدادوا له حباً والمتكبرون الطغاة يفرحون فرح بطر وطغيان، ونسيان للمنعم فيزدادون بذلك كفرانا ومقتا .

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ .

لا يهديهم ولا يرحمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ومن كان في مقت الله وغضبه فقد أخطأه التوفيق وساءت عواقبه والعياذ بالله .

﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الآرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

ثم قالوا له وابتغ فيما آتاك الله من النعم والأموال، ابتغ الدار الآخرة أطلب منازل الأبرار في الدار الآخرة بالصدقة على المساكين، وإغاثة المكروبين، وإنقاذ الغرقى، وتنجية الهلكى وإدخال السرور على قلوب المحتاجين، فإن ذلك هو زادك إلى الآخرة والآخرة خير وأبقى، ومع ذلك لا تنس نصيبك من الدنيا فخذ منها متاعك بالمعروف فخذ من زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق، فهي وصية حكيمة تجمع بين الدنيا والآخرة من أخذ بها جمع بين طيبات الدنيا ونعيم الآخرة بعد أن يكون من المحسنين فيما آتاه الله .

وذكروه أن هذا المال ليس من صنعه ولا من حيلته، وإنما هو مما آتاه الله، فالمال لله في يده وهبه إياه واستخلفه فيه لينظر كيف يصنع فيه ثم قال له :

﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ .

أحسن بالإيمان والعمل الصالح والشكر لله الذي أحسن إليك بتوفيره لك أنواع النعم، فكافئ إحسانه بإحسان من عندك حتى تكون أديت بعض الشكر ،فتستحق بذلك ثواب الشاكرين والله يحب المحسنين :

﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

قال له قومه : ولا تبغ الفساد في الأرض بالظلم والبغي وقطيعة الرحم واحتقار الضعفاء فإنه يصير بذلك في حكم الله مفسداً في الأرض ولو كان يزرعها ويستخرج كنوزها لأن ذلك مع البغي وظلم الناس وكفران المنعم لا ينفع فهو محض الفساد، والله ما خلق الإنس ليتمتعوا في الأرض، إنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، فكل انحراف عن هذا المقصد الأسمى فساد في الأرض، والأرض إنما يصلحها القيام بحق العبادة للخالق المنعم، والقيام بالعدل في عباد الله واجتناب البغي والعدوان، فصلاح الأرض برها وبحرها وثمارها بالإيمان والتقوى والعمل الصالح وفساد برها وبحرها بما يرتكب الناس من الظلم والمعاصي :

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

لا يهديهم ولا يصلح بالهم ولا يرحمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، كل هذه المعاني وأمثالها يوحي بها قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فأي خير يرجوه من أخطأته محبة الله، إن المقت والسخط والعذاب هي مآله

ومأواه وجهنم مثواه وبئس مثوى الظالمين، وهذا تذكير وتحذير للناس جميعا، ويا ليت الأغنياء والملوك والرؤساء يستمعون لهذه المواعظ الربانية، ويتبعون هذه النصائح القرآنية، نسأل الله الهداية والتوفيق ونسأله العصمة من أسباب الردى ، ثم بعد هذه النصائح ماذا كان جواب قارون لقومه؟ لقد كان جوابه الطغيان والإعراض والأشر والنسيان، فلنستمع إلى جوابه كما يحكيه القرآن :

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ .

أجابهم بجواب الكافرين في لهجة المغتريين المتكبرين، قال إنما أوتيت هذا المال بعلمي وسداد رأيي وخبرتي بأسباب الكسب والغنى، وأنكر إنعام ربه وإحسانه، وهذا غاية ما يصل إليه أهل الكفر والطغيان والأشر والبطر الذين لا يحتملون الغنى : ﴿إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾[العاديات:٦-٧] ، وظن أن ماله أخلده، وحسب أن لن ينزع منه، وأمن مكر الله وعقابه الذي نزل بأمثاله من المتكبرين، فرد الله عليه بقوله :

﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[الآية:٧٨] .

أجهل هذا الطاغي أم نسي وغفل ولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من الأمم فضلا عن الأفراد من هو أشدُّ قوة منه وأكثر جمعا لحطام الدنيا ولم يغن عنهم جمعهم ولا قوتهم ولا علمهم لما نزل بهم بأس الله، بل كانوا من المهلكين الخاسرين وقد كان قارون من أعلم الناس ولكن الله أعمى بصيرته بطغيانه وأشره فلم يغن عنه علمه، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ونسأله إيماناً دائماً، وعلماً نافعاً وسلامة من عواقب السوء ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ثم قال تعالى :

﴿وَلاَ يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

لا يسألهم الله عن ذنوبهم لأنه أعلم بهم وبأفعالهم وبما يستحقون من العقوبة، ولا ينافي هذا ما جاء في مواطن من القرآن، إنهم سيُسألون يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُم إِنَّهُمْ مَّسْؤُولُونَ﴾[الصافات: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف: ٦]، وأمثالها من الآيات التي فيها سؤال المشركين والمجرمين، فذلك يوم القيامة سؤال توبيخ وتبكيت وإقامة للحجة، وهذا الذي ورد في هذه الآية نفى سؤالهم عن ذنوبهم لأن الله عالم بها وقد جعل لهم أجلاً لا ريب فيه فإذا جاء أجلهم فلا يسألون بل يأتيهم عذاب الله الذي استحقوه بذنوبهم من غير سؤال فلا تعارض بين المواطن التي نفى فيها السؤال وبين التي سيوقفون فيها للسؤال يوم القيامة.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الذينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾[الآية: ٧٩-٨٠].

في يوم من الأيام وربما يكون عيداً من أعيادهم خرج قارون في زينته روي أنه خرج معه أتباعه في موكب حافل ركبانا متحلين بالذهب والحرير، قيل وأخرج معه ثلثمائة غلام، وثلثمائة جارية، وزينهم بالذهب والحرير وكان موكب حافل وذلك ليظهر غناه وعظمته في كبرياء وخيلاء وما يدري المغرور أنه ما هو إلا متاع الحياة الدنيا وسيزول قريبا ويبقى عليه حسابه، ولما رأى الناس هذا الموكب الحافل الخارج، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم، تمنوا مثل ماله وزينته وقالوا في لهفة واغتباط إن حظ قارون لعظيم، كما يقول كثير من الناس عندما يرون

مظاهر الزينة والغنى على بعض الناس يظنونهم محظوظين، وأي حظ في متاع الدنيا الزائلة الفانية ولكن أكثر الناس لا يعقلون ولو عقلوا ما تمنوا مثل ما أوتي قارون ولا سموه حظاً عظيماً، وأي حظ لرجل يكفر نعمة الله ولا يشكر للمنعم، ويبغي على الناس ويفرح بالدنيا فرح أشر وبطر وطغيان وغفلة :

﴿وَقَالَ الذينَ أوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ .

عندها قال الذي آتاهم الله العلم والحكمة لهؤلاء الجاهلين : ويلكم ماذا تتمنون من أمر رجل هالك مفتون، إن ثواب الله للشاكرين خير وأبقى لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ولا يلقى هذه الخصال إلا الصابرون، وفي هذا إشعار أن خصال الإيمان والعمل الصالح لا تتهيأ إلا للصابرين، والصبر نصف الإيمان والإيمان في الجنة ، فطوبى للصابرين، ماذا يلقون من الثواب الجزيل وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ثم بعد هذا يُبّين الله تعالى كيف كان عاقبة قارون الذي طغى وبغى بماله ، قال تعالى :

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الذينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[الآية : ٨١-٨٢] .

إن الله تبارك وتعالى يضرب أجلاً معدود لهلاك من أراد إهلاكه من الأمم والأفراد، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وحينئذ لا يغني عنهم ما كانوا يمتعون ، ولا يغني عنهم جمعهم شيئاً وما كانوا يستكبرون ويومئذ لا ينفعهم إيمانهم

ولا يسمع دعاؤهم كذلك جاء قارون أمر الله وحل عليه أجله المحتوم فلا مهرب ولا مناص ولا إيمان ينفع ولا اعتذار يسمع، ونعوذ بالله من مصير الظالمين ، جاء التعبير هنا بنون العظمة كما هو معتاد في مثل هذه الآجال، قال الله تعالى :

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ .

الأرض لله والسماوات لله وهن مطيعات لله ممتثلات لأمره، فما هو إلا أن صدر أمر الجبار للأرض فانصاعت وانهارت تحت أملاك قارون ودياره وخزائنه فخسفت به وابتلعته، فرجعت بعد الخسف كما كانت فكأن لم يكن قارون ولا دياره ولا أمواله، ولم يغن عنه شيء من ذلك شيئاً بل ذهب إلى سخط الله ليلقي جزاءه وبقيت أخباره تحكى لتكون عبرة للمعتبرين، وذكرى للذاكرين، وتخويفا للمتجبرين الباغين المتكبرين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ذهب قارون الذي كان يمشي على ظهر الأرض مرحاً وتيها وخيلاء، نزل من ظهرها إلى بطنها ذليلاً صاغراً ليلقي جزاءه في بطنها مذموماً داحراً، تلك عاقبة المتكبرين وذلك مآلهم ومثواهم، وبئس مثوى المتكبرين .

ذهبت الجلبة والأصوات من دار قارون ليبقى هناك سكون المقابر وخرابها وذهبت الخزائن والكنوز، أين ذهبت؟ خسفت بها الأرض مع صاحبها ولكنها لا تغني عنه هناك، ولئن بعثت معه يوم القيامة فليكوى بها ويطوّق بها عنقه، ويعذب بها أنواع العذاب بما طغى وبغى وكفر بأنعم الله، فيا أيها الجبارون الطاغون بأموالهم وأنصارهم أقصروا وبأمثال هذه المصارع اعتبروا ، ثم قال تعالى :

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ .

فلما جاء عذاب الله بقي قارون فريداً ضعيفاً ذليلاً، وما كان له من جماعة يفئ إليها

وتؤويه وتنصره من دون الله، ومن ذا الذي يقوى على رد أمر الله إذا نزل وما كان قارون من المنتصرين، بل كان من المنهزمين المخذولين المدحورين، وتلك عاقبة المتكبرين .

﴿وَأَصْبَحَ الذِينَ تَمَنَّواْ مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسِفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ .

قال الله تعالى وأصبح الذين كانوا يتمنون مثل ما لقارون يحمدون الله على نجاتهم ويتعجبون من أمر الله ويقولون ويك أي عجبا ! إن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي يوسع رزق من يشاء من عباده ويضيق على من يشاء ويك أي عجبا إنه لا يفلح الكافرون ولم يكن قارون كافراً بنبوءة موسى كفر شرك بل كان عالماً بالتوراة ، ولكنه كان كافراً كفر نعمة وكان حسد موسى على ما آتاه الله وحسد هارون على النبوءة وعلى رقابة المعبد والمذبح ونيابة موسى في بعض الشئون ، قال الذين تمنوا مكانه بالامس : .

﴿لَوْلاَ أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسِفَ بِنَا﴾ .

لولا أن من الله علينا فلم يستجب دعاءنا حين تمنينا مثل ما لقارون لخسف بنا كما خسف به، وقد يمن الله على عبده في بعض الأحيان بأن لا يعطيه ما يطلبه رحمة به لأن الله يعلم أن هلاكه في ذلك فينجيه عنه لطفا به ومنّا عليه، ومن هنا نأخذ العبرة في كثير من الأشياء التي نرغب فيها وندعو الله أن يعطينا إياها ولكن الله يزويها عنا منّا منه علينا، فلنثق بربنا ولنرض بقضائه، ولنعلم أن ما اختاره الله لنا خير لنا مما نختاره لأنفسنا، وكثير من الأشياء المحبوبة التي نتمناها في الدنيا يطويها الله عنا ليعوضنا في الآخرة ما هو خير وأبقى لنا، ويبسطها لأعدائه الذين لا خلاق لهم في الآخرة فأيَ

موعظة عظيمة لنا في مطاوي هذه العبارات وما يلقاها إلا الصابرون، وليغسل الله نفوس أوليائه ويطهر قلوبهم من حب الدنيا وزينتها يعقب الله تبارك وتعالى بعد هذه القصة بآيات يختم الله بها السورة فيقول :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا
فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَآءَ
بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٤)
إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن
جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ
إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ (٨٦)
وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يختم الله تبارك وتعالى هذه السورة بهذه الفذلكة العجيبة التي تجئ فيها خلاصة ما سبق من الحكم والأحكام والإشارة فيها إلى الدار الآخرة بإشارة البعيد لعلو مقامها

ومباينتها لديار الدنيا الفانية ونعيمها الزائل، وأي نسبة بين جيد دائم وردئي فإن الله تبارك وتعالى يقرر في أسلوب بديع قيم الأشياء حتى لا نخطئ في التقدير، يقول الله تبارك وتعالى ويقرر بنون العظمة :

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلَواً فِي الأَرْضِ ولاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الآية: ٨٣] .

تلك الدار الآخرة ، الإشارة إلى الجنة ونعيمها وقصورها ويعرض الله عن ذكر دار الأشقياء في هذا المقام لحقارتها، فبئست هي من دار وأهلها في هوان لا يموتون ولا يحيون وهي الدار الآخرة لأنها دار الخلود وليس بعدها دار، يقول الله تعالى : نجعلها أي نكتبها وقد خلقها وأعدها لعباده المتقين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

وفي هذا القول تعريض بأولئك المتكبرين الذين يريدون العلو في الأرض والفساد فيها ويقرن الله الفساد في الأرض بالعلو لأنهما متلازمان في الغالب، وهما صفتا الملوك والأغنياء من أبناء الدنيا ،والسورة يدور الحدث فيها على محورين، الأول علو الملوك وإفسادهم في الأرض وذلك في الكلام على فرعون وجنوده وهلاكهم، الثاني علو الأغنياء بأموالهم وإفسادهم في الأرض وذلك في الكلام على قارون وبغيه وفرحه بأمواله ثم هلاكه، وما أكثر نظراءهما في الدنيا في كل زمان ومكان وأكثر الفساد والظلم يكون من الملوك والأمراء والأغنياء المتعالين على الناس ، هذا بسلطانه وقهره وهذا بأمواله وكنوزه والنكتة في قوله تعالى : ﴿لا يريدون﴾ .

ولم يقل: لا يعلون في الأرض ولا يفسدون، لأن طبع العلو والإفساد مركوز في قلوب هؤلاء الجبابرة والأغنياء المترفين فهم يتعمدونه ويريدونه بنواياهم ويطلبونه

بقلوبهم لا يحلو لهم إلا أن يتكبروا ويتجبروا على الرعايا ويفسدوا في الأرض بما يملي عليهم الترف وحب الملذات والرغبة في جمع المال ولا يبالون بما ظلموا وما أفسدوا في سبيل نيل رغبات نفوسهم الدنيئة، ولا يبالون من أي باب من أبواب الحرام يجمعون المال، وأبواب الربا كثيرة وأنواع الحرام متعددة وأكثر ما ينتشر الفساد في الأرض بسبب هؤلاء الأغنياء الذين يستثمرون أموالهم في فتح دور اللهو والخمر ، والقمار والخنا والكباريهات والأستوديوهات وغير ذلك من محال الفساد التي يكونونها ويغذونها بأموالهم ليتمتعوا بها وليجمعوا بها الأموال الحرام إن فساد الملوك بالقهر والظلم والجبروت وفساد الأغنياء بالإسراف والتبذير والجري وراء الشهوات، يجمعون الأموال من طرق الحرام، وينفقونها في المحرمات وقليل منهم الذين يتحرون الحلال في جمعها. وينفقونها على مستهلكيها في الحق من غير منّ ولا أذى ولا يطغون ولا يبغون ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، أولئك هم المتقون الذين كتب الله لهم العاقبة الحسنى.

وجعل لهم الدار الآخرة وقليل من الملوك المتقون الذين يتقون الله في أنفسهم وفي رعاياهم التي مكنهم الله من السلطة عليها فهم يحكمون بالعدل ويقسمون بالسوية ويتواضعون للناس ويرحمونهم ولا يظلمونهم ولا يبغون ولا يفسدون ، أولئك في ظل عرش الرحمان يوم القيامة لهم العاقبة الحسنى ولهم الدار الآخرة وياليت الملوك والأغنياء يتعظون بهذه الآية ويعتبرون بأخبار الماضين من الأمم ولكن عزة السلطان وفتنة المال تعمي العيون وتصم الآذان فقليل منهم من تنفعه الذكرى، قال الله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[سبأ:١٣]، ثم إن الله تبارك وتعالى يعلن بجزائه العادل وفضله العظيم على المحسنين فيقول :

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الآية: ٨٤].

في هذه الآية الكريمة يُطلعنا ربنا تبارك وتعالى على عدله وفضله ورحمته فيخبرنا أن من جاء يوم القيامة بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يُظلمون والله يعلم مقادير الحسنات والسيئات ويعلم الحسنات التي تضاعف عشر مرات، والتي تضاعف أكثر من ذلك إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والله يضاعف لمن يشاء وهنا يقول: فله خير منها، ليشمل جميع الأنواع من المضاعفات أما السيئات فلا تضاعف:

﴿فَلاَ يُجْزَى الذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وهنا يأتي الإظهار مكان الإضمار، ذلك ليشنع على الذين يعملون السيئات وجاء التعبير في هذه الآية بالمجئ لينبهنا إلى معنى ربما نغفل عنه، وهو أنه من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة، لا الذي يعمل الحسنة فيحبطها بأنواع المحبطات كالرياء مثلاً ولا الذي يعمل السيئة فيتوب منها قبل الممات، إنما الثواب يكون للذين يجيئون بحسناتهم يوم القيامة ولم يكونوا أحبطوها قبل ذلك بأنواع المحبطات، وكذلك يكون العقاب على الذين يجيئون بسيئاتهم يوم القيامة ولم يكونوا تابوا منها في الدنيا قبل الممات أو يجيئون بمظالم العباد ولم يكونوا تنصلوا منها وحاللوا خصومهم في الدنيا قبل الممات، وفي هذا التعبير اللطيف تنبيه من الله لنا أن نسارع بالتوبة ورد المظالم في الدنيا قبل الممات وأن نحافظ على حسناتنا ولا نرتكب الكبائر التي تحبط الأعمال، إما كبائر الشرك وإما كبائر النفاق فالعبرة لا بمجرد الأعمال، إنما العبرة بحفظ الأعمال مما

يفسدها حتى نجيء بها يوم الدين، وهذه الآية تصرح بعدل الله : ﴿ فَلاَ يُجْزَى الذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وجاء في موضع آخر من القرآن : ﴿ إنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةٌ يُضَاعِفْهَا وَيُؤتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾[النساء : ٤٠] ، ثم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إنَّ الذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ ﴾[الآية : ٨٥] .

هذه الآية بشرى من الله لرسوله المهاجر من مكة ذليلاً خائفاً يترقب، بشره الله أنه سيعود إليها ظافرا منتصراً، وقد تحققت البشارة بعد بضع سنين وهي من معجزات القرآن الدالة على أن القرآن كلام الله عالم الغيب العزيز المنتصر الذي هو على كل شيء مقتدر، يقول الله تعالى لنبيه -ﷺ- : ﴿ إنَّ الذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعادٍ ﴾ إن ربك الذي نزل عليك القرآن وفرض عليك حفظه وتبليغه للناس والعمل بما فيه لرادك ، الخبر مؤكد لا مجال للشك فيه وقد تحقق والحمد له :

﴿ إِلَى مَعَادٍ ﴾ .

وهو من العادة أو العودة أي سيردك إلى بلدك الذي أحببته وتعودت المقام فيه أو من العودة أي سيردك إلى البلد الذي أحببته عائداً منتصراً عزيزاً وعلى كل فهي بشارة من الله لنبيه وله أسوة بأخيه موسى الذي قص الله خبر هجرته وعودته في هذه السورة الكريمة ، يخبر الله نبيه محمد -ﷺ- وأن الله سيرده إلى بلد الله الأمين كما ردموسى إلى مصر بعد هجرته منها خائفاً يترقب والله غالب على أمره ولكل أجل كتاب .

﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قل لهؤلاء المشركين الطاعنين في رسالتك الذين يقولون إنك في ضلال مبين قل لهم

ربي أعلم بمن جاء بالهدى من الله و من هو في ضلال مبين، وكفى بالله عليما وكفى بالله شهيداً، وسيأتي اليوم الذي يحكم الله فيه بيني وبينكم وهو خير الحاكمين، وهذا الكلام فيه قطع للنزاع ورد على شبهاتهم، ومن تأمله يكفيه ويثنيه عن العناد واللجاج.

ثم قال تعالى :

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾[الآية: ٨٦].

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه وما كنت قبل وحينا إليك ترجو أن يلقى إليك الكتاب، ولكن رحمة ربك اختصتك بهذا الوحي، وبتلقي القرآن والله أعلم حيث يجعل رسالاته «تبارك الله ما وحى بمكتسب» يقول الله هذا امتنانا على نبيه بنعمة الوحي والرسالة، وقطعا لشُبَه من يقول إن محمداً يدعي الوحي أو يتكلفه طمعاً في السيادة والعلو، كلا فما كان يفكر في هذا الأمر قبل نزوله بل فوجئ به مفاجأة حتى خشي على نفسه، فرجع إلى زوجه خديجة فطمأنته بكلماتها المشهورة، وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فطمأنه وثبته بكلماته المشهورة، ثم طمأنه الله بما أنزل عليه بعد ذلك من الوحي المتتابع، تلك رحمة الله رب محمد اختصت محمداً -ﷺ- بهذا الفضل.

﴿فَلاَ تَكُونَنَ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ .

يقول الله لنبيه فلا تكونن معينا للكافرين على تماديهم في كفرهم بمداهنتك لهم وممالأتك ،بل اغلظ عليهم وصارحهم بالحق واصدع بما تؤمر، وأعلمهم أنهم في ضلال مبين حتى يكون ذلك سببا في رجوعهم إلى هداية الله ثم يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً نبيه :

﴿وَلاَ يُصَدُّنَّكَ عَنَ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتِ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ٨٧].

الخطاب موجَّه من الله لنبيه محمد - ﷺ - والمقصود به كل من يستمع الخطاب وينتفع بالذكرى من المؤمنين والمؤمنات، والنهي مؤكد لأن الكفار في كل زمان يحاولون أن يصدوا المؤمنين بمختلف أنواع أساليب الصد ومن أساليب الصد عن آيات الله بعد نزولها أنهم يقولون إن محمداً عبقري عظيم من عظماء التاريخ وهو البطل المجلى فيهم كما كتب «كارميل» يقولون ذلك ليدخلوا في أفكار الشباب المتعلم وفي قلوبهم أن محمداً عبقري ما هر، جاء بهذه الدعوة من تلقاء نفسه.

ويقولون إن هذا أبلغ في وصفه بالعبقرية والعظمة، فاحذروا أيها الشباب أن تنخدعوا بهذه الأقوال، إنها صد عن سبيل الله فلا يصدنكم بها عن الحق وما محمد إلا رسول مبلغ للناس ما أنزل إليه من ربه وهو مع هذا رجل عبقري حكيم موفق ملهم وقل ما شئت مدحا فيه ولكن مع الاعتقاد أنه رسول مبلغ عن ربه وأن القرآن كلام الله أنزله الله على رسوله ليكون للعالمين نذيراً يقول الله تعالى لنبيه محذراً من كيد المشركين: ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك أنزلها بالحق فاحذرهم أن يميلوك عنها أو عن بعضها ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك وادع إلى ربك أي إلى صراط ربك دين ربك فالدعوة إلى الله ولا تكونن من المشركين.

يؤكد الله النهي لرسوله ولكل تال للقرآن من أمته ينهانا أن نكون من المشركين الذين هم بربهم يعدلون والشرك أنواع كثيرة منه ما هو أخفى من دبيب النمل. فلنجتهد في إخلاص ديننا لله عز وجل ألا لله الدين الخالص، ونعوذ بالله أن نشرك بربنا

ما لم ينزل به سلطانا ، أو أن نتشبه بالمشركين في شيء من أقوالهم وأفعالهم وعبادتهم لأن من تشبه بقوم فهو منه كما جاء في الأثر ، ومن سايرهم أو مالأهم أو رضي بأفعالهم فهو منهم أو كأنه منهم ومن أطاعهم في بعض ما يسخط الله فهو منهم .

﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[الآية : ٨٨] .

هذا نهي آخر من الله توكيداً لما سبق وهذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين من المسلمين أن يسايروهم في عقيدة أو فعل أو دعاء غير الله لأن الدعاء عبادة ، يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً لنبيه والخطاب لنا جميعا والنهي لنا جميعاً :

﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ .

أي لا تعبد مع الله إلها آخر ومن دعوته فقد عبدته ولا معبود بحق إلا الله لا إله إلا هو ، بعد النهي يقرر الله الحقيقة الكبرى التي قامت بها السموات والأرض وكل شيء في الوجود وهي أن لا إله إلا الله رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغارب رب العالمين

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

كل شئ هالك ويفنى ولا يبقى إلا وجه الله أي إلا ذاته وأطلق الوجه وأراد به الذات العلية له الحكم قضاء وتنفيذاً وتصرفا لا لغيره ولا يشركه في ذلك أحد ، ومن كان كذلك فهو أحق أن يعبد ويدعى وحده ويتوكل عليه .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

إليه وحده رجوع الخلائق يوم القيامة ليحاسبهم ويجازيهم على أفعالهم وفي هذه الكلمة تقرير للحشر في يوم البعث والجزاء، يختم الله السورة بهذه الآيات العظيمة التي هي من الله وصايا لعباده وفيها تقرير لعقيدة التوحيد، وثناء على الله بما هو أهله وحكم على جميع المخلوقات بالفناء والهلاك ثم الرجوع إليه بعد الهلاك وهي آيات يلين لها الحديد وتندك لها الجبال الرواسي ولكن القلوب القاسية لا تلين ، ﴿ قُتِلَ الانسَانُ ما أَكْفَرَهُ ﴾ ونعوذ بالله من قساوة القلوب وغفلتها ونسأل الله العلي القدير الحي الذي لا يموت أن يحكم لنا حكماً فيه نجاتنا وسلامتنا في الدارين وأن يجعلنا من عباده المخلصين آمين والحمد لله رب العالمين .

تم ما تيسر لنا من تفسير هذه السورة المباركة والحمد لله رب العالمين .

سورة الفرقان

سـورة الشعــراء

من قوله تعالى .... إلى قوله تعالى	الآيـات من : إلى	الصفحات من : إلى
﴿ طسم تلك آيات الكتاب .. . ربك لهو العزيز الرحيم ﴾	١ - ٩	١١٣ - ١٢٣
﴿ وإذ نادي ربك موسى .. ياتوك بكل سحـار عليم ﴾	١٠ - ٣٧	١٢٣ - ١٣٧
﴿ فجمع السحرة لميقات يوم .. أن كنا أوّل المؤمنين ﴾	٣٨ - ٥١	١٣٧ - ١٤٧
﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر .. ربك لهو العزيز الرحيم ﴾	٥٢ - ٦٨	١٤٧ - ١٥٥
﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ... من اتى الله بقلب سليم ﴾	٦٩ - ٨٩	١٥٥ - ١٧٠
﴿ وأزلفت الجنة للمتقين .. ربك لهو العزيز الرحيم ﴾	٩٠ - ١٠٤	١٧٠ - ١٧٧
﴿ كذبت قوم نوح المرسلين .. ربك لهو العزيز الرحيم ﴾	١٠٥ - ١٢٢	١٧٨ - ١٨٦
﴿ كـذبت عـاد المرسلين.. ربك لهـو العـزيز الرحـيم ﴾	١٢٣ - ١٤٠	١٨٦ - ١٩٣
﴿ كـذبـت ثمـود المرسلين.. ربك لهـو العـزيز الرحـيم ﴾	١٤١ - ١٥٩	١٩٣ - ٢٠١
﴿ كذبت قوم لوط المرسلين.. ربك لهو العزيز الرحيم ﴾	١٦٠ - ١٧٥	٢٠١ - ٢٠٨
﴿ كذب أصحاب ليكة المرسلين .. ربك لهو العزيز الرحيم ﴾	١٧٦ - ١٩١	٢٠٨ - ٢١٤
﴿ وإنه لتنزيل رب العـالمين ... ذكـرى ومـا كنا ظالمين ﴾	١٩٢ - ٢٠٩	٢١٤ - ٢٢٢
﴿ وما تـنزلت به الشياطين ... إنهم عن السمع لمعزولون ﴾	٢١٠ - ٢١٢	٢٢٢ - ٢٢٣
﴿ فـلا تـدع مع الله إلهـا آخـر ... أي منقلب ينقلبـون ﴾	٢١٣ - ٢٢٧	٢٢٣ - ٢٣٣

سورة النمل

سـورة القصص

رقم الإيداع : ٨٩/ ٢٠٠٣

طبع بمطابع النهضة

٥٦٣٧٥٥ - ٥٦٣١٠٤